الإضافة النّوعيّة القرآنيّة

مُراجعة نقديّة في سفر التكوين

مصطفى بوهندي





مصطفى بوهندي

الإضافة النّوعيّة القرآنيّة

مُراجعة نقديّة في سفر التكوين



بيروت ـ لندن

الطبعة الأولى ٢٠١١

ISBN 978-1-85516-773-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٠٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٠٩٦١
e-mail: info@daralsaqi.com

المحتويات

مقدمة

هذه أولى ثمرات أعمال «مركز أديان للبحث والترجمة»، جاءت ضمن سلسلة من أربعة كتب ستصدر تباعاً - إن شاء اللّه -، أطلقنا عليها عنوان «الإضافة النوعية القرآنية»؛ كانت حلقتها الأولى تتحدث عن الآباء الكبار، من آدم إلى يوسف الصديق عليهم السلام؛ وستليها ثلاث حلقات أخرى تعرض مسيرة الأنبياء في الكتب المقدسة والقرآن الكريم؛ خصصنا حلقتها الثانية للحديث عن أنبياء بني إسرائيل: موسى وهارون وداود وسليمان؛ وخصصنا الحلقة الثالثة للحديث عن الإضافة النوعية القرآنية في أنبياء النصارى: زكريا ومريم ويحيى وعيسى؛ وكانت الحلقة الرابعة بياناً للإضافة القرآنية في مجال السيرة النبوية.

نأمل من هذه السلسلة، أن تقدم رؤية واضحة عمّا أضافه القرآن الكريم، من إضافات نوعية إلى المعرفة الكتابية اليهودية والنصرانية، في الحلقات (١، ٢، ٣)؛ والتي تجيب عن سؤال: لماذا يكرّر القرآن ما جاء في كتب أهل الكتاب، تكراراً حرفياً في كثير من الأحيان، مع أنه ينكر أن يكون محمد عليه السلام قد اقتبسه من كتب السابقين، وصاغه بلسان عربي مبين؟ كما تقدم هذه السلسلة، في حلقتها الرابعة رؤية واضحة عما أضافه القرآن الكريم من إضافة نوعية إلى المعرفة العربية الإسلامية نفسها؛ وخصوصاً في ما يتعلق

بنبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته وتاريخه ومجتمعه وثقافته الخاصة والعامة منذ بعثته إلى وفاته؛ في محاولة لتقديم سيرة نبوية جديدة، تنطلق من القرآن ذاته؛ وتصحّح مسارات الرواية التاريخية الإسلامية ومنهجها؛ وسيوازي هذا الإصدار - إن شاء اللّه - سلاسل أخرى، تتحدث عن الأديان والكتب المقدسة والقرآن الكريم، وتاريخ الفكر والثقافة الدينية، وتطبيقات العلوم الإنسانية في المجال الديني، ودراسات مختلفة، وصفية وتحليلية ونقدية ولسانية ومقارنة للظواهر والخطابات والإشكالات، التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالأديان، قديماً وحديثاً.

أما عن هذا الإصدار الأول، فإنه سيتناول ما تناوله سفر التكوين في الكتاب المقدس: بدء الخليقة، وخلق آدم، وقصة ابنَيْ آدم، ونوح، وإبراهيم، والأسباط، ويوسف؛ في دراسة مقارنة، تركز على بيان الإضافة النوعية القرآنية على النص الكتابي السابق، في كل هذه المواضيع؛ وتبيّن المنهج القرآني في التعامل مع جميع هذه القضايا؛ وترسم الأهداف التي سعى القرآن الكريم إلى إبرازها واستعادتها، بعد أن غابت أو أخفيت أو انزاحت في التلاوات السابقة؛ ومنها أبعاد دينية وإنسانية كثيرة.

ويسعدني في هذا التقديم أن أحمد الله سبحانه أولاً على تهيئة ظروف عديدة، ما كان لهذا العمل أن يخرج إلى الوجود لولا تهيّؤها. وأشكر الذين ما فتئوا يدعمون هذا المشروع العلمي مادياً ومعنوياً، ولا يرجون من ورائه جزاءً ولا شكوراً؛ وإنما يأملون أن يُحقق للإنسان والمجتمع والفكر خيراً كثيراً؛ فأسأل الله لهم منه سبحانه أجراً كبيراً.

كذلك يسعدني أن أشكر كل الذين يتحركون من وراء حجاب، جنوداً مجندة؛ لا يبخلون بوقتهم وجهدهم وعلمهم ودعواتهم، لإنجاح هذا المشروع، فأسأل الله لهم أن يحسن جزاءهم بما هم أهل له.

ولا يفوتني أن أشكر كل العاملين معي في «مركز أديان للبحث والترجمة»، على ما أمدّوني به من مساعدة ومشورة ومراجعة وإعداد ومتابعة؛ ولا أنسى أن أشكر زوجتي وهيبة، التي ما برحت تلازمني، وتجادلني وتجرؤ على انتقادي، وتصرّ على أن تلزمني ببرنامج العمل الذي أخذته على نفسي؛ حتى أثمر إصرارها صدور هذا الكتاب، في أجل معقول، ومعه أعمال أخرى ستصدر قريباً إن شاء اللّه.

المحمدية ٠٨/٠٢/٢٠١١

تمهيد

ما إن يعرض موضوع المقارنة بين الأديان، حتى يتبادر إلى الأذهان البحث عن ما هو الدين الصحيح والكتاب الصحيح؟ وما هي النواقص والعيوب الموجودة في الدين الباطل والكتاب المحرّف أو المزوّر؟ وذلك لكون كل واحد من أصحاب الأديان المختلفة، ونخص بالذكر في دراستنا هذه الأديان الإبراهيمية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، له مجموعة من الأفكار المسبقة عن مخالفيه، تجعل دينه وكتابه هو الأصح، وكتب مخالفيه وأديانهم باطلة ليست على شيء.

فاليهود يعتبرون دينهم هو الأصح وكتابهم هو الأوثق، ورسلهم هم الأنبياء، وما عداهم ممن جاء بعدهم، سواء في المسيحية مع عيسى ابن مريم الذي يعتبرونه مسيحاً دجالاً، أو في الإسلام مع محمد النبي الأمي الذي يعتبرونه مفترياً كاذباً، وأن ما جاء به السيد المسيح ومحمد لم يكن إلا سرقة وتلفيقاً من كتابهم المقدس.

والنصارى، وإن اعترفوا بكتب اليهود، إلا أنهم نسخوها واعتبروا ما فيها عهداً قديماً انتهت صلاحيته بأسفار العهد الجديد، التي تمثلها الأناجيل ورسائل التلاميذ ورؤاهم، وأما القرآن الكريم وما جاء به محمد فاعتبروه كما اعتبره اليهود من قبلهم، كتاباً مأخوذاً من كتبهم ومصوغاً بلغة عربية، وأن محمداً افتراه وادّعى أنه أوحي إليه من الله بواسطة الملك جبرائيل.

وأما المسلمون، فلهم قراءتهم الخاصة لهذه الكتب وحكمهم الخاص على ديانتيها، فهم يؤمنون بها جميعاً، لكنهم يعتبرونها قد تعرضت للتحريف والتزوير، وأن ديانتيها قد تعرضتا للتجاوز والنسخ.

من أجل ذلك كانت المقارنة بين كتب اليهود والنصارى من جهة، والقرآن الكريم من جهة ثانية؛ إما لبيان ما اقتبسه محمد من كتب اليهود أو النصارى القانونية أو المخفية، وكيفية تصرفه فيها وتشويهه لها وإضافة عناصر من الثقافة العربية إليها، إن كان الدارس يهودياً أو نصرانياً؛ أو لبيان التحريفات والتزويرات والتناقضات التي قام بها وأحدثها أهل الكتاب في كتبهم مقارنة بما جاء به القرآن الكريم المصحح والمهيمن على ما سبقه إن كان الدارس مسلماً.

غير أننا في دراستنا هذه، التي عنوناها بـ«الإضافة النوعية القرآنية»، لن نسلك نفس طريق الفريقين؛ لكوننا على يقين بأن ما جاء به الأنبياء وسجلته الكتب المقدسة والقرآن الكريم، لا يمكن تجاوزه ولا نسخه؛ وأنهم عليهم السلام ما جاؤوا لينقضوا ولا ليبطلوا، وإنما ليُصدِّق بعضُهم بعضاً وليُكمِّلوا، وليُبينوا ما اختلف فيه الناس، أو فهموه فهماً خاطئاً، أو التبس عليهم الحق فيه بالباطل، أو نسوه ولم يذكروه، أو أراد الظالمون أن يخفوه، وغير ذلك من الأعراض البشرية التي تتعرض لها المعرفة ويتعرض لها الدين.

ونحن نعتقد أن الحق الموجود في هذه الكتب جميعاً محفوظ، لا يمكن دمغه بالباطل مهما كان حجمه وقوته، وهو المعنى المقصود في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (سورة الحجر، ٩)، وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (سورة الصف، ٨)، وهو يشمل الذكر الذي جاء به الرسل جميعاً، وليس القرآن الكريم وحده؛ وهو ذكر لا يمكن إطفاء نوره بحال، رغم محاولات المغرضين.

كما نعتقد أن مهمة المرسلين جميعاً ومهمة خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، كانت في الأساس تصديقية تؤكد مهام الرسل السابقين، وتؤمّن عليها، كما تنبّه إلى العيوب والأخطاء والاختلالات التي وقعت وتقع من الناس في التعامل مع كتاب الله، وأن تلك التنبيهات ليست خاصة باليهود والنصارى، بل تشمل المسلمين أيضاً، باعتبار القرآن الكريم - وكذلك الكتب المقدسة قبله - يقدّم منهجاً متكاملاً لتعامل الإنسان مع الذكر قديماً وحديثاً وعالمياً ودائماً.

لقد عالجت الكتب المقدسة المواضيع المختلفة التي تناولتها بأساليب مختلفة، كان للقصة الدور الأبرز فيها، ولعل المطلع على أسفار العهد القديم وكذا الجديد، ليعجب من هذه الوفرة الكبيرة في القصص، حتى إن البعض يظن أنه كتاب قصصي أو تاريخي، يحكي لنا أمور الدين من خلال قصة طويلة تبدأ من خلق السموات والأرض إلى آخر الأنبياء والمرسلين اليهود وآخر تلاميذ السيد المسيح النصارى.

وجاء القرآن الكريم وسار على نفس النهج في استعمال الأساليب المختلفة في معالجة مواضيع الدين، وكان للقصة دور كبير وأساسي في هذه المعالجة؛ ولم تكن القصص التي أوردها القرآن جديدة في مواضيعها، بل كانت هي عينها الواردة في الكتب المقدسة من قبل (آدم ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومريم...)، وبعضها كان معلوماً عند شعوب المنطقة العربية (عاد وثمود ومدين).

غير أن القرآن الكريم في معالجته لهذه القصص كان يقدّم رؤى جديدة واقتراحات مفيدة، يتطرّق من خلالها إلى مدارسة إشكالات ثقافية وفكرية وتصورية واعتقادية وسلوكية مختلفة، تتخذ من جسد القصة مادتها لتنفذ إلى

أعماق النفس الإنسانية، وتكشف عن السنن التاريخية، وتبيّن أسرار الاجتماع الإنساني، وقواعد السلوك والعلاقات بين الناس، على المستويات المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

وبذلك كان القرآن الكريم يقدم قراءته الجديدة، التي سمّاها «التلاوة بالحق»، لنفس القصص المتداولة بين الناس في زمن النزول، والمشكِّلة لعقلياتهم وثقافاتهم وتصوراتهم للعالم والغيب والإنسان؛ ومن خلال هذا التقديم، كان القرآن الكريم يقوم بمراجعته النقدية؛ ليشفي الناس من أمراض ثقافية وعقد نفسية واجتماعية جماعية، استبدّت بهم حيناً من الدهر وأرهقتهم كثيراً؛ وليؤكد على المكتسبات الإنسانية التي أسّس لها رسل الله من قبله، تصديقاً لما بين يديه، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (سورة يوسف)؛ ومن أجل وضع الأمور في نصابها، وجعلها منسجمة مع السنن الثابتة في الخلق والأمر، ليحقق الإنسان بهذا الانسجام المهمة التي خلق من أجلها وهي الاستخلاف في الأرض والاستمداد من السماء.

الفصل الأول

خلق الكون والإنسان



خلق السموات والأرض في ستة أيام

يؤكد القرآن الكريم ما جاء في سفر التكوين عن موضوع الخلق، وأن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء، وأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما وباركهما، وقدر في الأرض أقواتها في ستة أيام، وأن الله ما خلق ذلك إلا للإنسان الذي سيكون سيد هذه الأرض، وسخر له جميع مخلوقاتها:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، ٢٩).

إن النص التوراتي والقرآني يؤكدان أن السماوات والأرض قد خلقهما الله على مراحل، لا على نحو فجائي، وهو مفهوم التكوين الذي لابد أن يخضع للنواميس التي وضعها الله في الوجود، وهذا لا يتنافى مع علم الله وقدرته المطلقة، بل هو من صميم هذا العلم وهذه القدرة.

الاستواء إلى السماء

أكد القرآن الكريم ما جاء في التوراة من إكمال خلق السماوات والأرض وكل جندهما في ستة أيام، لكنه نبّه إلى الالتباس الذي يقع فيه الناس عندما يقارنون أنفسهم بالله عز وجل، ويظنون أن الله قد أعياه خلق السماوات والأرض في ستة أيام فاستراح من هذا التعب في اليوم السابع؛ فوقف القرآن

موقفاً مراجعاً لهذا الفهم الذي لا يتناسب مع طبيعته عز وجل؛ ولذلك وردت نصوص عديدة تعالج هذا الفهم، وتبين أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وما مسّه من لغوب، ولم يَعْيَ بخلقهن؛ وهو المفهوم الذي قد يثيره لفظ استراح في اليوم السابع، ولذلك استعمل القرآن مفهوماً جديداً، وهو مفهوم الاستواء، ثم استوى على العرش؛ والاستواء هنا ليس من أجل الراحة وليس بسبب العياء، ولكن لتدبير أمر السماوات والأرض بعد أن أكمل خلقهن. وهكذا كان القرآن يؤكد المفاهيم الكتابية مزيلاً عنها الانزياحات التي تطرأ على أفهام الناس لها.

خلق الإنسان

حدثنا سفر التكوين عن خلق الإنسان في آخر مرحلة من مراحل التكوين، وأنه صوره في أحسن صورة على شبه الله وصورته، وجعل له سلطة مطلقة على «سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ وَعَلَى كُلِّ الارْضِ وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الارْضِ». «(٢٨) وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: «اثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأوا الارْضَ وَأَخْضِعُوهَا وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ». (٢٩) وَقَالَ اللهُ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلٍ يُبْزِرُ بِزْراً عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْراً لَكُمْ يَكُونُ طَعَاماً. (٣٠) وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَاماً». وَكَانَ كَذَلِكَ»[1].

وجاء القرآن الكريم ليؤكد هذه الحقائق، التي عبّر عنها بلغة أخرى، فالله

---

(١) سفر التكوين، إصحاح ١/ ٢٨-٣٠.

خلق الإنسان في أحسن صورة وأحسن تقويم، وسخر للناس ما في الأرض جميعاً، وذلل لهم ما فيها من حيوانات وأنعام، وحملهم في البر والبحر، وجعل لهم الأرض ذلولاً، وغير ذلك مما يؤكد المواهب البشرية العظيمة التي حباه الله بها، والسلطة المطلقة على جميع المخلوقات التي أعطاه الله إياها؛ لكن القرآن أضاف معنى آخر يحدّ من غلواء الناس في أنفسهم مقارنة مع الله؛ فالله سبحانه ليس كمثله شيء، والناس أمامه مهما أوتوا من مواهب فهم بشر مخلوقون وفانون وسيقفون أمام الله يوم القيامة للحساب؛ ولا ينبغي لهم الادعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه، أو أنهم أولياؤه من دون الناس، أو أن ينسبوا أنفسهم له، فيجعلوا له صاحبة وولداً؛ وهذه كلها فهوم طارئة على كتاب الله ليست من صميمه، جاء القرآن ليكشف عنها ويبيّن انحرافها عن الحق الموجود في كلام الله، وهو ما تؤكده العديد من النصوص الكتابية الأخرى.

البعد الغيبي والملائكة

بدأ سفر التكوين حديثه عن تجربة الإنسان في الأرض، بالحديث عن خلقه ووضعه في الجنة، وإنبات أشجارها، التي منها شجرة الحياة وشجرة المعرفة، قال:

«(٧) وَجَبَلَ الرَّبُّ الإلَهُ آدَمَ تُراباً مِنَ الارْضِ وَنَفَخَ فِي أنْفِهِ نَسَمَةَ حَياةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسا حَيَّةً. (٨) وَغَرَسَ الرَّبُّ الإلَهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقاً وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. (٩) وَأنْبَتَ الرَّبُّ الإلَهُ مِنَ الأرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأكْلِ وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ»[١].

(١) سفر التكوين إصحاح ٢/ ٧-٩.

بينما بدأ القرآن حديثه عن تجربة الإنسان في الأرض، قبل خلقه، حيث أُعلم الملائكة بهذا المخلوق الجديد الذي سيوكل الله إليه خلافة الأرض وتعميرها؛ وهو أمر فائق الأهمية بالنسبة لبيان أهمية هذا الإنسان وأهمية مسؤوليته في الأرض؛ وإن هذا الجزء من القصة الذي أغفله سفر التكوين إنما كان بسبب الكتبة والصدوقيين الذين كُلّفوا بتحرير الكتاب، لكن اعتقادهم كان يتنافى مع الإيمان بالغيب بما فيه من ملائكة وبعث وجنة ونار وما إلى ذلك، ولذلك فإنهم شطبوا على قصة الملائكة من سفر التكوين، وإن بقي في النص ما يدل عليها، كما سنراه في حينه؛ فإن نصوصاً أخرى قانونية وغير قانونية، حدثتنا باستفاضة عن هذا الموضوع.

إن القرآن الكريم، وهو يسترجع موضوع الملائكة إلى قصة الإنسان، كان يسترجع من جهة البعد الغيبي الذي قرّر الكهنوت اليهودي إخفاءه، كما يستعيد البعد الإنساني الذي أسهم طول العهد في نسيانه؛ وباسترجاع هذا الموضوع المحوري المغيّب، ستدرك الأبعاد العظيمة للقصة، وعلى رأسها أهمية الإنسان في هذا الوجود.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (سورة البقرة).

لقد رأت الملائكة في استخلاف الإنسان ما يدعو إلى الاستغراب وطرح الأسئلة عن ماهية هذا الكائن المستخلف دونها، وهي التي لا تعصي الله ما أمرها وتفعل ما تؤمر؛ فلم تر فيه إلا مخلوقاً مدمّراً يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فهي أولى منه، لكونها تسبّح بحمد الله وتقدّس له؛ فتضمّن اعتراضُها بياناً للأسباب الموجبة للاستخلاف في الأرض من عدمه.

لكن الله العليم الحكيم بيّن لها أنه يعلم ما لا يعلمون، وأنه اختار الإنسان بناءً على علمه المسبق بمختلف مخلوقاته، وأن السبب الحقيقي للاستخلاف هو المؤهل العلمي وليس الطاعة، ولذلك أجرى للإنسان والملائكة مباراة اختبار يبيّن من خلالها من هو الأصلح للاستخلاف. قال تعالى:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (سورة البقرة)

إن الملائكة لم يكونوا مؤهلين للاستخلاف في الأرض، ولذلك لم ينجحوا في مباراة الأسماء التي نجح فيها الإنسان بامتياز، وهو ما أهّله ليكون سيد الأرض بلا منازع حتى من الملائكة؛ وهو ما أعاد له القرآن الكريم الاعتبار. وإن النص التوراتي، رغم ما تعرّض له موضوع الملائكة من إخفاء، ما زال شاهداً على هذا الموضوع، حيث نجد في الإصحاح الثاني من سفر التكوين وفي الحديث عن قصة آدم فقرة من قصة الملائكة المخفية، جاء فيها: «(١٩) وَجَبَلَ الرَّبُّ الإلهُ مِنَ الأرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. (٢٠) فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءٍ جَمِيعَ الْبَهَائِمِ وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَجَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ»[١].

إن هذه الفقرة المتحدثة عن تسمية المخلوقات، هي جزء من قصة الإنسان والملائكة، ولا تُفهم إلا في إطارها، حيث يعطي آدم للمخلوقات

---

(١) سفر التكوين، إصحاح ٢/ ١٩-٢٠.

أسماءها بعد أن عجزت الملائكة عن ذلك؛ وقد ذكر في نصوص عديدة غير قانونية قصة الأسماء بين ابن الإنسان والملائكة، بعد أن كانت تسأل عن السبب الذي جعل الله يستخلف ابن الإنسان بدلاً منها، وكانت تقول من هو ابن الإنسان هذا؟ وإن نصوصاً من أسفار العهد القديم والجديد ما زالت تحتوي على هذه المقولات، منها ما جاء في مزامير داود: «إِذَا أَرَى سَمَاوَاتِكَ عَمَلَ أَصَابِعِكَ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوَّنْتَهَا (٤) فَمَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ! (٥) وَتَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. (٦) تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. (٧) الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ جَمِيعاً وَبَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضاً (٨) وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ. (٩) أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ!»[1] وهي نصوص تتحدث عن المنافسة بين الملائكة وابن الإنسان في موضوع الاستخلاف في الأرض، التي فاز بها ابن الإنسان، فسلطه الله على أعمال يديه، وجعل كل شيء تحت قدميه.

ولقد تنبّه بولس إلى هذا الأمر، ووضعه في رسالته إلى العبرانيين، جاعلاً من ابن الإنسان - الذي كان يعني كل جنس بني آدم مقابل الملائكة - اسماً خاصاً بالسيد المسيح الذي أخضع له كل شيء، قال:

«لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نَتَنَبَّهَ أَكْثَرَ إِلَى مَا سَمِعْنَا لِئَلاَّ نَفُوتَهُ، (٢) لأَنَّهُ إِنْ كَانَتِ الْكَلِمَةُ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ صَارَتْ ثَابِتَةً، وَكُلُّ تَعَدٍّ وَمَعْصِيَةٍ نَالَ مُجَازَاةً عَادِلَةً، (٣) فَكَيْفَ نَنْجُو نَحْنُ إِنْ أَهْمَلْنَا خَلاَصاً هَذَا مِقْدَارُهُ، قَدِ ابْتَدَأَ الرَّبُّ بِالتَّكَلُّمِ بِهِ، ثُمَّ تَثَبَّتَ لَنَا مِنَ الَّذِينَ سَمِعُوا، (٤) شَاهِداً اللهُ مَعَهُمْ بِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ وَقُوَّاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَمَوَاهِبِ الرُّوحِ الْقُدُسِ، حَسَبَ إِرَادَتِهِ؟ (٥) فَإِنَّهُ

(١) مزمور ٨/ ٣-٩.

لِمَلاَئِكَةٍ لَمْ يُخْضِعِ «الْعَالَمَ الْعَتِيدَ» الَّذِي نَتَكَلَّمُ عَنْهُ. (٦) لَكِنْ شَهِدَ وَاحِدٌ فِي مَوْضِعٍ قَائِلاً: «مَا هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ، أَوِ ابْنُ الإِنْسَانِ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ؟ (٧) وَضَعْتَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ. بِمَجْدٍ وَكَرَامَةٍ كَلَّلْتَهُ، وَأَقَمْتَهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. (٨) أَخْضَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ». لأَنَّهُ إِذْ أَخْضَعَ الْكُلَّ لَهُ لَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً غَيْرَ خَاضِعٍ لَهُ - عَلَى أَنَّنَا الآنَ لَسْنَا نَرَى الْكُلَّ بَعْدُ مُخْضَعاً لَهُ -»[١].

القرآن أعاد قراءة قصة آدم ليعيد للإنسان وابن الإنسان أهميته وقيمته في هذه الأرض، وقد ذكرتها الكتب المقدسة من قبل، لكن تفسيرات تاريخية متعددة أفقدتها أبعادها، حيث فقدت القصة في سفر التكوين بعد القيمة الأساسية للإنسان، التي تتجاوز الملائكة في حد ذاتها، وربما يكون سبب هذا الإغفال لهذا الجزء من القصة يرجع لهذا التقييم الكبير للكائن البشري على الملائكة حتى سجدت له. كما فقدت القصة في أسفار العهد الجديد ارتباطها بالكائن البشري عندما تحولت إلى خصوصية للسيد المسيح تجعل منه إلهاً تخضع له سائر المخلوقات بما فيها البشر، وصار المجيء الأول لابن الإنسان - الذي كان يعني استخلاف الإنسان في الأرض-، مجيئاً أول للسيد المسيح (ابن الله)، ويصير المجيء الثاني لابن الإنسان - الذي يعني بعث الإنسان وحسابه، فإما ينال المجد وإما يصير إلى الهلاك-؛ هو قيامة السيد المسيح للجلوس على يمين القدرة لمحاسبة العباد.

إن قصة آدم في هذه القراءة الجديدة تعيد للكتب المقدسة أبعادها الأساسية الإنسانية، التي أهمها في قصتنا هو بُعد القيمة الاعتبارية للكائن البشري على سائر المخلوقات بما فيها الملائكة؛ وبحصول الإنسان على هذه القيمة المطلقة في هذا الوجود سيكون تعامله مع الدين والكتب المقدسة

---

(١) الرسالة إلى العبرانيين ١-٨.

مختلفاً، لأنها ترفعه بدل أن تخضعه، وتحرّره بدل أن تستعبده، وتُخْضِع له كل شيء في هذا الوجود بدل أن تجعل منه خاضعاً للأشياء التي حوله.

سجود الملائكة

ذكرت قصة السجود في أسفار أبوكريفية عديدة، لكنها لم تذكر في سفر التكوين القانوني، لما تحمله من تعظيم للكائن البشري يفوق تصور الكهنة والكتبة اليهود الذين لم يقبلوا إنساناً بكل تلك القيمة التي تتجاوز قيمة الملائكة، وتدفعها للسجود له؛ غير أن القرآن الكريم أعاد الاعتبار لهذا المقطع المحذوف ليؤكد على هذه القيمة الاعتبارية للكائن البشري حتى على الملائكة كما رأيناه في الفقرة السابقة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ وهناك نصوص قرآنية عديدة تتحدث عن هذا السجود، وتبيّن الفوز الإنساني على الكائنات الأخرى في موضوع الاستخلاف في الأرض، وهي قيمة قرآنية مضافة، يسترجعها القرآن الكريم بعد أن كاد يلفها النسيان في الكتاب السابق.

رفض إبليس

لأن الأسفار القانونية لم تتحدث عن قضية السجود والملائكة، فإنها بالتأكيد لن تتحدث عن رفض إبليس لهذا السجود، وإن كانت النصوص الأبوكريفية قد أوردته؛ لكن القرآن أعاد ذكره ليعرض علينا من خلال هذا الذكر فلسفة الحياة الإنسانية كما جاء بها الرسل؛ فإبليس هو الكائن المعادي للإنسان في هذه الأرض، ولذلك فلن يخضع لهذا الإنسان في حال من الأحوال، وسيمثل عدوه الدائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولهذا رفض السجود لآدم وأعلن الحرب عليه؛ وجاء القرآن ليؤكد هذا المعنى

الخالد من خلال قصة رفض سجود الشيطان للإنسان وإعلان الحرب عليه في نصوص قرآنية عديدة، قال تعالى:

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (سورة البقرة).

وتبيّن لنا النصوص القرآنية العديدة فلسفة هذا الرفض، فإبليس سيمثل منذ تلك اللحظة العدو الأبدي للإنسان، وسيعلن الحرب عليه وعلى ذريته، ولن يتوانى في إغوائهم وإخراجهم من النعيم واستدراجهم إلى الجحيم، وسيستعمل جميع الوسائل الممكنة في هذا الإغواء حتى يصل إلى مبتغاه؛ وسيبدأ أول الأمر مع آدم نفسه، ثم مع ذريته من بعده.

كل هذه الجوانب من قصة آدم أغفلها سفر التكوين، وقد بيّنا في ما سبق أن الكتبة ورجال الكهنوت لم يروا فيها البعد الديني المطلوب، واعتبروها ترقى بالإنسان إلى مرتبة لا يمكن أن يصلها في حال؛ ولكن القرآن الكريم أعاد لها الاعتبار، فكانت واحدة من القيم المضافة التي اختص بها الذكر الحكيم.

سكنى الجنة

يواصل سفر التكوين حديثه عن تجربة الإنسان الأولى، بعد خلقه، بأخذه ووضعه في الجنة، ودعوته إلى الأكل من جميع شجرها، إلا شجرة واحدة هي شجرة معرفة الخير والشر؛ قال: «(١٥) وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. (١٦) وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلا (١٧) وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلا تَأْكُلْ مِنْهَا لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتاً تَمُوتُ»[١].

والملاحظ أن آدم قد وضعه الله في الجنة وحده ومنع عليه شجرة واحدة

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٢ / ١٥-١٧.

من أشجارها، محذراً إياه من الموت إن أكل منها؛ وأما عن زوجه التي خلقت معه كما رأينا في الإصحاح السابق، «ذكراً وأنثى خلقهم»، فلم توجد معه، وإنما ستخلق من جديد داخل الجنة، وإليكم تفصيل خلقها في ما يلي:

«وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِيناً نَظِيرَهُ. (٢١) فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلَهُ سُبَاتاً عَلَى آدَمَ فَنَامَ فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْماً. (٢٢) وَبَنَى الرَّبُّ الإِلَهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. (٢٣) فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لانَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ». (٢٤) لِذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَداً وَاحِداً. (٢٥) وَكَانَا كِلاهُمَا عُرْيَانَيْنِ ادَمُ وَامْرَأَتُهُ وَهُمَا لا يَخْجَلانِ»[١].

هكذا إذاً يُفسَّر خلق المرأة، في فترة غفوة الرجل، فهي عظم من عظامه ولحم من لحمه وهي تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت، وهناك تفاسير أخرى للعلاقة التي تجمع بينهما.

غير أن للقرآن الكريم تلاوة أخرى لهذه القصة، تعتبر أن الله قد أسكن آدم وزوجه الجنة، ودعاهما إلى الأكل منها ومنع عليهما شجرة واحدة لم يحدّد نوعها ولا اسمها، قال تعالى:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (سورة البقرة)

والملاحظ، تبعاً للتلاوة القرآنية، أن آدم قد دخل هو وزوجه الجنة، وأن المرأة لم تخلق متأخرة عنه، بعد دخوله إليها، بالطريقة السحرية المقدمة إلينا في التفسيرات المدرجة في النص، لا من عظمه ولا من لحمه؛ وأن خلق آدم معناه خلق الإنسان، ذكراً وأنثى كما هي القاعدة الكونية والدينية، ﴿وَمِن

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٢ / ٢٠-٢٥.

﴿كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (سورة الذاريات، ٤٩)، ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (سورة النبأ، ٨)؛ ويلاحظ كذلك أن الخطاب الإلهي كان موجهاً إليهما معاً، لا إلى الرجل وحده قبل خلق زوجه من ضلعه، ويشهد على ذلك النص التوراتي نفسه إذ جاء فيه في معرض الحوار بين المرأة والحية: «وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لا تَأْكُلا مِنْهُ وَلا تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتَا»[1]. فالخطاب إذاً كان لهما معاً، لا إلى آدم وحده، وهو ما نص عليه القرآن الكريم.

إن القرآن وهو يعيد تلاوة القصة بهذا الشكل، كان يعيد الاعتبار للمرأة ودورها وقيمتها، إنها في الاعتبار القرآني مساوية للرجل وليست تابعة له، خلقت معه وليست بعده؛ وهي تتلقى الأوامر والنواهي الشرعية مثله تماماً، كما أنها تتحمّل المسؤولية عن أعمالها كاملة، مثلما يتحمّلها هو، سواء بسواء.

الأكل من الشجرة

والملاحظ أن كلتا القصتين التوراتية والقرآنية تحدثتا عن أكل آدم وزوجه، وعن المادة المحرم عليهما أكلها، والتي إنما هي الأشجار والثمار، ما يفيد أن القصتين كانتا تتحدثان عن عصر الالتقاط، حيث لم يعرف الإنسان الزراعة ولا الصيد ولا تربية المواشي، وإنما كان يعيش على ثمر الشجر، ما جعل الشريعة تمنعه من إحدى تلكم الأشجار، وعندما تبدو لهما سوءاتهما يطفقان يخصفان عليهما من ورق الجنة، وهو ما يفيد أنهما كانا في المرحلة البدائية، لم يصلا بعد إلى كثير من المهارات الحضارية ومنها صناعة الطعام واللباس وغيرها.

---

(١) سفر التكوين ٣/ ٣.

كذلك يلاحظ أن النص التوراتي قد حدد مكان الشجرة «وسط الجنة»، ونوعيتها «شجرة المعرفة»، والعقوبة التي سيلقيانها إن أكلا منها «موتاً تموتان»، بينما ذكرت هذه الأمور في التلاوة القرآنية بطريقة جديدة، تستحضر الأبعاد الأخرى المفقودة في النص التوراتي، حتى بدا متناقضاً؛ وأعادت له التلاوة القرآنية انسجامه المفتقد؛ وسنكتشف هذا الأمر من خلال قول سفر التكوين «يوم تأكلان منها موتاً تموتان»، وقوله «بل الله عالم أنكما يوم تأكلان منها ستصيران كالله عالمين الخير والشر»؛ فعند مدارستنا للنصين حسب التعبير التوراتي، ستكون الحية الغاوية صادقة ويكون الله كاذباً مخادعاً؛ فآدم وزوجه أكلا من الشجرة، لكنهما لم يموتا كما توعدهما الله، وإنما صارا مثل الله عارفين الخير والشر كما أخبرتهما الحية؛ وبذلك صارت الأمور متناقضة بشكل صارخ؛ وهنا يأتي دور التلاوة القرآنية، لبيان الخلل الذي وقع في فهم النصوص وترجمتها، مما أدى إلى قلب معانيها رأساً على عقب؛ وهنا يقترح علينا القرآن الكريم قراءته الجديدة؛ فالحية لم تكن حيواناً من أحيل حيوانات البرية، وإنما كانت شيطاناً مريداً، مهمته الخداع وقلب الحقائق، ولم يكن ناصحاً أميناً، وإنما كانت نصيحته غواية بمُلك لا يبلى وأن يصير آدم وزوجه من الخالدين: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (سورة الأعراف، ٢٠-٢٢)؛ وقال في آية أخرى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ (سورة طه، ١٢٠)؛ فقول الحية في النص التوراتي: «لن تموتا»، ترجمته هي «ستخلدان» إن أكلتما من الشجرة، وهي فعلاً الغواية الشيطانية بشجرة الخلد، أو ما سمّي في النص التوراتي شجرة الحياة، ولقد اختلط على مدوّن التوراة الأمر حتى إنه لم يدر أهي شجرة واحدة أم شجرتان، إذ النهي كان عن شجرة واحدة، ولكن النص

يتضمن شجرتين إحداهما هي شجرة الحياة؛ والواقع أن شجرة الحياة لا وجود لها، وإنما هي من وحي الشيطان الذي أغوى به آدم وزوجه، فأكلا منها، لكنهما لم يخلدا، فكذب الشيطان وصدق الله العظيم.

وأما عن شجرة المعرفة فهي من فهم المفسّرين وتفسيرهم للنص التوراتي، الذي وجدوا فيه أن آدم وزوجه لما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما، ففسّرا ظهور السوءة بالعلم، فهما كانا جاهلين ثم صارا عالمين بعد الأكل من الشجرة، إذاً فهي شجرة المعرفة. وهنا يقترح علينا القرآن توجيهاً آخر، يعتبر أن الأكل من الشجرة المحرمة هو الذي سبّب الخروج من النعمة، ومن ذلك سقوط اللباس الذي كان على آدم وزوجه قبل الأكل منها، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ (سورة طه، ١١٨-١٢٠)؛ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ (سورة الأعراف)، ولذلك فما إن بدت لهما سوءاتهما حتى طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة؛ فاستطاع الشيطان بغوايته أن ينزع عنهما لباسهما الذي حباهما الله به. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ (سورة الأعراف)؛ وبهذا استطاعت التلاوة القرآنية أن تعيد الانسجام لقصة الإنسان، سواء داخل النص أو في الثقافة والفكر. وهكذا تبقى الشجرة المنهي عنها واحدة، ليست هي شجرة الخلد أو الحياة، التي هي من وحي الشيطان، ولا شجرة المعرفة، التي هي من فهم المفسّرين وتفسيرهم، لأن المعرفة هي التي أهّلت آدم لأن يكون مستخلفاً بدلاً من الملائكة، ولأن الله هو واهب المعرفة للإنسان ولن يمنعها عنه، ولن يحرمه منها؛ وقد أهّله بهذه

المعرفة ليكون سيداً على الأرض، وليسخر له ما فيها؛ ولن يستطيع أي شيء من ذلك بدونها؛ وأما الشيطان فهو الكاذب الغاوي الذي لم يكن في يوم من الأيام ناصحاً للإنسان.

الحيّة أم الشيطان؟

ورد في قصة تجربة الإنسان الأولى الحديث عن الحية التي أغوت الإنسان، وسببت خطيئته، جاء فيه: «وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أحيل جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإله فَقَالَتْ للمرأة: «أحقاً قَالَ اللهُ لا تأكلا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» (٢) فَقَالَتِ المرأة لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نأكل (٣) وأما ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لا تأكلا مِنْهُ وَلا تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتَا». (٤) فَقَالَتِ الْحَيَّةُ للمرأة: «لَنْ تَمُوتَا! (٥) بَلِ اللهُ عَالِمٌ انَّهُ يَوْمَ تأكلان مِنْهُ تَنْفَتِحُ أعينكما وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ».[1]

ويظهر للقارئ العادي البعد التجسيمي الذي سارت فيه القصة التوراتية، وإن كانت هناك روايات أخرى غير قانونية تتمتع بمستويات أعلى من التجريد؛ وهنا تأتي التلاوة القرآنية لتقطع مع التجسيد برمّته، وتتحدث عن الشيطان باعتباره كائناً مجرّداً، لا يمكن حضوره إلا في المجال الإنساني وعن طريق الوسوسة والإيحاء، وأنه لا سلطة له على الناس إلا إذا استجابوا لوحيه وغوايته، وأن مسؤوليتهم كاملة في الاستجابة له؛ ولذلك فقد عرضت القصة القرآنية حوارات عديدة بين الشيطان والله، تكشف عن طبيعة هذا المخلوق الذي ليس له من هدف في الحياة إلا إغواء الناس وفتنتهم وإضلالهم عن الصراط المستقيم؛ وقصة آدم هي واحدة من القصص المبينة

---

(١) سفر التكوين ٣/١-٥.

لعمليات الإغواء الشيطانية التي لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، إلى آخر الدهور.

إن قصة الشيطان مع آدم، تندرج في التجربة الإنسانية الأولى، وقد أخذت شكلاً معيناً معه ومع زوجه، ويمكنها أن تأخذ أشكالاً مختلفة مع كل واحد من الناس في كل آن وحين، وتعتبر التلاوة القرآنية لهذه القصة على هذا المستوى من التجريد إخراجاً لها من الأسطرة إلى المثال الذي تؤخذ منه العبرة والسنة التي لا تتبدل ولا تتغير؛ فتجعل الشيطان كائناً مرافقاً للإنسان يستطيع غوايته وإضلاله في كل حين، وما على الإنسان إلا أن يحذر كيده، ويعرف مداخله، ولا يستجيب لوسوسته وغوايته التي تؤدي إلى إهلاكه ودماره.

الخطيئة والمعصية والتوبة

بناءً على قصة آدم وزوجه في التراث الكتابي، بنى الفكر اليهودي والمسيحي معتقد الخطيئة الأصلية، التي لا يكفّرها قربان إثم ولا قربان خطية، وقد تحمل الأب الأول هذه الخطية وحملها إلى ذريته من بعده، كما أن المرأة كانت - حسب هذا الفكر - هي السبب الأساسي في تحمل الناس لها، وقد عوقبت على ذلك بعقوبات وراثية ترثها جميع النساء، «تَكْثِيراً أكثر أتعاب حَبَلِكِ. بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أولاداً. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ»[1].

وحاولت المسيحية أن تتخلص من هذه الخطية، فابتكر الرسول بولس لها عقيدة الخلاص الكنسية، التي جعلت المسيح عيسى ابن مريم كبش فداء من

---

(١) سفر التكوين ٣/ ١٦.

أجل البشرية، لتخليصها من الخطيئة التي دخلت برجل واحد هو أبونا آدم، فلا بد لخروجها من رجل آخر يقدم نفسه كفارة من أجل الجميع، وينبغي أن يكون هذا الرجل ابناً لله وحيداً، فيكفر الله به خطيئة الناس الأصلية، وكذلك كان.

لكن التلاوة القرآنية قدمت القصة بشكل جديد، استطاعت به أن تشفي البشرية من عقدة خطيئتها، مبينة أن أبانا آدم لم يرتكب إلا معصية عادية، يمكن أن تقع لكل واحد من الناس، وأن تجربة آدم إنما هي تجربة الناس جميعاً في كل آن وحين، فالخطأ إنساني وكل بني آدم خطاء، وأخطاء الناس لن تمنعهم من التراجع عنها وإصلاح أحوالهم، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن كل إنسان يتحمّل خطاياه وحده، ولا يمكن لأحد أن يتحمل خطايا الآخرين، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ (سورة الأنعام، ١٦٤)؛ إضافة إلى أن آدم وزوجه قد تابا إلى الله توبة نصوحاً فتقبل الله منهما توبتهما وسامحهما على معصيتهما، واجتباهما وهداهما إلى صراطه المستقيم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (سورة البقرة). ومن ثمّ فلا داعي لخطيئة لا أصلية ولا فرعية، يمكن أن يتحملها الناس، ويحملون معهم عقدة ذنب لم يرتكبوه ولا بقي في ذمة آبائهم؛ فكان اقتراحه هذا، شفاءً للناس من أمراض ثقافية وعقد نفسية واجتماعية ودينية تحمّلها الإنسان حيناً من الدهر وهو منها بريء. وكانت تلاوته الجديدة هذه، تحريراً للناس من إصر وأغلال طالما ضيّقت عليهم حياتهم العامة والخاصة.

الفصل الثاني

قصة ابني آدم



ذكرت قصة ابني آدم بعد قصة آدم وزوجه مباشرة، في سفر التكوين، وذكرت هذه القصة في سورة المائدة من القرآن الكريم؛ وهي من القصص القلائل التي لم تذكر إلا في مكان واحد في القرآن، وكذلك الأمر بالنسبة لقصة يوسف، التي أفردت لها سورة كاملة سُمّيت باسم يوسف.

اختزال وتفصيل

أورد القرآن الكريم هذه قصة ابني آدم في تلاوته الجديدة التي أطلق عليها (التلاوة بالحق)، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ (سورة المائدة، ٢٧)؛ فذكر القرآن في هذه القصة، أكثر التفاصيل الواردة في سفر التكوين، وإن ظهر للبعض أنه قد كان أكثر اختزالاً؛ وهي فكرة تحتاج إلى توضيح نعالجه في هذه الفقرة قبل الدخول في الدراسة المقارنة.

ذهب كثير من العلماء المسلمين إلى القول بأن النص القرآني موجز والنص التوراتي مفصّل؛ ولذلك سمحوا بتفصيل موجزات القرآن بتفاصيل الكتاب المقدس وأخبار أهل الكتاب، وهو ما نراه في السماح برواية الإسرائيليات والتفسير بها، حيث قالوا: إذا وجد في نصوص القرآن ما يقابلها في أخبار أهل الكتاب فلا بأس بتفسيرها بها، إذا كانت تتعلق بأخبار

الأمم السالفة والملاحم والرقائق وما لا يترتب عليه حكم شرعي عملي؛ فدخلت القصص بهذا التوجيه دخولاً رسمياً إلى مصادر التفسير القرآني، وأصبحت «أخبار أهل الكتاب» من مصادر تفسيره؛ ورغم الجدل الكبير الذي أثير حول هذه القضية في الأدبيات الإسلامية، يشهد واقع التفسير القرآني بهيمنة هذا الرأي على غيره من الآراء الأخرى الرافضة لإخضاع النص القرآني للقراءات الكتابية السابقة.

وانطلاقاً من القصة التي بين أيدينا يمكننا أن نكتشف الفوارق الموجودة بين التلاوتين الكتابية والقرآنية، ونعرف الإضافة النوعية القرآنية وكيفية اشتغالها؛

ففي الفقرة الأولى من القصة، جاء في سفر التكوين قوله: «وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتِ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ». (٢) ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ»[١].

وجاء في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ (سورة المائدة، ٢٧).

ويلاحظ أن سفر التكوين تحدث عن العلاقة التي كانت بين آدم وزوجه، وعن حبلها، وولادتها للولد الأول، وتسميتها له بـ«قايين»، وسبب التسمية، وعن العودة مرة ثانية لولادة الولد هابيل؛ وهي تفصيلات لم يذكرها النص القرآني، وإنما ذكر أنه سيتحدث عن تلاوة جديدة، أطلق عليها اسم «التلاوة بالحق».

والملاحظ أن كثيراً من التفاصيل التي ذكرها سفر التكوين متضمنة في قوله تعالى في القرآن: «ابنَيْ آدم»؛ فهو يتضمّن وصف آدم بأنه «عرف زوجته

---

(١) سفر التكوين ٤/١-٢.

وحبلت وولدت، ثم عرف زوجته مرة أخرى وحبلت وولدت ليصير له منها ابنان»، هما ابنا آدم.

لكن القرآن الكريم في تلاوته كان يهدف إلى هدف آخر، يريد أن يجرّد القصة من متعلقاتها التاريخية والثقافية الخاصة، ويرفعها إلى مستوى النموذج الديني والإنساني المجرد، فهما «ابنا آدم» من غير أسماء، يمثلان كل الناس، لا فقط المقتنين من عند الرب، كما كان في التلاوة السابقة التي تأثرت بالخصوصية اليهودية، حيث جعلت بني إسرائيل مختلفين عن غيرهم من الناس، وجعلتهم «مقتنين» من عند الرب، ولهم أحكام خاصة من دون باقي العالمين، لأنهم شعب الله المختار.

التلاوة القرآنية إذاً أعادت إلى «الذكر الإلهي» الموجود في التوراة بعده الرباني والإنساني والكوني، الذي فقده بسبب القراءات العنصرية والتاريخية الضيقة؛ ولذلك فلا يصح ما يذهب إليه العلماء المسلمون من أن القرآن كتاب موجز يحتاج إلى تفاصيل أخبار أهل الكتاب لتملأ فراغاته، وإنما هو تلاوة جديدة تقوم بمراجعة نقدية للتلاوة القديمة في الكتب المقدسة وفي الثقافة الإسلامية نفسها، التي نالها ما نال ما سبقها من ثقافات؛ وتعيد الاعتبار لكثير من المفاهيم والقيم الدينية والإنسانية الكتابية التي تعرضت للتدخل البشري والالتباس والإخفاء والمغالطة، وهو ما يمثل الإضافة النوعية القرآنية.

القربان والتعددية الدينية

جاء في سفر التكوين في الفقرة الثانية من القصة: «وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِياً لِلْغَنَم وَكَانَ قَايِينُ عَامِلاً فِي الأرض. (٣) وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أيام أن قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أثمار الأرض قُرْبَاناً لِلرَّبِّ (٤) وَقَدَّمَ هَابِيلُ أيضاً مِنْ أبكار غَنَمِهِ وَمِنْ

سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ (٥) وَلَكِنْ إِلى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ»[١].

وجاء في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ (سورة المائدة، ٢٧).

الملاحظ أن سفر التكوين قد ذكر أن أحد الأخوين كان راعياً للغنم والآخر كان فلاحاً، وأن الأول قدّم من أبكار غنمه وسمانها، وقدم الثاني من أثمار الأرض قرباناً إلى الله، فنظر الله إلى قربان الأول وقبله، لكنه لم يقبل قربان الثاني؛ وهي تفاصيل لم يتحدث عنها النص القرآني، الذي أهمل لنا الحديث كذلك عن حرفة الأخوين وعن نوعية قربانيهما، وعن تحديد من قبل الله منه ممن لم يقبل.

ولعل تلكم التفاصيل الغائبة في النص القرآني هي التي دفعت المفسّرين إلى الاهتمام بأخبار أهل الكتاب، خصوصاً في زمن الرواية؛ عندما كان الخبر المنقول هو أساس المعرفة الدينية، وكان أكثر الناس علماً هم أكثرهم حملاً للأخبار، وكلما كانت الأخبار فريدة وغريبة كانت ذات قيمة أعلى ممن يحمل أخباراً متداولة بين الناس؛ ولم يكن ينظر إلى النص القرآني باعتباره ميزاناً للأخبار والأفكار والمفاهيم، بقدر ما كانت نصوصه تعتبر شواهد وأدلة لمختلف الأخبار والأفكار والمفاهيم.

كان الناس كثيراً ما يأتون إلى القرآن الكريم محمّلين بأفكارهم المسبقة أنى كان مصدرها، والبحث فيه عما يؤيّدها ويشهد لها، حتى انبثق عن ذلك مفاهيم وقواعد يمكن تلخيصها في قولهم: «القرآن حمّال أوجه»، وهو ما دفعهم إلى تقليبه على أوجهه المختلفة، فوضعوا لذلك مجموعة من الآليات،

---

(١) سفر التكوين ٤/ ٢-٥.

نذكر منها التشابه والإحكام والنسخ والتأويل والتخصيص والتقييد وما إليها؛ إضافة إلى تعداد مصادر تفسيرها بدءاً من اللغة وقواعدها والحديث والسنة والأثر وأخبار أهل الكتاب وأقوال السابقين من صحابة وتابعين وأئمة معصومين وغيرها، مما أصبح يمثل حاجزاً حقيقياً بين الناس وبين إدراكهم للأبعاد القرآنية المجردة من خلال النص القرآني نفسه.

ولعل المشكلة الكبيرة التي حملتها هذه التفاصيل، والتي زخرت بها كتب التفسير والرواية، هي تهميشها وتشويشها على المعاني والمفاهيم القرآنية المحتاجة إلى تركيز خاص وتدبّر كبير لتُدرك، بعيداً عن التفاصيل التي إنما جاء القرآن ليقدّم فيها قولاً ورأياً جديداً يخالف ما كانت عليه.

إن القربان كما عرض في التلاوة القرآنية هو قربان مجرد، غير مرتبط بنوعية معينة ولا بشكل معين ولا بشعب معين، فالله يقبل من الناس جميعاً حسب إيمانهم وتقواهم، لا حسب أشكال قرابينهم ونوعيتها وانتماءاتهم؛ إذ يتقبل الله العمل الطيب والخالص من الإنسان المتقي كيفما كان؛ لكنه لن يتقبل أعمالاً غير طيبة ولا خالصة مهما كانت أحجامها وأشكالها، ولن يتقبل من غير المتقين مهما كانت انتماءاتهم؛ لذلك جاء في التلاوة القرآنية الجديدة تنكير القربان، إذ لا يهمّنا شكله ولا نوعيته ولا حجمه ولا صاحبه؛ غير أن المهم في القربان هو ذلك التواصل بين الإنسان وربه عند تقريبه له، وهو المعبَّر عنه بالتقوى، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ (سورة الحج، ٣٧)؛ ويترتب على هذا التنكير للقربان، السماح بتعدّد القرابين وتنوّعها، فالله يتقبل من الناس أنواعا مختلفة ومتعدّدة من القرابين والقربات، لا فقط الذبائح أو الصدقات النقدية والعينية المختلفة؛ مما يُدخل كل الناس مهما اختلفت طقوس عباداتهم، إذا توفرت على شرط التقوى - وهو أمر لا يعلمه إلا الله - في التعددية

المسموح بها؛ ومن ثم تكون الأخوّة الإنسانية هي الجامعة للتعددية الدينية والمذهبية؛ فمهما اختلفت ديانات الناس، سواء تلك التي نعتقد أن الله سيقبلها أو لا يقبلها، فإن رابطة الأخوة الإنسانية مقدمة عليها في الدنيا، والحكم عليها إنما يكون لله وحده في يوم القيامة؛ ولا يحق لقوم ولا شعب ولا أمة أن يزكوا أنفسهم ويعتبروا أنفسهم أتقى وأكرم من غيرهم، وأنهم أولياء لله من دون الناس، لأن هذا الحكم إنما هو من اختصاص رب العالمين يوم العرض عليه.

هكذا نخلص من خلال التلاوة القرآنية، إلى أن قصة ابني آدم، إنما هي قصة الناس جميعاً الذين يمثلون أبناء آدم على اختلاف أديانهم وعقائدهم وأممهم، المقبول منها وغير المقبول؛ وأن رابطة الأخوة هي الرابطة الأصلية بينهم، وهي تفرض عليهم ضمان حقوق إخوانهم المختلفين في الدين والمعتقد، فمهما يكن فهم إخوة من أب واحد، ولا يجوز لهم أن يحارب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً بسبب هذا الاختلاف؛ بل لا بد لهم من تذكر الأصل الواحد الذي يجمعهم وهو رابطة الأخوة الإنسانية، أما رابطة العقيدة فلا تبيح للإنسان إزهاق روح أخيه، وإلا فإنه سيكون ظالماً مجرماً، مهما ادّعى أنه أتقى المتقين.

هكذا تعيد التلاوة القرآنية البعد الإنساني لقصة ابنَيْ آدم، وتخرجها من الإطار العنصري الذي وضعت فيه بسبب التلاوات الحاخامية التاريخية التي كانت تركز على البعد القومي والطقوسي للدين، وهو ما جاء القرآن لإبطاله.

الأبعاد الأخروية

جاء في سفر التكوين قوله: «فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدّاً وَسَقَطَ وَجْهُهُ. (٦) فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «لِمَاذَا اغْتَظْتَ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ؟ (٧) إن أحسنت أفلا رَفْعٌ.

وَإنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ وَإلَيْكَ اشْتِيَاقُهَا وأنت تَسُودُ عَلَيْهَا. (٨) وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أخاه».[1]

وجاء في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (سورة المائدة).

والملاحظ أن سفر التكوين تحدّث عن غضب قايين الذي لم يتقبل الله منه، وعن حوار بينه وبين الرب، جاء فيه أنه لو أحسن لرفع عمله الصالح وتقبله الله منه، ولأنه لم يحسن فسيرتكب خطية ينتظره ارتكابها وتحمل وزرها؛ ثم يحدثنا عن كلام قايين مع أخيه، دون أن يذكر لنا النص فحوى هذا الكلام.

وأما النص القرآني في تلاوته الجديدة، فيحدثنا عن حوار بين الأخوين، يتجادلان فيه عن موضوع التقوى وجريمة القتل، ولم يذكر النص القرآني أن القاتل قد تكلم معه الرب، وإنما ذكر أن الأخ المتقي رفض أن يجاري أخاه في تهديده له بالقتل؛ لأنه يخاف الله رب العالمين، محذراً أخاه من أن يبسط إليه يده فيبوء بإثمه وإثم أخيه ويكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين. حديث الرب مع القاتل غير موجود في النص القرآني وحديث الأخوين في ما بينهما غير موجود في سفر التكوين، وهو ما يدعونا إلى النظر في وجه هذا الاختلاف: فغياب الحوار بين الإخوة قبل عملية القتل في النص التوراتي، جعل قوله: «فكلم قايين هابيل أخاه» ناقصاً؛ كلّم أخاه بماذا؟ ماذا قال له؟؛ هنا يتدخل النص القرآني ليبيّن هذا القول المرتبط بالتقبّل من جهة

---

(١) سفر التكوين ٤/٥-٨.

(ما قبله)، وبالقتل من جهة ثانية (ما بعده)؛ ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ وهو ما ملأ الفراغ الذي تركه النص التوراتي، وأفاض في تفصيله النص القرآني، باعتباره غرضاً دينياً أساسياً في القصة، يتناقض مع الروح الحاخامية التي لا تسمح بالمساواة بين الناس في موضوع حق الحياة، كما سنفصّله في حينه.

أما غياب الحوار بين الرب والقاتل، فلكون هذا الحوار غير معتاد بين الناس وبين الله إلا إذا كانوا رسلاً وأنبياء، لا قتلة ومجرمين؛ وهو حوار في النص الكتابي سيستمر من أجل تقعيد مجموعة من الأحكام الخاصة ببني إسرائيل، انطلاقاً من وعود قدّمت لقايين رغم كونه القاتل؛ إضافة إلى أن حواراً تحدث النص التوراتي عنه دون ذكر لمضمونه، الذي يتناسب تناسباً كاملاً مع سياق القصة؛ مما يؤكد ما جاءت به التلاوة القرآنية في هذا الحوار.

لقد تحدث سفر التكوين عن الإحسان والرفع، وهو ما يعني الإحسان في العمل وقبوله من الله عز وجل، وعبّر عنه القرآن الكريم بالتقوى والقبول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وتحدث هذا الحوار في النص التوراتي عن الخطية الرابضة عند الباب والسيادة عليها، وهو ما يعني ارتكاب الجريمة وتحمّل وزرها، وعبّر القرآن عن ذلك بقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ وبذلك أعاد القرآن الكريم إلى النص التوراتي ترتيب نصوصه، فالحوار بين الأخ وأخيه لم يكن محذوفاً وإنما كان مقدماً ومنسوباً إلى الرب، وبإرجاع نسبته إلى الأخوين استعادت القصة أبعادها الدينية، التي جعلت التقوى أساس قبول الأعمال، وليس شيئاً آخر؛ كما حمّلت المذنبين مهما كانوا، وزر ذنبهم دون غيرهم من الناس؛ وهناك بعد آخر اختفى بسبب التلاوة الكتابية، التي خف فيها البعد

الأخروي، وأصبحت الخطية جزاءً على عدم الإحسان، والقبول جزاءً للإحسان، دون الحديث عما بعد الخطية والقبول؛ وجاء النص القرآني للارتقاء إليه، حيث جعل الخطية والجريمة سبباً لعدم تقبّل الأعمال في الدنيا والخلود في النار في الآخرة؛ والإحسان والتقوى دليلاً على الخوف من الله وسبيلاً للنجاة من النار التي هي مصير الظالمين.

الجوانب النفسية

جاء في سفر التكوين قوله: «وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ»[1]؛ وجاء في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (سورة المائدة).

ويلاحظ أن سفر التكوين تحدث عن قتل الأخ لأخيه من غير مقدمات، بينما بيّن النص القرآني أن الأخ قتل أخاه بعد تطويع نفسي، وأصبح بعد عملية القتل من الخاسرين.

إذا كانت التلاوة الكتابية قد عرضت حادث القتل عرضاً عادياً، مرتبطاً بالمكان الذي قتل فيه القتيل (الحقل)، من غير مقدمات لعملية القتل، أو مترتبات عليها، فإن التلاوة القرآنية قد أشارت إلى جانب أهم، وهو الجانب النفسي؛ لأن عملية القتل ليست أمراً طبيعياً، ولا تنسجم مع فطرة الإنسان السويّ؛ ولذلك فهي تحتاج إلى تطويع للنفس البشرية، حتى تصير قادرة على اقتراف الجريمة؛ فلمّا فسدت هذه النفس طوّعت لصاحبها قتل أخيه؛ وعملية التطويع هذه تكسر الحواجز المانعة للإنسان من ارتكاب الجرائم، وتعمي عينيه، وتجعله مفسداً يسعى في الأرض ليهلك الحرث والنسل، فيضر الخلق

---

(١) سفر التكوين ٤/٨.

ويصير من الخاسرين. وهكذا كانت التلاوة القرآنية تكشف عن أسرار النفس الإنسانية، وتبيّن مداخلها والسنن المتحكمة فيها؛ كما تبيّن القوانين المتحكمة في مصير الإنسان سواء في النجاح أو في الخسران، وفي حالتنا هذه بينت أن هذا الطريق هو طريق الخسران لكل من سار فيه من الناس.

الاستفادة من الطبيعة وقوانينها

جاء في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِىۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (سورة المائدة). ولم يتحدث النص الكتابي عن هذا الجانب من القصة، المتعلق بقصة الغراب، والكاشف لجوانب مهمة من طبيعة الإنسان، بينما أورده النص القرآني في تلاوته الجديدة، ليلقي إلينا بمجموعة من الإشارات، نذكر منها: أن الإنسان مهما كانت طبيعته، فإن علاقته بأخيه الإنسان تبقى علاقة عميقة، فرغم أن القاتل سلب من أخيه حياته، ظلّت عقدة الذنب تعذبه؛ كما تحدث القرآن الكريم عن جانب آخر أساسي من المعرفة الإنسانية في بدايتها، وهو اكتشاف الدفن ومراسيمه، وتعلم الإنسان من مخلوقات أخرى أضعف منه. ويتضمّن هذا المشهد معاني إنسانية مهمة منها اكتشاف حالة العجز المعرفي حيث إنه لم يستطع مواراة سوءة أخيه؛ ومنها الإحساس بالأخوة الإنسانية ومحاولة حماية جسد الأخ الميت من طرف القاتل نفسه، الذي كان بإمكانه أن يحمي هذا الجسد عندما كان حياً، لكنه بدل أن يحميه قضى عليه، ما جعله يعيش بقية حياته في الندم وعقدة الذنب التي لن تفارقه.

تلكم هي الإشارات العميقة التي تحملها التلاوة الجديدة، والتي تفتح أبواباً للتأمل والتدبّر في النفس والطبيعة الإنسانية؛ والتي تقدم مشاريع بحثية

ودراسية إنسانية مهمة تحتاج إلى قراءة وتدبّر، وتفتح أوراشاً كبيرة للاشتغال في المجال الإنساني والعلوم الإنسانية.

الحوار مع الله: عقوبة الأرض

جاء في سفر التكوين قوله: «(٩) فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟» فَقَالَ: «لا أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟» (١٠) فَقَالَ: «مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَم أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الارْضِ. (١١) فَالْآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ! (١٢) مَتَى عَمِلْتَ الأَرْضَ لا تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا. تَائِهاً وَهَارِباً تَكُونُ فِي الأَرْضِ».»[١] وهو حوار صفح النص القرآني عن ذكره، لكونه يتعارض مع رؤيته في العلاقة بين البشر والله، وفي كلامه معهم؛ لأنه سبحانه لا يكلم البشر جميعهم مباشرة، وخصوصاً الظالمين منهم: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (سورة الشورى)؛ والواضح أن هذا الحوار يعبّر عن تفسير للحدث التاريخي من طرف المفسّر اليهودي، للواقع الاجتماعي والاقتصادي والفكري الذي كان في زمانه؛ إنه يرى أن التيه والهروب والشتات الاجتماعي وقساوة الظروف المعيشية التي يعانيها، إنما هي عقاب من الله على أفعال الآباء ومنهم «قايين: المقتنى من عند الرب»؛ ولعل هذا المفسّر في تفسيره قد غاب عنه أن هذه القصة، يفترض أن تكون أحداثها قد طرأت قبل تكوّن العشائر والقبائل والأسباط، وقبل نشأة التاريخ اليهودي الذي كان السبي والشتات والتيه بعضاً من تجاربه.

---

(١) سفر التكوين ٤/٩-١٢.

عقوبات تاريخية

جاء في سفر التكوين قوله: «(١٣) فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ: «ذَنْبِي أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحْتَمَلَ. (١٤) إِنَّكَ قَدْ طَرَدْتَنِي الْيَوْمَ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ وَمِنْ وَجْهِكَ أَخْتَفِي وَأَكُونُ تَائِهاً وَهَارِباً فِي الأَرْضِ فَيَكُونُ كُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلُنِي»[(١)]. وهو تتمة للحوار السابق؛ وقد صفح القرآن عن ذكره كذلك. وبالتأمل فيه يظهر أنه من كلام المفسّر اليهودي، الذي توسّل بالقصة ليناقش وضعه التاريخي المأساوي، ويقترح من خلالها حلولاً لهذا الوضع، ضمّنها أمانيه وأحلامه وكذا عقائده؛ إنه المقتنى من عند الرب قايين «شعب الله المختار»؛ المرتكب للجريمة والمعترف بارتكابها، والذي نال بسببها كل أنواع العذاب والضياع؛ لكنه يريد الآن من خلال القصة حماية خاصة، حتى لا يبقى تحت رحمة أعدائه، الذين يقتلونه حيثما وجدوه لأنه تائه وهارب في الأرض بسبب خطيئته.

إن النص التفسيري الذي بين أيدينا، والذي أُلحق بالقصة في الأسفار القانونية، يدل على أمور عديدة تتعلق بالفترة التاريخية التي عاش فيها كاتبه مع ما يرافقها من أحوال على جميع المستويات؛ ولقد كان الصفح القرآني عن ذكر هذه النصوص تجريداً للذكر مما ألحق به عبر التاريخ، واستعادة للأبعاد الإنسانية المشتركة بعيداً عن الخصوصيات التاريخية والاجتماعية والثقافية لشعب على حساب باقي الشعوب الأخرى.

قانون إنساني

جاء في سفر التكوين قوله: «(١٥) فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «لِذَلِكَ كُلُّ مَنْ قَتَلَ

---

(١) سفر التكوين ٤/ ١٣-١٤.

قَايِينَ فَسَبْعَةَ أَضْعَافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ». وَجَعَلَ الرَّبُّ لِقَايِينَ عَلامَةً لِكَيْ لا يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ».[1] وجاء في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة، ٣٢).

الملاحظ أن كلا النصين يتحدث عن هدف القصة وغايتها؛ إلا أن النص الكتابي، على لسان مفسّريه، انتزع من الله حماية للقاتل على حساب كل الذين يحتمل أن يقتلوه عندما يجدونه تائهاً وهارباً؛ وخصّص لهم عقوبة مضاعفة سبعة أضعاف، انتقاماً منهم؛ وجعل له الله علامة تحميه من مناوئيه؛ وبذلك حققت التلاوة الكتابية شرعية للقاتل اليهودي حتى لا تطاله القوانين والعقوبات؛ مقابل عقوبات مضاعفة لكل من ارتكب في حقه جريمة. أما النص القرآني، فكانت تلاوته تنزع عن النص المقدس حمولاته العنصرية، وتعيد له أبعاده الإنسانية؛ فليس من هدف الذكر خدمة شعب أو عنصر على حساب الشعوب والعناصر الأخرى؛ من أجل الإنسان كتبت على بني إسرائيل قصة ابني آدم؛ فلا يحق قتل النفس الإنسانية التي حرّم الله إلا بالحق؛ ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، فكأنما قتل الناس جميعا؛ بل المطلوب هو الدفاع عن هذه النفس وإحياؤها، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة، ٣٢).

هكذا أعادت التلاوة القرآنية الاعتبار للكائن البشري ولحياة الأنفس على حساب كل الاعتبارات الأخرى بما فيها اعتبار الانتماء والعرق والعنصر والقبيلة والشعب والمذهب والدين.

كلنا أبناء آدم، وكلنا إخوة؛ واختلافنا في الانتماء أو المذهب أو

---

(١) سفر التكوين ٤/ ١٥.

المعتقد، أو ما عبّرت عنه القصة بالتقبّل، إذ تقبّل الله من أحد الأخوين ولم يتقبل من الآخر؛ لا يجيز لواحد أن يقتل أخاه؛ ولا يخرجنا من الانتماء إلى النفس الواحدة والأصل المشترك؛ وأتقانا هو الذي لا يبسط يده لأخيه ليقتله، لأنه يخاف الله رب العالمين؛ والذي يقتل النفس التي حرم الله بسبب أحد الاختلافات الطارئة على البشر، يكون من الظالمين، ويرتكب أكبر الجرائم على الإطلاق.

التلاوة القرآنية تلاوة بالحق، تعيد الاعتبار للقيم والدين والإنسان، وتكشف ما تعرضت له الكتب السابقة من انزياحات سببتها قراءات بشرية، قيّدت نصوصها بواقعها التاريخي والاجتماعي والثقافي والسياسي والمذهبي؛ فأعاد لها القرآن في تلاوته الجديدة أبعادها المفتقدة.

الفصل الثالث

قصة نوح



نوح النبي الرسول

قدّم سفر التكوين نبي الله نوحاً باعتباره باراً كاملاً في أجياله، من غير أن يؤكد أنه كان نبياً رسولاً، قال: «هَذِهِ مَوَالِيدُ نُوحٍ: كَانَ نُوحٌ رَجُلاً بَارّاً كَامِلاً فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ»[1].

ولعل قوله: «وسار نوح مع الله»، يدل على النبوة والرسالة التي حباه الله بها في أجياله؛ وهو ما جاءت التلاوة القرآنية لبيانه ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ (سورة نوح)، وقد أفاضت نصوص القرآن الكريم في بيان هذه المسألة، حتى جعلت لنوح عليه السلام سورة كاملة تسمّى باسمه، سورة نوح؛ وتكرر ذكر قصته في العديد من السور الأخرى لبيان ومراجعة جوانب مختلفة من القضايا الإنسانية، وعلى رأسها مسألة العنصرية وتقسيم الشعوب حسب البركة واللعنة كما برع فيه كهنة وأحبار أهل الكتاب القوميين.

أرسل اللّه نوحاً إلى قومه لينذرهم عذاب يوم أليم، إن استمروا على ما هم عليهم من فجور وعصيان وذنوب؛ وطلب منهم أن يعبدوا الله وحده

(١) سفر التكوين، إصحاح ٦/ ٩.

ويتقوه ويطيعوا رسوله في ما جاءهم به؛ فيغفر لهم من ذنوبهم ويطيل أعمارهم، فلا يصيبهم العذاب العظيم الذي هو في طريقه إليهم. واستمرت دعوته لهم بالليل والنهار؛ وكانت دعوته مثل دعوة جميع المرسلين اللاحقين به، حتى اعتبر القرآن تكذيبه تكذيباً لجميع المرسلين؛ وكان هدف رسالته أن يتقي الناس ربهم، ولم يكن عليه السلام، يسألهم على ذلك أجراً، لأن أجره على رب العالمين؛ وكان يبلغهم رسالات ربهم بكل أمانة وإخلاص.

إن أهم رسالة كان يحملها نوح إلى قومه هي تقوى الله وطاعته لتجنّب العذاب القادم، بسبب الفساد العام الذي عمّ الأرض، وكان يؤذن بهلاكها؛ وهو ما حدثنا به سفر التكوين كذلك، وإن لم نجد حديثاً مباشراً عن رسالة النبي نوح عليه السلام تجاه هذا الفساد الشامل قال: «(١١) وَفَسَدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ اللهِ وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْماً. (١٢) وَرَأى اللهُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الأَرْضِ. (١٣) فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: «نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلأَتْ ظُلْماً مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الأَرْضِ»[1].

فسدت الأرض، وفسد كل بشر فيها وفسدت طريقه، واستحق الناس عقاب الله بسبب ذلك؛ وتحدث القرآن الكريم عن بعض مظاهر هذا الفساد العام الذي أصاب الناس، وبيّن مجالاته في الاعتقاد والتصور والسلوك، وأضاف إلى ذلك أمراً لم يذكر في التلاوة الكتابية، وهو دعوة نوح الناس من أجل الرجوع إلى ربهم، وتحذيرهم من عذاب الله إن استمروا على هذا الإعراض عن ذكره وشكره، وبقوا على ظلمهم وفسادهم؛ وذكرت لنا نصوص كثيرة في القرآن الكريم هذا المعنى، ومن ذلك ما ورد في سورة

---

(١) سفر التكوين، إصحاح ٦/ ٩.

نـــوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ... قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ إلى أن قال: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ (سورة نوح، ١-٢١).

لقد استعمل نوح مع قومه جميع أساليب الدعوة، في الليل والنهار، بالسر والعلن، وخفية وجهاراً؛ وعرض عليهم آيات الله في الآفاق والأنفس، فحدثهم عن الاستغفار وغفران الخطايا وإعطاء المطر والمال والبنين والجنات والأنهار، وحدثهم عن خلقهم أطواراً وخلق السموات أطباقاً، وجعل الشمس والقمر وإنبات الناس من الأرض نباتاً ثم إعادتهم فيها وإخراجهم إخراجاً، وجعل الأرض بساطاً وسلك السبل فيها..؛ والظاهر أن نبي الله نوحاً كان يفتح أعينهم على آياته في الآفاق وفي أنفسهم لعلهم يبصرونها، كما يفتح أعينهم على سلوكهم المهلك الذي يقودهم إلى الفناء؛ فكان الرسول نوح عليه السلام، بمثابة صفارة الإنذار المبكر التي أطلقت في قومه لعلهم يتوبون إلى الله فينجون من عذاب أليم صنعوه بأيديهم، وكان يمكنهم اجتنابه إذا استغفروا ربهم فيجدون الله غفاراً ويؤخرهم إلى أجل مسمّى، بدل أجل العذاب الذي قدروه على أنفسهم.

والملاحظ أن القرآن الكريم لم يذكر لنوح ولو آية واحدة معجزة، وكذلك التوراة، تخرج عن إطار القوانين التي وضعها الله في الكون والإنسان، وهو

ما يتنافى مع التصور التقليدي لدعوة الأنبياء، الذي يرتبط دائماً بالمعجزات والخوارق؛ فنوح كان يخاطب عقول الناس من غير خوارق ولا معجزات، وكان يدفعهم إلى النظر في آيات الآفاق والأنفس؛ بل إن السفينة التي أنجت الناس وتركها الله آية للعالمين، لم تكن منزلة من السماء، وإنما صنعتها أيدي الناس، وكانت من ألواح ودُسُر، وصُنعت أمام أعين الساخرين والمستهزئين.

أبناء نوح وتقسيم الشعوب

تحدث سفر التكوين عن أبناء نوح الثلاثة، قال: «(١٠) وَوَلَدَ نُوحٌ ثَلاثَةَ بَنِينَ: سَاماً وَحَاماً وَيَافَثَ»[1].

ثم أورد لنا في نهاية قصة الطوفان وبعد خروج الناجين من الفلك، حكاية عن تقسيم شعوب المنطقة إلى مباركين وملعونين بناءً على أعمال قام بها آباؤهم، الذين هم أبناء نوح سابقو الذكر جاء فيها:

«(١٨) وَكَانَ بَنُو نُوحٍ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْفُلْكِ سَاماً وَحَاماً وَيَافَثَ. وَحَامٌ هُوَ أَبُو كَنْعَانَ. (١٩) هَؤُلاءِ الثَّلاثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هَؤُلاءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ. (٢٠) وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلَّاحاً وَغَرَسَ كَرْماً. (٢١) وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. (٢٢) فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجاً. (٢٣) فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. (٢٤) فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ. (٢٥) فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ. عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ». (٢٦) وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ

---

(١) سفر التكوين ٦/ ١٠.

إِلَهُ سَام. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْداً لَهُ. (٢٧) لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَام. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْداً لَهُمْ». (٢٨) وَعَاشَ نُوحٌ بَعْدَ الطُّوفَانِ ثَلاثَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً. (٢٩) فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ نُوحٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً وَمَاتَ»[١].

نرى هنا، التصور اليهودي لشعوب وأقوام المنطقة حسب الرؤية النمطية التي أسبغها عليهم بنو إسرائيل؛ فهناك أقوام سامية مباركة، لها مكانة عالية، ينتمي إليها بنو إسرائيل؛ وهناك أقوام وشعوب ملعونة ينبغي أن تستعبد وتكون خادمة للأسياد، وهم سكان المنطقة من الكنعانيين ومختلف قبائلهم، وهناك شعوب أخرى من غير هؤلاء الأسياد وهؤلاء العبيد، يمكنهم أن يسكنوا في مساكن الأسياد دون مشاكل تذكر، ويكون الكنعانيون عبيداً لهم.

أما التلاوة القرآنية فقدمت لنا القصة بشكل جديد، لم تذكر فيه الأبناء الثلاثة لنوح، وإنما تحدثت عن قصة الولد الواحد، ولم تذكر لنا اسمه ولا أي صفة أخرى عنه، بقدر ما ذكرت لنا كفره وعدم استجابته لنداء أبيه ودعوته فكان من المغرقين؛ وقد مثلت هذه التلاوة القرآنية الجديدة، مراجعة نقدية للتلاوة العنصرية الإسرائيلية، المبنية على عنصر الآباء، فكان الرد القرآني يقول: «لو كان أحد يمكنه أن ينفع أولاده أو يضرهم لكان نوح عليه السلام، ولكن الله لا يقبل أن يتشفع الآباء لأبنائهم الكافرين، ولذلك لم يستطع نوح أن ينفع ابنه ولا زوجته لأن عملهما لم يكن صالحاً»، وقد عرض القرآن الكريم الوعظ الإلهي الشديد اللهجة الموجّه إلى نوح عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (سورة هود، ٤٦).

إن ما جاء به القرآن الكريم لم يكن شيئاً مختلفاً عما جاء به الأنبياء من قبله، بمن فيهم أنبياء التوراة؛ إلا أن رجال الدين اليهود الذين غلبت عليهم

---

(١) سفر التكوين ٩/١٨-٢٩.

العنصرية الإسرائيلية، ضد شعوب المنطقة، أرادوا أن يخصوا بني جلدتهم بالبركة ومخالفيهم باللعنة فابتكروا نظرية السامية، التي تبارك ساماً وذريته وتلعن كنعان وذريته، وتجعلهم عبيداً لهم؛ وإننا بالرجوع إلى أسفار العهد القديم ذاتها نجد إشارات مهمة عن الأمر الذي فصّل فيه القرآن، ولنستمع إلى ما أوحي إلى نبي الله حزقيال في هذا الموضوع:

«[يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ أَخْطَأَتْ إِلَيَّ أَرْضٌ وَخَانَتْ خِيَانَةً، فَمَدَدْتُ يَدِي عَلَيْهَا وَكَسَرْتُ لَهَا قِوَامَ الْخُبْزِ، وَأَرْسَلْتُ عَلَيْهَا الْجُوعَ، وَقَطَعْتُ مِنْهَا الإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ، (١٤) وَكَانَ فِيهَا هؤُلاَءِ الرِّجَالُ الثَّلاَثَةُ: نُوحٌ وَدَانِيآلُ وَأَيُّوبُ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَلِّصُونَ أَنْفُسَهُمْ بِبِرِّهِمْ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. (١٥) إِنْ عَبَّرْتُ فِي الأَرْضِ وُحُوشاً رَدِيئَةً فَأَثْكَلُوهَا وَصَارَتْ خَرَاباً بِلاَ عَابِرٍ بِسَبَبِ الْوُحُوشِ، (١٦) وَفِي وَسَطِهَا هؤُلاَءِ الرِّجَالُ الثَّلاَثَةُ، فَحَيٌّ أَنَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ إِنَّهُمْ لاَ يُخَلِّصُونَ بَنِينَ وَلاَ بَنَاتٍ. هُمْ وَحْدَهُمْ يَخْلُصُونَ وَالأَرْضُ تَصِيرُ خَرِبَةً. (١٧) أَوْ إِنْ جَلَبْتُ سَيْفاً عَلَى تِلْكَ الأَرْضِ وَقُلْتُ: يَا سَيْفُ اعْبُرْ فِي الأَرْضِ، وَقَطَعْتُ مِنْهَا الإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ، (١٨) وَفِي وَسَطِهَا هؤُلاَءِ الرِّجَالُ الثَّلاَثَةُ، فَحَيٌّ أَنَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ إِنَّهُمْ لاَ يُخَلِّصُونَ بَنِينَ وَلاَ بَنَاتٍ، بَلْ هُمْ وَحْدَهُمْ يَخْلُصُونَ. (١٩) أَوْ إِنْ أَرْسَلْتُ وَبَأً عَلَى تِلْكَ الأَرْضِ وَسَكَبْتُ غَضَبِي عَلَيْهَا بِالدَّمِ لأَقْطَعَ مِنْهَا الإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ، (٢٠) وَفِي وَسَطِهَا نُوحٌ وَدَانِيآلُ وَأَيُّوبُ، فَحَيٌّ أَنَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ إِنَّهُمْ لاَ يُخَلِّصُونَ ابْناً وَلاَ ابْنَةً. إِنَّمَا يُخَلِّصُونَ أَنْفُسَهُمْ بِبِرِّهِمْ»[1].

إن هذا النص يخبرنا أن نوحاً ودانيال وأيوب، لا يمكنهم أن يخلصوا أبناءهم ولا بناتهم من العذاب، إن لم يكونوا صالحين هم أيضاً، وإن لم

---

(١) سفر حزقيال، إصحاح ١٤/١٣-٢٠.

يخلصهم برّهم؛ وهو ما يفيد أن نوحاً ما كان ليخلص من خلص من العذاب لو لم يكونوا صالحين، وليس لأنهم أهله وعشيرته؛ وهو ما أسهم القرآن الكريم في بيانه من خلال قصة ابنه وامرأته؛ فأما قصة ابنه فجاء فيها:
﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (سورة هود) وتبعاً لهذه القصة فإن ابن نوح لما رفض الركوب في سفينة النجاة لم يعصمه شيء من الغرق، ولو أبوه، وهو ما يسقط النظرية العنصرية التي أسّس لها كهنة بني إسرائيل، عندما قسموا الشعوب إلى مباركة وملعونة تبعاً لأسلافها، فكان الجواب القرآني على هذا الطرح العنصري بقصة لا ينفع فيها نوح ابنه ولا يستطيع إنقاذه من الغرق، فكيف ينفع أحدٌ من أبناء نوح أبناءه؟ أو كيف يضرهم على الأساس العنصري نفسه؟، وهو ما أفاض سفر حزقيال في بيانه كما رأيناه سالفاً.

ولتأكيد هذه الحقيقة، عرض القرآن الكريم جانباً آخر من نفس قصة نوح مع ابنه ويتعلق الأمر هنا بحوار نوح مع ربه في هذا الشأن جاء فيه:
﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (سورة هود).

وأما قصة امرأة نوح، فجاء فيها:
﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (سورة التحريم).

لقد كان الجواب القرآني في المسألة واضحاً لا يحتمل التأويل، خلاصته أن ما ينفع الناس هو أعمالهم لا أنسابهم، والاعتقاد خلاف هذا يعتبر جهلاً، والاستمرار عليه يؤدي إلى الخسران المبين؛ إنه الموقف نفسه الذي بيّنه حزقيال عندما بيّن أن الأرض إذا استحقت العقاب فلن ينفعها وجود أمثال نوح ودانيال وأيوب فيها، لأنهم إنما سينقذون أنفسهم ببرّهم، ولن يستطيعوا إنقاذ أحد آخر ولو كان ابناً أو ابنة ما لم يكن يستحق النجاة.

صناعة الفلك

جاء في سفر التكوين في الحديث عن صناعة فلك نوح قوله:

«(١٤) اصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكاً مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ. تَجْعَلُ الْفُلْكَ مَسَاكِنَ وَتَطْلِيهِ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ بِالْقَارِ. (١٥) وَهَكَذَا تَصْنَعُهُ: ثَلاثَ مِئَةِ ذِرَاعٍ يَكُونُ طُولُ الْفُلْكِ وَخَمْسِينَ ذِرَاعاً عَرْضُهُ وَثَلاثِينَ ذِرَاعاً ارْتِفَاعُهُ. (١٦) وَتَصْنَعُ كَوّاً لِلْفُلْكِ وَتُكَمِّلُهُ إِلَى حَدِّ ذِرَاعٍ مِنْ فَوْقُ. وَتَضَعُ بَابَ الْفُلْكِ فِي جَانِبِهِ. مَسَاكِنَ سُفْلِيَّةً وَمُتَوَسِّطَةً وَعُلْوِيَّةً تَجْعَلُهُ»[١].

كانت صناعة الفلك بأمر ووحي إلهي، ذكر لنا سفر التكوين ما يتعلق بنوعية خشبه، وطلائه وطوله وعرضه وارتفاعه وكواه وبابه وطبقاته؛ وهي جوانب لم يتحدث عنها القرآن، وإنما ركز على أن صناعة الفلك كانت بأمر من الله، وأن الغاية منها هي إنقاذ المؤمنين من الغرق، دون الظالمين الذين لن يرغبوا في الركوب فيه، قال تعالى:

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (سورة هود)؛ وحدثنا القرآن عن ظروف صناعته له في مجتمع لا يعرف بعد

---

(١) سفر التكوين، إصحاح ٥/ ١٤-١٦.

قيمة الصناعة، ولا يؤمن بما أنذرهم به الرسول من عذاب يوم أليم، فكانوا يهزأون ويسخرون، قال تعالى:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (سورة هود).

كما أخبرنا القرآن أن هذه الصناعة قد تمّت فعلاً بأمر من الله ووحي منه وعلى عينه سبحانه، قال:

فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (سورة المؤمنون).

وقبل أن نخوض في بيان الإضافة النوعية القرآنية في هذا الشأن، لا بد من التأكيد على ما أكد عليه القرآن الكريم، من أهمية الصناعة في حد ذاتها، وصناعة الفلك خصوصاً؛ فالنبي نوح عليه السلام، هو الصانع الأول للسفن، وقد أمره الله بذلك من أجل إنقاذ البشرية من طوفان مؤكد؛ وهو الأمر الذي ذكره سفر التكوين، عندما بيّن لنا أن الله عز وجل كان يعلّمه كيف يصنع السفينة بمقاييسها وأشكالها وما ينبغي أن يكون فيها، وكما بيّنه لنا القرآن عندما ذكر أن صناعة الفلك كانت على أعين الله وبوحي منه؛ وفي ذلك إشادة عظيمة بموضوع الصناعة؛ فالسفينة لم تنزل من السماء، وإنما صنعت بيد البشر، وبيّن القرآن أنها صُنعت من ألواح ودسر، وأنها استطاعت حمل الناس وإنجاءهم من الغرق ومن القوم الظالمين.

ولذلك فقد خص القرآن موضوع آية الفلك بحديث وافٍ، يبدأ من التذكير بآية فلك نوح، كما فعل الكتاب المقدس من قبل، وينتهي بالحديث عن جوانب مختلفة من صناعة الفلك وتسخيره في البحر والابتغاء من فضل الله به، فأما ما يتعلق بفلك نوح، فإضافة إلى ما ذكرنا يمكننا الحديث عن مسألة

الجارية المتروكة للناس آية، قال تعالى:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ (سورة القمر).

لقد بقيت سفينة نوح آية للناس للادكار والاعتبار، فالمجرمون ينالون عقابهم، والصالحون ينجيهم الله من مكرهم، والسفينة وسيلة أساسية للنجاة. وقد ذكرها القرآن واهتم بها باعتبارها آية من آياته، ينبغي النظر فيها وتدبّرها: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ (سورة الحاقة)، وقد ذكرها القرآن تحت مسمّيات مختلفة منها: الفلك والجارية والجوار وذات ألواح ودسر، وكل ذلك يهدف إلى دفع الناس إلى الاهتمام بها وتدبّرها والاستفادة منها من زوايا مختلفة؛ وعلى رأسها زاوية التصنيع والإنشاء، قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ (سورة الرحمن)، وفيه إشارة إلى أنها من صنع الإنسان؛ وهو الذي ينشئها ويجري بها في البحر على ضخامتها وعظمتها التي تبلغ طول الجبال؛ كما يدعو القرآن إلى النظر في السنن التي تتحكم في جريها وركودها وطفوها وغرقها، قال عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ (سورة الشورى).

ولقد اتخذ القرآن الكريم من قصة نوح وسفينته مادة الحديث عن سفينة النجاة المنقذة من الغرق ومن القوم الظالمين؛ قال تعالى:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ (سورة المؤمنون)، وقال عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

(سورة الأعراف)، وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (سورة يونس)، وقال سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ (سورة الشعراء)؛ وكل ذلك إنما هو حديث عن عظمة الله الذي أنجى بالفلك كثيراً من الناس من العذاب الأليم.

وإن إطلالة سريعة على النصوص القرآنية الداعية إلى تأمل آية الفلك لكفيلة بأن تخبرنا بمدى أهمية هذا الموضوع في القرآن الكريم، والتي يستفاد منها: أن الله قد جعل الفلك وسيلة ليسير الناس به في البحر، وليسخره لهم من أجل ركوبهم، وشحن بضائعهم، وابتغائهم من فضله في أبعد الأماكن؛ وليستطيعوا أن يستخرجوا منه ما فيه من طعام وحلية يلبسونها، وليمخروا بهذه السفن أشد البحار وأعتاها، ولعلهم يشكرون.

هكذا إذاً كانت صناعة السفن والاستفادة منها في الابتغاء من فضل الله وشكره، من صميم الاقتراح القرآني ومن عمق اهتمام الكتاب المقدّس السابق.

حفظ النوع

تحدث سفر التكوين عن سفينة نوح التي سيكون من مهمّاتها إضافة إلى إنقاذ نوح وأهله ومن آمن معه، إنقاذ زوجين اثنين من جميع الحيوانات التي كانت تعيش معهم، جاء فيه:

«(١٩) وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ اثْنَيْنِ مِنْ كُلٍّ تُدْخِلُ إِلَى الْفُلْكِ لِاسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ. تَكُونُ ذَكَراً وَأُنْثَى. (٢٠) مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا وَمِنَ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا وَمِنْ كُلِّ دبابَاتِ الارْضِ كَأَجْنَاسِهِ. اثْنَيْنِ مِنْ كُلٍّ تُدْخِلُ إِلَيْكَ لِاسْتِبْقَائِهَا. (٢١) وَأَنْتَ فَخُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ وَاجْمَعْهُ عِنْدَكَ فَيَكُونَ

لَكَ وَلَهَا طَعَاما»[١]. وهو ما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (سورة المؤمنون)؛ وفيه إشارة إلى الاهتمام بالأجناس الحية والمحافظة عليها، فكانت سفينة نوح هي سفينة الإنقاذ التي لا تحافظ على الجنس البشري فقط، بل على الحيوان أيضاً؛ غير أن التدخل الحاخامي سرعان ما يظهر في فقرة أخرى من سفر التكوين عندما ميز بين الحيوانات الطاهرة وغيرها، فجعل أعداد الأولى سبعة أزواج والثانية زوجين اثنين، قال:

«(٢) مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ تَأْخُذُ مَعَكَ سَبْعَةً سَبْعَةً ذَكَراً وَانْثَى. وَمِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ اثْنَيْنِ: ذَكَراً وَأُنْثَى. (٣) وَمِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ أَيْضاً سَبْعَةً سَبْعَةً: ذَكَراً وَأُنْثَى. لِاسْتِبْقَاءِ نَسْلٍ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ. (٤) لأَنِّي بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّام أَيْضاً أُمْطِرُ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْماً وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. وَأَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ كُلَّ قَائِمٍ عَمِلْتُهُ» (٥) فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ الرَّبُّ.»[٢]؛ وهذه الإضافة الفقهية التفسيرية يخالفها النص التوراتي السابق والقرآن الكريم، وكذلك النص التوراتي اللاحق الذي يتحدث عما قام به نوح فعلاً، قال:

«فَدَخَلَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ إِلَى الْفُلْكِ مِنْ وَجْهِ مِيَاهِ الطُّوفَانِ. (٨) وَمِنَ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ وَمِنَ الطُّيُورِ وَكُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ: (٩) دَخَلَ اثْنَانِ اثْنَانِ إِلى نُوحٍ إِلى الْفُلْكِ ذَكَراً

---

(١) سفر التكوين ٦/١٩-٢١.
(٢) سفر التكوين ٧/٢-٥.

وأنثى. كَمَا أمر اللهُ نُوحاً.»[1]؛ وبهذا نتأكد أن هذا النص قد أدرجت فيه نصوص تفسيرية وضعها مفسّرو الكتاب المقدس وشراحه، لكنها بالتأكيد، إذا تعرّضت للمراجعة والنقد فلن تجد لها موقعاً داخل النص ويظهر تناقضها ومخالفتها للسياق العام للنصوص الأساسية.

التكذيب والعصيان والجدل

لقد بيّن القرآن الكريم جوانب مختلفة من أسباب التكذيب والعصيان التي قام بها قوم نوح، فهناك أسباب اجتماعية واقتصادية، منها: اتباع أصحاب القوة والمال الذين لم يزدهم مالهم وولدهم إلا خساراً، وهناك أصحاب النفوذ الديني والسياسي الذين مكروا مكراً كبّاراً، وألزموا الناس بالصبر على آلهتهم ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، الذين استطاعوا إضلال كثير من الناس بذلك.

ولم يحدثنا النص التوراتي عن هذه الجوانب ولا حتى عن المواجهة التي طرأت بين نوح والذين معه من جهة، وبين الذين كفروا من قومه وقاوموا دعوته.

وحدثنا القرآن الكريم عن جوانب مختلفة من الجدل الذي كان بين نوح وقومه: إذ ناقشوه في شخصه باعتباره بشراً مثلهم، وفي أتباعه الذين لم يكونوا من علية القوم، وفي صدقه وفي الأسباب الداعية إلى تميّزه عليهم بهذه الدعوة الجديدة المخالفة لما هم عليه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (سورة هود).

---

(١) سفر التكوين ٧/٨-٩.

فأما جوابه عما خصه الله به من الفضل، فبيّن لهم أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وأنهم إذا كرهوا نعمة الله ورحمته فلا يمكنه أن يلزمهم بها؛ وأنه لا يستطيع أن يطرد أتباعه وهم قد آمنوا به، ولئن طردهم فمن ينصره، كما أنه لا يسأل أحداً أجراً على دعوته: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ (سورة هود)

لم يفلح كل ذلك الحوار في تبيّن قومه لحقيقة الأمر، فقرروا محاربته والقضاء عليه، ﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ (سورة القمر، ٩)، وقالوا: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ (سورة الشعراء) ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾﴾ (سورة القمر)؛ وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ (سورة الشعراء).

لم يتحدث سفر التكوين عن هذه المواجهة الأساسية في قصة طوفان نوح بين نوح وقومه، والتي قرر فيها قومه أن يقضوا عليه ويجعلوا حداً لحياته، فأنجاه الله من مكرهم، وسلط عليهم الطوفان الذي كان ينتظرهم؛ وكانت السفينة وسيلة لنجاته والذين آمنوا معه من القوم الظالمين.

طوفان الماء

حدثنا سفر التكوين عن الطوفان باعتباره قدراً إلهياً سيُغرق الأرض، ولن ينجو من هذا الغرق إلا نوحٌ وأهله، قال:

«(١٧) فَهَا أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ لِأَهْلِكَ كُلَّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الارْضِ يَمُوتُ. (١٨) وَلَكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ فَتَدْخُلُ الْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ وَامْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ.»[١] وهو ما فعله نوح، قال: «(٢٢) فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ اللهُ. هَكَذَا فَعَلَ»[٢].

الملاحظ أن النص الذي بين أيدينا حدثنا عن عهد أقامه الله مع نوح وبنيه وامرأته ونساء بنيه، ولذلك سينجيهم من غرق الطوفان؛ بينما حدثنا القرآن عن السبب الأساسي للنجاة وهو الإيمان والتوبة من الإفساد في الأرض، ولا علاقة لذلك بأهل ولا ولد، وهو ما رأيناه في سفر حزقيال في ما سبق، ونراه كذلك في الإصحاح السابع من سفر التكوين في قوله: «وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: «ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ الَى الْفُلْكِ لانِّي ايَّاكَ رَايْتُ بَارّا لَدَيَّ فِي هَذَا الْجِيلِ»[٣]. وينبغي بنفس المنطق أن يدخل أهل بيته إلى الفلك لأنهم أبرار في ذلك الجيل، وأما الفجار والكفار فلا يستحقون النجاة وإن كانوا من أبناء نوح؛ ولعل قصة أبناء نوح الثلاثة وخصوصاً ما يتعلق بسام المبارك وحام الملعون، كانت تحمل هذه المعاني ذاتها، لكنها اتخذت أبعاداً عنصرية أسقطت على شعوب المنطقة.

إن المراجعة النقدية القرآنية نبهت إلى أسباب النجاة وموجبات الهلاك، فالبر والتقوى وإصلاح الأرض هي السبب الأساسي للنجاة، والكفر والفجور

---

(١) سفر التكوين، إصحاح ٦/ ١٧-١٨.

(٢) سفر التكوين، إصحاح ٦/ ٢٢.

(٣) سفر التكوين، إصحاح٧ / ١.

وإفساد الأرض هي السبب الأساسي للهلاك؛ ومن ثم فإن موضوع الصالح من الأبناء والطالح منهم، يتعلق في القصة بالركوب مع نوح والنجاة من الغرق بسبب الطوفان، فالذين ركبوا معه من أهله كانوا من الناجين؛ لكن الذين استمروا على كفرهم وتكذيبهم بما جاء به عليه السلام استحقوا الغرق والعذاب، ولم ينفعهم كونهم أبناء نوح وذريته، وهو ما أكده قول حزقيال في الذين يستحقون العذاب، ولن ينفعهم أن يكون فيهم نوح ولا أيوب ولا دانيال، لأنهم إنما ينجون ببرّهم، لا بانتسابهم إلى أحد من هؤلاء الأنبياء.

هكذا كانت المراجعة القرآنية للقصة كما وردت في التوراة، مراجعة للمفاهيم الخاطئة التي تمسّك بها فريق من أهل الكتاب، وأهمها مفهوم العنصر النقي والعرق الطاهر والسلالة الطيبة المباركة، مقابل باقي العناصر والأعراق والسلالات غير النقية، والتي نالتها اللعنة كما نالت أسلافها من قبل.

قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ (سورة هود).

لقد كان النص القرآني واضحاً في الذين سيركبون في الفلك، إنهم نوح وأهله إلا من سبق عليه القول منهم ومن آمن؛ وهو ما يعني أن معيار النجاة إنما هو الإيمان برسالة نوح، ويقابله التوبة من الفساد العام الذي كان فيه قومه، ومن يؤمن به ويصدق بدعوته، فإنه سيركب معه، ولذلك قصّ علينا القرآن الكريم قصة ابنه وهو يرفض الركوب معه ويكون من المغرقين، وقصة نوح وهو يسأل ربه أن يتجاوز عن ابنه لأنه من أهله، والجواب الصارم إذ يقول الله له: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ

عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (سورة هود).

وبذلك يعيد القرآن للناس طهرهم الطبيعي الذي لا يتحملون فيه وزراً ولا لعنة أحد من آبائهم أو أجدادهم، كما يعيد هذا الطهر إلى كل الشعوب والأمم، فليس هناك شعوب مباركة وأخرى ملعونة بسبب آبائها أو أجدادها، وليست هناك شعوب سامية تتبعها البركة وأخرى حامية كنعانية تلاحقها اللعنة.

كذلك تسقط هذه المراجعة القرآنية عن الناس أوهامهم، وتعلمهم أنهم لن يُحمدوا على ما لم يفعلوا من أعمال آبائهم وأجدادهم كذلك.

تحدث سفر التكوين عن طوفان نوح واصفاً كيف حدث، قال:

«انْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ. (١٢) وَكَانَ الْمَطَرُ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْماً وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[١]. وتحدّث القرآن الكريم عن الأمر نفسه مضيفاً بيان جوانب إنسانية متعددة تتعلق بنوح وقومه وبنيه، قال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ (سورة القمر).

وتبعاً للتلاوة القرآنية، فإن قوم نوح كذبوا نبيّهم واتهموه بالجنون وازدجروه، وفي سورة نوح، فقد مكروا مكراً كُبّاراً، وهمّوا برسولهم ليأخذوه، وعندها تدخل القدر، وفتحت أبواب السماء وطاقاته، ينابيع الغمر وعيونه، والتقى لتحقيق القدر المحتوم على الظالمين؛ وفي هذه الأثناء كانت

---

(١) سفر التكوين، إصحاح٧/ ١٢.

السفينة التي صنعها نوح من ألواح ودسر تجري فوق هذه المياه التي موجها كالجبال؛ وقد جاء في سفر التكوين وصف لهذا الأمر: «وَتَكَاثَرَتِ الْمِيَاهُ وَرَفَعَتِ الْفُلْكَ فَارْتَفَعَ عَنِ الأَرْضِ. (١٨) وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ وَتَكَاثَرَتْ جِدّاً عَلَى الأَرْضِ فَكَانَ الْفُلْكُ يَسِيرُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. (١٩) وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ كَثِيراً جِدّاً عَلَى الأَرْضِ فَتَغَطَّتْ جَمِيعُ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ الَّتِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ.»[١]؛ ويُظهر الوصف القرآني والكتابي حجم الكارثة التي أصابت الأرض بفعل الطوفان، ولم ينفع الظالمين حينها غرورهم ولا كفرهم ولا مكرهم.

حدثنا سفر التكوين عن ركوب السفينة، من طرف عائلة نوح والحيوانات المختارة ذكراً وأنثى من كل ذي جسد فيه روح، قال: «فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ دَخَلَ نُوحُ وَسَامٌ وَحَامٌ وَيَافَثُ بَنُو نُوحٍ وامرأة نُوحٍ وَثَلاثُ نِسَاءِ بَنِيهِ مَعَهُمْ إلى الْفُلْكِ. (١٤) هُمْ وَكُلُّ الْوُحُوشِ كأجناسها وَكُلُّ الْبَهَائِمِ كأجناسها وَكُلُّ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدُبُّ عَلَى الأرض كأجناسها وَكُلُّ الطُّيُورِ كأجناسها: كُلُّ عُصْفُورٍ كُلُّ ذِي جَنَاحٍ. (١٥) وَدَخَلَتْ إلى نُوحٍ إلى الْفُلْكِ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ. (١٦) وَالدَّاخِلاتُ دَخَلَتْ ذَكَراً وأنثى مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ كَمَا أمره اللهُ. وأغلق الرَّبُّ عَلَيْهِ»[٢].

وحدثنا القرآن الكريم عن هذا الركوب، فقال: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ (سورة هود).

واستمر الطوفان حيناً من الدهر، حتى قضي على كل الظالمين، وذكر لنا سفر التكوين تفاصيل هذا الغرق، التي نعتقد أنها تفاصيل تفسيرية من مفسري الكتاب وعلمائه تتحدّث عن علو المياه بالأذرع، وفناء الحيوانات بالأصناف،

---

(١) سفر التكوين، إصحاح٧/ ١٧-١٩.

(٢) سفر التكوين، إصحاح٧/ ١٣-١٦.

إلى أن يقول: «فَمَحَا اللهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الأرض: النَّاسَ وَالْبَهَائِمَ وَالدَّبَّابَاتِ وَطُيُورَ السَّمَاءِ فَانْمَحَتْ مِنَ الأرض. وَتَبَقَّى نُوحٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ فَقَطْ».

لم يحفل القرآن كثيراً بالحديث عن فناء المخلوقات الأخرى، لأنها لم تكن مقصودة بهذا الغرق، بقدر ما اهتم بالحديث عن الإنسان الذي رفض الاستجابة لنذارة نوح فحلّ به ما كان ينذر به؛ وتحدّث القرآن في نصوص عديدة عن غرق الظالمين، الذين كانوا هم أظلم وأطغى وكانوا قوماً فاسقين، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (سورة الزخرف)، ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ (سورة نوح).

حدثنا سفر التكوين عن انتهاء الطوفان، قال: «وأجاز اللهُ رِيحاً عَلَى الأرض فَهَدَأَتِ الْمِيَاهُ. (٢) وَانْسَدَّتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ وَطَاقَاتُ السَّمَاءِ فَامْتَنَعَ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ. (٣) وَرَجَعَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأرض رُجُوعاً مُتَوَالِياً. وَبَعْدَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ يَوْماً نَقَصَتِ الْمِيَاهُ (٤) وَاسْتَقَرَّ الْفُلْكُ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ فِي الْيَوْمِ السَّابعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ»[1].

وحدثنا القرآن عن انتهاء الطوفان، فقال: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (سورة هود).

والملاحظ أن النصين معاً تحدثا عن انسداد ينابيع الغمر وطاقات السماء وانقطاع المطر، وعن الأرض التي تبلع ماءها والسماء التي تقلع ويذهب غمامها فيغيض الماء، ثم يستقر الفلك على جبال أرارات في سفر التكوين، ويستوي على الجودي في القرآن، وفي كل الأحوال فإن وصف انتهاء

(١) سفر التكوين، إصحاح ٧/ ٢-٤.

الطوفان كان عجيباً في كلا النصين، لكن النص القرآني أضاف بعداً أساسياً لم يتركه أبداً، وهو البعد الإنساني، حيث أكد على التخلص من القوم الظالمين بهذا الطوفان، قال: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ وهو تأكيد على الرسالة الأساسية التي يحملها، ألا وهي سلوك الإنسان وأثره في تعمير الأرض وإصلاحها أو إفساد الأرض وتدميرها.

ثم تحدث النص التوراتي عن خروج الغراب بعد أيام من نهاية الطوفان من الفلك متردداً وخرجت بعده الحمامة بأسابيع لترجع في المرة الأولى بغصن زيتون ولئلا تعود في المرة الثانية؛ ولم يذكر القرآن أياً من هذه الأمور.

وذكر سفر التكوين خروج نوح وأهله من الفلك، وكل من معه، بأمر من الله، قال: «وَأَمَرَ اللهُ نُوحاً: (١٦) «اخْرُجْ مِنَ الْفُلْكِ أَنْتَ وَامْرَأَتُكَ وَبَنُوكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ. (١٧) وَكُلَّ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي مَعَكَ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ: الطُّيُورِ وَالْبَهَائِمِ وَكُلَّ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدُبُّ عَلَى الأَرْضِ أَخْرِجْهَا مَعَكَ. وَلْتَتَوَالَدْ فِي الأَرْضِ وَتُثْمِرْ وَتَكْثُرْ عَلَى الأَرْضِ». (١٨) فَخَرَجَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ. (١٩) وَكُلُّ الْحَيَوَانَاتِ وَكُلُّ الطُّيُورِ كُلُّ مَا يَدُبُّ عَلَى الأَرْضِ كَأَنْوَاعِهَا خَرَجَتْ مِنَ الْفُلْكِ»[1].

وذكر القرآن الكريم نفس الأمر، قال: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ (سورة هود).

والملاحظ أن النصين معاً أكدا على البركة التي ستكون على نوح والذين معه، والتي يفهم معناها في النص الكتابي من قوله: ولتتوالد في الأرض

(١) سفر التكوين، إصحاح ٧/ ١٥-١٩.

وتثمر وتكثر على الأرض؛ كما نجد في بداية الإصحاح التاسع التنصيص على ذلك بقوله: «(٩ : ١) وَبَارَكَ اللهُ نُوحاً وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: «أثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأوا الأرْضَ.»[١]؛ لكن النص القرآني يضيف تفصيلاً في غاية الأهمية، وهو يتعلق بالأمم التي يمتعها الله إلى حين ثم تنال العقاب، خلافاً للأمم التي تنال البركة الدائمة في الدنيا والآخرة، وهو بذلك يجيب على موضوع تأسيس البركة على أساس عنصري، وينقل هذا المعنى الذي جسّده المفسّر الكتابي في شعوب بعينها في قصة أبناء نوح الذين انقسموا حسب البركة واللعنة ، إلى مستوى إنساني عالمي بعيداً عن التعيين والتحديد الحاخامي العنصري. وهو ما يفيد أن قصة الأبناء كما أوردها سفر التكوين، إنما هي من التفسيرات التي أعطيت لفكرة اختلاف الأمم حسب اختلاف سلوك أهلها؛ والتي جسّدها المفسرون والرواة في الشعوب القائمة أمامهم، حاميين وكنعانيين وساميين ويافثيين وغيرهم ممن تفرعوا عنهم حسب نظرية البركة واللعنة هذه.

هكذا إذاً تنتهي قصة نوح بين التوراة والقرآن، حيث نجد أن أحداث القصة التوراتية ومضمونها ورسالتها هي عينها التي أكد عليها النص القرآني، لكنه استرجع أبعاداً إنسانية ودينية مهمة تعرضت للتهميش أو الإخفاء أو النسيان، وأعاد لها الاعتبار في تلاوته الجديدة التي ما جاءت لتبطل بل لتكمل، كما شأن المرسلين جميعاً.

وفي هذا يقول الله لرسوله محمد في شأن قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (سورة هود).

---

(١) سفر التكوين، إصحاح ١/٩.



الفصل الرابع

قصة إبراهيم



يزيد عدد كلمات النص الإبراهيمي في القرآن على ٤٢٠٠ كلمة تتعلق بما قبل خروج إبراهيم عليه السلام من أرضه إلى الأرض المباركة للعالمين. وما يزيد على ٦٤٠٠ كلمة تتعلق بالملة التي وضع أسسها؛ وهو ما يجعل عدد الكلمات المتعلقة بقصة إبراهيم تفوق ١٠٦٠٠ كلمة تتوزع على مرحلتين: مرحلة ما قبل الهجرة بنسبة ٤٠٪ جاهد فيها إبراهيم أباه وقومه وملكه ونفسه لمعرفة الله والدين الحق، إلى أن توّجت هذه المرحلة بإلقائه في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ونجّاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وأما المرحلة الثانية التي تمثل نسبة ٦٠ ٪ فهي تتعلق بتأسيس ووضع أول بيت للعالمين، ليقيم الناس الصلاة ويأخذوا عن إبراهيم وذريته مناسكهم ويخلصوا العبادة له ولا يشركوا به شيئاً؛ كما تضمّن الحديث القرآني عن هذه المرحلة مراجعة نقدية لما عند أهل الكتاب في ما يخص إبراهيم الخليل وذريته وملته وأولى الناس به وغيرها.

وأما النص التوراتي القانوني الذي تحدث باستفاضة عن إبراهيم وذريته في سفر التكوين خصوصاً وذكّر بلمحات من قصته في أسفار أخرى؛ فيحتوي على ما يزيد على ١١٦٠٠ كلمة تتعلق بهذه القصة؛ أغلبها وردت بعد هجرته من أرض أبيه وعشيرته، أي ما يزيد على ٩٨٪؛ بينما ورد الحديث عن

المرحلة الأولى قبل الهجرة، في أسفار أخرى شفوية أو غير قانونية عند أهل الكتاب، ومن ذلك رؤيا إبراهيم، وكتاب الخمسينيات والآثار التوراتية، كما تحدثت الهاكاداه والتلمود عن هذه المرحلة بتفصيل كثير، يتوافق كثيراً مع ما جاء في القرآن الكريم.

المرحلة الأولى من حياة إبراهيم

وحتى لا تأخذنا التفاصيل فتخرج بنا عن بيان الإضافة النوعية القرآنية في هذا الموضوع، فإننا نسجل على النص التوراتي القانوني أولاً تغييب الأساس العقائدي والديني والإنساني في القصة؛ حيث تبدأ قصة إبراهيم في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين بالحديث عن خروج إبراهيم من أرضه وعشيرته وبيت أبيه، دون أن تذكر لنا الأسباب الداعية له إلى هذا الخروج؛ بل إن الهجرة المذكورة - تبعاً للنص القانوني - كانت قبل الأمر بها من الله، وكان الخارج هو أبا إبراهيم نفسه بابنه إبراهيم وزوجته وابن أخيه لوط: «(٣١) وَأَخَذَ تَارَحُ أبرام ابْنَهُ وَلُوطاً بْنَ هَارَانَ ابْنَ ابْنِهِ وَسَارَايَ كَنَّتَهُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ ابْنِهِ فَخَرَجُوا مَعاً مِنْ أور الْكِلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوا إلى حَارَانَ وأقاموا هُنَاكَ. (٣٢) وَكَانَتْ أيام تَارَحَ مِئَتَيْنِ وَخَمْسَ سِنِينَ. وَمَاتَ تَارَحُ فِي حَارَانَ»[1].

لكن هذا الخروج المشار إليه في الإصحاح الحادي عشر لما كان قبل الوحي الإلهي لإبراهيم في الإصحاح الثاني عشر، أفرغه من بعده القدسي، وجعله عملاً تلقائياً يقوم به الأب تارح المفترض الابتعاد عنه وترك بيته: «(١٢ : ١) وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أرضك وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ

---

(١) سفر التكوين، إصحاح ١١، عدد ٣١-٣٢.

أبيك إلى الأرض الَّتِي أرِيكَ. (٢) فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وأباركك وأعظم اسْمَكَ وَتَكُونَ بَرَكَةً. (٣) وأبارك مُبَارِكِيكَ وَلاعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأرض»[١].

ولعل غاية هذا التنفيذ القبلي للأمر الإلهي هي محاولة كتمان حقيقة الأب والعشيرة التي كانت كافرة ومشركة، ولذلك لم يتحدث سفر التكوين عن هذا الأمر إلا عرضاً، بينما سجلته أسفار كتابية عديدة حُكم عليها بكونها منحولة أو أبوكريفا؛ وما زالت آثارها باقية في تراث كتابي كثير، نجده في التلمود والهاكاداه والمدراش والقبالاه، ولم تخل منه النصوص القانونية نفسها؛ حيث نجد في سفر يشوع: «(٢) وَقَالَ يَشُوعُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: «هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: آبَاؤُكُمْ سَكَنُوا فِي عَبْرِ النَّهْرِ مُنْذُ الدَّهْرِ. تَارَحُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ وَأَبُو نَاحُورَ، وَعَبَدُوا آلِهَةً أُخْرَى. (٣) فَأَخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاكُمْ مِنْ عَبْرِ النَّهْرِ وَسِرْتُ بِهِ فِي كُلِّ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَكْثَرْتُ نَسْلَهُ وَأَعْطَيْتُهُ إِسْحَقَ»[٢]. ونجد في الإصحاح نفسه من سفر يشوع قوله: «فَالآنَ اخْشَوا الرَّبَّ وَاعْبُدُوهُ بِكَمَالٍ وَأَمَانَةٍ، وَانْزِعُوا الآلِهَةَ الَّذِينَ عَبَدَهُمْ آبَاؤُكُمْ فِي عَبْرِ النَّهْرِ وَفِي مِصْرَ، وَاعْبُدُوا الرَّبَّ. (١٥) وَإِنْ سَاءَ فِي أَعْيُنِكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا الرَّبَّ، فَاخْتَارُوا لأَنْفُسِكُمُ الْيَوْمَ مَنْ تَعْبُدُونَ: إِنْ كَانَ الآلِهَةَ الَّذِينَ عَبَدَهُمْ آبَاؤُكُمُ الَّذِينَ فِي عَبْرِ النَّهْرِ، وَإِنْ كَانَ آلِهَةَ الأَمُورِيِّينَ الَّذِينَ أَنْتُمْ سَاكِنُونَ فِي أَرْضِهِمْ. وَأَمَّا أَنَا وَبَيْتِي فَنَعْبُدُ الرَّبَّ»[٣]. وإن المتأمل في هذين النصين يتأكد له أن خروج إبراهيم من أرضه وعشيرته وبيت أبيه لم يكن خروجاً تلقائياً، وإنما كان هجرة لما عبده أبوه وقومه من آلهة أخرى، وإنجاءً لإبراهيم من بطش المشركين من قومه إلى

---

(١) سفر التكوين، إصحاح ١٢، عدد ١-٣.

(٢) سفر يشوع، إصحاح ٢٤، عدد ٢-٣.

(٣) سفر يشوع، إصحاح ٢٤، عدد ١٤-١٥.

أرض جديدة سيكون فيها إبراهيم مصدراً للبركة العالمية؛ حيث تتبارك فيه جميع قبائل الأرض.

وخلاصة القول أن جزءاً أساسياً من قصة إبراهيم قد تم التغاضي عنه وإخفاؤه لصالح آباء إبراهيم في عبر النهر، لكن هذا الإخفاء فضحته نصوص قانونية أخرى بيّنت أن آباء إبراهيم وقومه كانوا مشركين وعبدوا آلهة أخرى؛ وفضحته نصوص شفوية وأخرى في التلمود والهاكاداه والمدراش والقبالاه ذكرت كثيراً من تفاصيل هذه المرحلة من حياة إبراهيم الخليل؛ وخلاصتها أن أبا إبراهيم وقومه كانوا مشركين، وكان أبوه يصنع الأصنام ويبيعها، وكان إبراهيم يناقش أباه وقومه في نفعها والجدوى منها، وأنها من صناعة أيدي الناس فعليهم ألا يعبدوها لأنها باطلة والعابدون لها حمقى؛ وطرأت له في هذا الشأن مجادلات كثيرة مع أبيه وقومه وملكه، بيّن لهم إبراهيم من خلالها أن ما يفعلونه ضلال، وأن عليهم أن يعبدوا الله الذي خلق كل شيء وحمّر الشمس، وجعل القمر والنجوم وأعطى الإنسان حياته وإذا مرض شفاه وإذا احتاج أعطاه وهو على كل شيء قدير.

ولم ترُق أبا إبراهيم وقومه دعوته، فقرّروا بعد أن قام هو بكسر أصنامهم أن يلقوه في النار، فأنجاه الله منها هو ولوط إلى الأرض المباركة للعالمين.

أربعون في المئة من حديث القرآن الكريم عن إبراهيم، كان حديثاً عن هذه المرحلة من تجربته، وهو يسعى إلى المعرفة والعلم والرشد؛ ورغم أن المرحلة ذاتها كانت شبه مغيبة عن النص التوراتي الرسمي؛ إلى أن عملية المراجعة النقدية التي وجهنا لها القرآن الكريم، والتي جعلها من أعظم مهمّات رسوله صلى الله عليه وسلم، عندما قال عنه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ

عَن كَثِيرٍۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾ (سورة المائدة)؛ أمكنها أن تساعدنا كثيراً على اكتشاف النصوص المخفية في ثنايا الأسفار القانونية الرسمية؛ وهو ما سنحاول الاطلاع عليه في المبحث الأول من هذه الدراسة؛ وسنعالجه من خلال مثالين:

يتعلق الأول بموضوع البعث وإحياء الموتى ونتناوله من خلال قصة إبراهيم والذبائح.

ويتعلق الثاني بموضوع التوحيد والشرك ونتناوله من خلال قصة إبراهيم مع أبيه وقومه في هدم مذبح البعل وبناء بيت الله.

١- قصة إبراهيم وعهد القطع

١- سنأخذ السفر الأول من أسفار العهد القديم، وهو سفر التكوين، ونختار منه الإصحاح الخامس عشر، الذي يتحدث عمّا يطلق عليه «عهد القطع» «the covenant of pieces»، حيث سيقطع الله مع إبراهيم عهداً بوراثة الأمم الذين كان يقيم بينهم، له ولنسله من بعده؛ وخلاصة القصة أن إبراهيم عندما صار إليه كلام الرب في الرؤيا، سأل ربه أن يعطيه نسلاً ليرث ممتلكاته إذ لم يكن له وارث، فاستجاب الله له، ووعده بنسل كثير، فآمن إبراهيم فحسبه له براً[1]؛ فسأل إبراهيم ربه عن العلامة التي بها يعلم أنه

---

(١) بَعْدَ هَذِهِ الامُورِ صَارَ كَلامُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا: «لا تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جِدّاً». (٢) فَقَالَ أَبْرَامُ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيماً وَمَالِكُ بَيْتِي هُوَ أَلِيعَازَرُ الدِّمَشْقِيُّ؟» (٣) وَقَالَ أَبْرَامُ أَيْضاً: «إِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِي نَسْلاً وَهُوَذَا ابْنُ بَيْتِي وَارِثٌ لِي». (٤) فَإِذَا كَلامُ الرَّبِّ إِلَيْهِ: «لا يَرِثُكَ هَذَا. بَلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ هُوَ يَرِثُكَ». (٥) ثُمَّ أَخْرَجَهُ إِلَى خَارِجٍ وَقَالَ: «انْظُرْ الَى السَّمَاءِ وَعُدَّ النُّجُومَ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعُدَّهَا». وَقَالَ لَهُ: «هَكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ». (٦) فَآمَنَ بِالرَّبِّ فَحَسِبَهُ لَهُ بِرّاً. (سفر التكوين، ١٥/١-٦)

سيرث هذه الأرض، فأمره الله بأن يأخذ مجموعة من الذبائح من البهائم والطير، فشطر البهائم إلى شطرين قابل شطور بعضها ببعض، وترك الطيور كاملة، فكانت الجوارح تأتي لتأكل منها وكان إبراهيم يزجرها[1]، ووقع على إبراهيم سبات وحلت عليه رعبة مظلمة، فأخبره الله في سباته عن مصير ذريته من بعده وكيف أنهم يستعبدون أربعة قرون في أرض مصر، وأنهم يرجعون بعد ذلك إلى المكان عينه الذي وعدوا به[2]، وعندما يستيقظ إبراهيم من سباته، يرى تنور دخان ومصباح نار يجوز بين قطع الذبائح، وهنالك يقطع الله معه ميثاقاً بأن يعطيه كل تلك الأرض من مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أراضي شعوب المنطقة[3].

إن الهم الأكبر لهذا النص، مثلما هو لنصوص أخرى كثيرة، هو العودة

---

(١) وَقَالَ لَهُ: «أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكِلْدَانِيِّينَ لِيُعْطِيَكَ هذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا». (٨) فَقَالَ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ بِمَاذَا أَعْلَمُ أَنِّي أَرِثُهَا؟» (٩) فَقَالَ لَهُ: «خُذْ لِي عِجْلَةً ثُلاَثِيَّةً وَعَنْزَةً ثُلاَثِيَّةً وَكَبْشاً ثُلاَثِيّاً وَيَمَامَةً وَحَمَامَةً». (١٠) فَأَخَذَ هذِهِ كُلَّهَا وَشَقَّهَا مِنَ الْوَسَطِ وَجَعَلَ شِقَّ كُلِّ وَاحِدٍ مُقَابِلَ صَاحِبِهِ. وَأَمَّا الطَّيْرُ فَلَمْ يَشُقَّهُ. (١١) فَنَزَلَتِ الْجَوَارِحُ عَلَى الْجُثَثِ وَكَانَ أَبْرَامُ يَزْجُرُهَا. (سفر التكوين، ١٥/٧-١١)

(٢) وَلَمَّا صَارَتِ الشَّمْسُ إِلَى الْمَغِيبِ وَقَعَ عَلَى أَبْرَامَ سُبَاتٌ وَإِذَا رُعْبَةٌ مُظْلِمَةٌ عَظِيمَةٌ وَاقِعَةٌ عَلَيْهِ. (١٣) فَقَالَ لأَبْرَامَ: «اعْلَمْ يَقِيناً أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيباً فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ وَيُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ فَيُذِلُّونَهُمْ أَرْبَعَ مِئَةِ سَنَةٍ. (١٤) ثُمَّ الأُمَّةُ الَّتِي يُسْتَعْبَدُونَ لَهَا أَنَا أَدِينُهَا. وَبَعْدَ ذلِكَ يَخْرُجُونَ بِأَمْلاَكٍ جَزِيلَةٍ. (١٥) وَأَمَّا أَنْتَ فَتَمْضِي إِلَى آبَائِكَ بِسَلاَمٍ وَتُدْفَنُ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ. (١٦) وَفِي الْجِيلِ الرَّابعِ يَرْجِعُونَ إِلَى ههُنَا لأَنَّ ذَنْبَ الأَمُورِيِّينَ لَيْسَ إِلَى الآنَ كَامِلاً». (سفر التكوين، ١٥/١٢-١٦)

(٣) ثُمَّ غَابَتِ الشَّمْسُ فَصَارَتِ الْعَتَمَةُ وَإِذَا تَنُّورُ دُخَانٍ وَمِصْبَاحُ نَارٍ يَجُوزُ بَيْنَ تِلْكَ الْقِطَعِ. (١٨) فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقاً قَائِلاً: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ نَهْرِ الْفُرَاتِ. (١٩) الْقِينِيِّينَ وَالْقَنِزِّيِّينَ وَالْقَدْمُونِيِّينَ (٢٠) وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ (٢١) وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ». (سفر التكوين، ١٥/ ١٧-٢١)

إلى الأرض التي وُعد بها إبراهيم وانتزاعها من أصحابها، وإسكان بني إسرائيل فيها إتماماً للنبوءات والوعود والعهود والعلامات؛ والواقع أن تلك الوعود لم تكن صحيحة ولا كانت من الله، ولم ينفذ منها شيء لا في زمن إبراهيم ولا إسحاق ولا يعقوب ولا الأسباط ولا موسى ولا يشوع ولا عيسى ولا غيرهم من الأنبياء، ولذلك تطرأ على هذه النصوص في كل مرة إضافات واستدراكات وتعديلات وتفسيرات تجعلها أكثر مواءمة مع الواقع المخالف لها. والواضح أن هذا النص كما هي النصوص الأخرى، لا تتحدث عن قيمة إنسانية أو خلقية ولا عن مسألة دينية ترتبط بالعمل والجزاء واليوم الآخر والحساب، وإنما تتمركز حول مشكلة تاريخية قومية تخص بني إسرائيل، وتناقض مقترحاتُ حلها كلَّ القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية التي جاءت بها الكتب.

ولنأخذ قراءة أخرى لنفس النص في زمن آخر، كان تأثير أمنية العودة وانتزاع الأرض من أصحابها ضعيفاً، وكان تسلط الإمبراطوريات قوياً، كما أن إنكار البعث واليوم الآخر لم يكن طاغياً مثلما هو الشأن عند الكهنوت الحاخامي والصدوقي الذي ينتمي إليه النص السابق.

والقصة مأخوذة من التوراة الشفوية، أو ما يطلق عليه «الهجادة»، وهو كما يضمّ نصوصاً أساسية مدونة في التوراة القانونية، يضمّ نصوصاً أخرى غير قانونية أو خفية يفسّر بها الحاخامات الكتاب المقدس.

تحت نفس العنوان (عهد القطع)، الذي أُعطي للإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين، نجد النص الذي بين أيدينا، يتحدث عن نفس الموضوع، بروح أكثر ارتباطاً بالدين والقيم والأخلاق والآخرة، حيث يبدأ النص بالحديث عن ظهور الله لإبراهيم من أجل تهدئة ضميره بعد الحرب التي خاضها، وخصوصاً وقد أزهقت فيها دماء الأبرياء مما سبّب لإبراهيم كثيراً

من عذاب الروح، وبشره ربّه أنه سيكون في ذريته في المستقبل رجال أتقياء يكونون درعاً لأجيالهم، مثلما هو إبراهيم الآن[١]. وزيادة في التفضيل فقد سمح له الله أن يسأل ما يريد، فقال إبراهيم: إن كانت ذريتي ستثير غضبك في المستقبل، فمن الأفضل أن أبقى عقيماً، وسيكون من دواعي سروري أن يكون لوط وارثي، إضافة إلى أني قرأت في النجوم أني لن ألد أولاداً[٢]. فأصعده الله إلى قبة السماء وقال له : أنت نبي ولست منجماً، ولم يسأل إبراهيم ربه عن أي آية ليعلم أنه سينعم بذرية، واكتفى بأن آمن بما قال الله له، فحسبه له براً، وجزاه عليه بأن أعطاه نصيباً في هذا العالم ونصيباً في العالم الآخر على إيمانه القوي بالله[٣]. ورغم هذا الإيمان فإن إبراهيم كان يريد أن يعرف ما الذي تحتاج إليه ذريته للحفاظ على نفسها، فأمره بالتضحية بمجموعة من البهائم والطير، ليعرف مختلف القرابين التي ينبغي تقديمها في

---

(١) عهد القطع:
بعد وقت قصير من الحرب، أظهر الله نفسه لأبراهام لتهدئة ضميره من إراقة دماء الأبرياء، لكون الاضطراب قد سبب له الكثير من عذاب الروح. فأكد الله له في الوقت نفسه أنه سيظهر رجال أتقياء بين ذريته، مثله، من شأنهم أن يكونوا درعاً في أجيالهم. (نص مترجم عن النسخة الإنجليزية للهاجادة *Louis Ginzberg* ١٩٠٩: ترجمة المؤلف)

(٢) وزيادة في التفضيل، فإن الله أعطاه أن يسأل ما يريد، وهي نعمة نادراً ما تمنح لأحد، ما عدا يعقوب وسليمان، وأحاز والمسيح. فتكلم إبراهيم قائلاً: «يا رب العالمين، وإذا كان أحفادي سيثيرون غضبك في المستقبل فالأفضل لي أن أعيش عقيماً. فمن أجل لوط رحلت بعيداً عن دمشق، حيث كان الله حافظي، وسيكون من دواعي سروري أن يكون وارثي. إضافة إلى ذلك، فقد قرأت في النجوم، أن أبراهام، لن يولد له أطفال. (الهجادة: ترجمة المؤلف).

(٣) «وعندها أصعد الله أبراهام فوق قبة السماء، وقال له: «أنت نبي، ولست منجماً»؛ ولم يسأل أبراهام آنئذ أي آية على أنه سوف ينعم بذرية. ودون أن يضيف كلمة أخرى، آمن بالرب، فجزاه الله على إيمانه التلقائي بنصيب في هذا العالم، ونصيب في العالم الآخر كذلك، وإلى جانب هذا، فإن عودة إسرائيل من المنفى ستكون جزاءً على ثقته القوية بالله.

المعبد للتكفير عن الخطايا والحصول على مزيد من العناية، فسأله عما يعملون بعد تدمير المعبد، فقال له: «يحافظون على قراءة أمر القرابين فتحسب لهم كأنهم قدّموها، وأغفر لهم جميع خطاياهم، ثم ربط له بين الذبائح والسلطات القائمة، بابل والإغريق والفرس والإسماعيليين، وإسرائيل هي الحمامة البريئة[١]. فأخذ إبراهيم الحيوانات وشقها من الوسط، ولم يشق الطيور، ووضع شطور القطع بعضها مقابل بعض، فعادت الحيوانات إلى الحياة وحلقت الطيور في السماء[٢]. وبينما إبراهيم يعد الذبائح وقع عليه سبات عميق، ورأى دخان نار جهنم التي أعدت للآثمين، ورأى مشعل نار وحي سيناء، ورأى القرابين تحمل من طرف بني إسرائيل، وحل عليه رعب مع ظلمة شديدة، إنها سيطرة الممالك الأربع، وقال له الله إن لليهود خيارين فإما

---

(١) ولكن على الرغم من أنه يعتقد أن الوعد الذي قطعه له الله كامل وبإيمان راسخ، فقد كان المطلوب أن يعرف حتى الآن ما الذي تحتاجه ذريته لتحافظ على نفسها. ولذلك أمره الله بالتضحية ببقرة ثلاثية ومعزة ثلاثية، وكبش ثلاثي، ويمامة وحمامة، وهو ما يبيّن لأبراهام مختلف القرابين التي ينبغي تقديمها في المعبد في كل مرة، للتكفير عن خطايا إسرائيل ومزيد من العناية بها. وسأل إبراهيم «ولكن ما الذي سوف يحدث لذريتي بعد تدمير المعبد؟» فأجاب الله قائلاً: «إذا كانوا يقرأون أمر القرابين كما هي في الكتب المقدسة، فسأحتسبها لهم كما لو أنهم قدموها فعلاً، وأغفر لهم جميع خطاياهم». ثم كشف الله لإبراهيم مسار تاريخ إسرائيل، وتاريخ العالم كله: فبقرة ثلاث سنوات تشير إلى سيطرة بابل، وماعز ثلاث سنوات يقف لإمبراطورية الإغريق، وكبش ثلاثة سنوات لسلطة ميدو الفارسية، وسيادة إسماعيل تمثلها اليمامة، وإسرائيل هي الحمامة البريئة.

(٢) فأخذ أبراهام هذه الحيوانات وشقها من الوسط. ولو أنه لم يفعل ذلك، فإن إسرائيل لن تكون قادرة على مقاومة قوة الممالك الأربع. لكن الطيور لم يشقها، ليدل على أن إسرائيل سوف تظل كاملة. وسقطت الطيور الجارحة على الجثث، ومنعها أبراهام. وهكذا أعلن عن مجيء المسيح، الذي يجعل الأوثان جذاذاً، ولكن أبراهام جعل المسيح ينتظر إلى الوقت المعيّن له. ولأن الوقت المسيحي كان معلوماً لدى أبراهام، وكذلك وقت قيامة الموتى. فعندما وضع شطري القطع بعضها مقابل بعض، عادت الحيوانات إلى الحياة ثانية وحلقت الطيور.

أن يلتزموا بدراسة التوراة وخدمة المعبد، وإما ينالون نار جهنم أو تسلط الغرباء. وإذا اختاروا الخيار الأول فلن يصل إليهم شيء، وإن اختاروا الخيار الثاني فعليهم أن يختاروا بين عذاب جهنم عند الله أو تسلط الغرباء في الدنيا، فاختار إبراهيم تسلط الغرباء في الدنيا[١]. عندها أعلمه الله بالاستعباد الذي سيكون لبني إسرائيل في مصر أربعمئة سنة، وأعلمه بتسلط الممالك الأربع، وأن الله بعد ذلك سيعاقب هذه الممالك ويدمرها[٢].

هذه قراءة أخرى لنفس النص، تحمل أبعاداً دينية مهمة، وتعيد للنص الأول كثيراً من معانيه التي فقدها بسبب الروح العنصرية البغيضة؛ فإبراهيم ليس طالب دنيا، ولا همّه الدنيا دون الآخرة، ولا رغبته في الاستيلاء على أراضي الناس وطردهم منها وإسكان ذريته مكانهم، وفي هذا النص نجد

---

(١) بينما كان يعد أبراهام هذه القرابين، رأى رؤيا عظيمة. غربت الشمس، واستغرق في نوم عميق، فرأى دخان نار جهنم، النار التي أعد الله للآثمين، ورأى مشعل نار، وحي سيناء، حيث شهد كل الناس المشاعل المشتعلة؛ ورأى القرابين تحمل من قبل إسرائيل؛ ورعب مع ظلمة شديدة حلت عليه، إنها سيطرة الممالك الأربع. وقال الله له: «يا أبراهام لطالما يلتزم أبناؤك بواجبي دراسة التوراة والخدمة في المعبد، وهما الواجبان، فجهنم وتسلط الغرباء لن يصل إليهم؛ ولكن إذا أهملوا هذين الواجبين، سيكون عليهم أن يعانوا من عقوبتين اثنين؛ وليس لهم إلا اختيار ما إذا كانوا سيعاقبون عن طريق جهنم أو عن طريق تسلط الغريب عليهم». فظل أبراهام طيلة اليوم حيران، حتى قال الله له: «كم ستظل حائراً بين الرأيين؟ لتقرر واحداً من اثنين، فليكن تسلط الغريب!».

(٢) عندها أعلمه الله بعبودية إسرائيل في مصر لمدة أربعمئة سنة، والحساب من ولادة اسحق، لأن أبراهام قد وعد بأن يلحق بآبائه في سلام، ولن يمسه شيء من غطرسة الغريب الظالم. وفي الوقت نفسه، فقد كان معلوماً أن والد أبراهام تراح سيكون له نصيب في العالم الآخر، لكونه قام بالتكفير عن أفعاله الآثمة. إضافة إلى أنه قد أوحي إليه أن ابنه إسماعيل سيتحول إلى الطريق القويم، بينما والده كان لا يزال على قيد الحياة، وحفيده عيسو لن يبدأ طريقته المنحرفة في الحياة حتى يكون هو نفسه قد وافته المنية. وعندما تلقى وعداً بخلاصهم جميعاً مع الإعلان عن عبودية ذريته، في أرض ليست لهم، أعلمه الله بأنه سيحاكم الممالك الأربع ويدمّرها.

حديثاً مهماً عن الدين والآخرة، فإبراهيم نبي وليس منجّماً، وهو يرجو أن ينال نصيباً في الدنيا ونصيباً في الآخرة، وذريته التي ستسخط الله أو تغضبه لا حاجة له بها، وهمّه كيف تحفظ ذريته نفسها في مستقبل أيامها في الدنيا والآخرة، وكيف تعتني بنفسها وتنجو من تسلط الغرباء ومن عذاب جهنم الذي خصص للآثمين؛ وأما الذبائح التي قدمها إبراهيم، ففي القراءة الأولى فهي آية على استيلاء بني إسرائيل على أراضي الشعوب التي يعيشون بينها، والمعجزة فيها أن عموداً من الدخان والنار مر بين القطع؛ وفي القراءة الثانية فهي آية على كيفية حفظ بني إسرائيل لنفسهم من الانحراف عن دراسة التوراة وخدمة المعبد، والنجاة من تسلط الغرباء ونار جهنم، وفي هذه القراءة تعاد للحيوانات المقطعة الحياة وتحلق الطيور في السماء فتدل على ما ينبغي أن تدل عليه؛ وإن مزيداً من المدارسة المتدبرة بين القراءتين لتكشف لنا عن جوانب كثيرة جداً في موضوع اليوم الآخر عند اليهود.

وأنتقل إلى قراءة ثالثة لنفس القصة، هذه المرة من القرآن الكريم، حيث يتلوها علينا تلاوة جديدة، تحاول أن تُجرّد القصة من الملابسات التاريخية التي لحقت بها سواء في القراءة الأولى أو القراءة الثانية أو غيرهما من القراءات. وتقدّم لنا من خلالها اقتراحاً مهماً يحتاج منا لشيء من التدبر والمدارسة.

نعم لقد كان هناك حوار بين الله وربه، ولكن ليس في شأن النسل ولا الأرض ولا الوعد بالأرض، وإنما في أمر أهم من ذلك بكثير، إنه أمر إحياء الموتى؛ فإبراهيم صاحب الرشد كثير الأسئلة في موضوع الاعتقاد، كانت له مشاكل كثيرة مع أبيه وقومه وملكه أدت به إلى أن كاد يفقد حياته في النار لولا أن الله نجاه منها؛ فالحياة بعد الموت لغز محيّر، وهو يريد معرفة بعض أسراره، ولذلك سأل ربه: ربّ أرني كيف تحيي الموتى؟، فهو لا يريد الخبر فقط، بل يريد أن يرى كذلك، فكان الردّ الإلهي عن سبب هذا السؤال: هل

بسبب عدم الإيمان؟ أو النقص في الإيمان أم ماذا؟ فكان الجواب الإبراهيمي أنه الرغبة في الزيادة في الإيمان والاطمئنان: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾؛ وهنا يأتي الجواب الإلهي دعوة إلى العمل التجريبي في أبسط مفرداته، ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ (سورة البقرة)، وحتى يقوم بهذه العمليات على بساطتها، فعليه أن يصعد إلى جبال متعددة ليجعل على كل واحد منها جزءاً من الطير، يصعد وينزل واحداً بعد واحد، حتى يوزع كل الأجزاء، ثم يأتي ليدعوها فتأتيه سعياً إليه بإذن الله، وهي تجربة مهمة تجعل إبراهيم يدرك القدرة الإلهية على بعث الحياة في قطع ميتة يبعد بعضها عن بعض بأميال عديدة، فتحيا وتطير.

إن آية إبراهيم كما تلاها علينا القرآن الكريم تصدق ما جاء في الكتاب المقدس في شأنها، ولكنها في نفس الوقت تبيّن ما أراد المنكرون للبعث أو الحساب أو اليوم الآخر كتمانه، وتبيّن ما ألبسوا فيه الحق بالباطل وكتموا الحق وهم يعلمون، لأنه لا يتماشى مع عنصريتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان.

إن الرجوع إلى النصين السابقين ومقارنتهما بالنص القرآني ليكشف لنا أن البعد الغيبي وخصوصاً الآخرة فيه قد حاول المنكرون له كتمانه، ووضع مفاهيم أخرى محله ونسبتها إلى الله عز وجل، ولكن البحث والدراسة والمقارنة تبيّن كل محاولات التزوير والتحريف الفاشلة، كما تكشف الأخطاء التي يقع فيها الكتاب والرواة، والإضافات التي يضعها النساخ أو الشراح والمفسرون وغيرهم، عن قصد أو عن خطأ، وبالمقارنة نستطيع معرفة العوامل الإنسانية المؤثرة في تدوين النصوص وترجمتها وتوثيقها وغير ذلك.

كما أن هذه المقارنة تجيب عن سؤال محوري لم يجد بعد الإجابة الوافية

عنه، وهو قولهم إن القرآن الكريم قد أخذ من كتب اليهود والنصارى القانونية والأبوكريفا وصاغها بلسان عربي؟ والصحيح أن للقرآن الكريم قراءة جديدة عميقة لما جاء في الكتب المقدسة يصدق الحق الموجود فيها ويؤكده، ويبين الدخيل المرتبط بالأحوال الخاصة للناس في الأزمنة المختلفة ويردّه إلى قائليه؛ نفس الأمر يمكن تطبيقه على البعث واليوم الآخر في الكتب المقدسة، فهو أصيل جاء به الأنبياء جميعاً، وهو منصوص عليه بكثرة ودقة في كل الكتب المقدسة، وكان كل نبي يعيد له الاعتبار بعد أن يكون الناس قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وتركوه، ولم يظهر في زمن معيّن متأخر كما ذكره لنا الدارسون الذين يقرأون الكتب في ترتيبها التاريخي، منطلقين من فرضية أن الوحي والدين نتاج اجتماعي يعبّر عن تطور الفكر البشري؛ بل هناك أسس خالدة أوحى الله بها إلى رسله جميعاً، وهناك فهم وفكر وعلم ومعرفة تتطوّر عبر الزمان، ولا يفترض أن هذه الأسس الخالدة قد اكتشفها العقل البشري في تاريخ الإنسان ولم يوح بها الله في كتب الأديان.

٢ - التوحيد والشرك

ونتناوله من خلال قصة إبراهيم مع أبيه وقومه في هدم مذبح البعل وبناء بيت الله.

رغم محاولة الإخفاء البينة لموضوع التوحيد والشرك الذي تمثله قصة إبراهيم مع أبيه قبل الهجرة، في النصوص القانونية، إلا أن سفر يشوع بيّن لنا بما لا يقبل المراء أن إبراهيم قد ترك أباه وقومه وذهب إلى الأرض المباركة للعالمين هروباً من شركهم ونجاةً من كيدهم؛ وهو ما سنتعرّض له في هذه الفقرة الثانية من المبحث الأول.

لقد أفردت لنا أكثر الأسفار غير القانونية المتحدثة عن قصة إبراهيم

مجالاً للحديث عن علاقته بأبيه وقومه المشركين تماماً مثل ما فعل القرآن الكريم، خلافاً للنص الحاخامي القانوني، الذي غلب عليه الطابع المذهبي العنصري، الذي اهتم كثيراً بالعهد بالأرض واستعادة الملك ووراثة النسل الإسرائيلي له من دون العالمين؛ فغُيّب الحديث عن موضوع البعث وموضوع التوحيد والشرك الذي أفاضت فيه نصوص القصة الإبراهيمية في المصادر الأخرى كما سنراه.

جاء في «رؤيا أبراهام» حديث مهم عن مجادلة إبراهيم لأبيه في أمر الأصنام والمعبودات من دون الله؛ فبعد أن بيّن إبراهيم تفاهة الآلهة المنحوتة والمصنوعة من الحجر والخشب عندما انكسرت واحترقت، انتقل لبيان تفاهة المعبودات من جميع المخلوقات أمام الله، فقال:

«وقلت: النار أكثر جدارة بأن تعبد من الأصنام، لأن ما لا يخضع يخضع لها، وهي تسخر مما يهلك بلا عذاب في نيرانها. ولكن حتى هذه الأخيرة فإنني لا أسميها إلهاً لأنها تخضع للماء. فأكثر جدارة بالعبادة هي المياه، لأنها تنتصر على النار وتغذي الأرض. لكنها هي أيضاً لن أسميها إلهاً لأنها برشحها تحت الأرض فإنها تخضع لها. فأدعو الأرض أكثر جدارة بالعبادة لأنها تنتصر على طبيعة المياه وحجمها. لكنها هي أيضاً لن أسميها إلهاً، لأنها هي أيضاً تجف بالشمس وتخضع لعمل الإنسان. فأكثر من الأرض أدعو الشمس أكثر جدارة بالعبادة، لأنها تنير بأشعتها العالم ومختلف الأجواء. ولكن هذه الأخيرة لن أضعها بين الآلهة، لأن سيرها يعتم في الليل بواسطة السحب. وكذلك لن أسمّي القمر إلهاً ولا النجوم، لأنها هي أيضاً تعتم نورها في وقتها في الليل»[١].

---

(١) مخطوطات قمران، **التوراة المنحول**، ج٣ ص ٥٧٣.

وبعد هذا التقليب للنظر في مظاهر الطبيعة المختلفة، وجه إبراهيم وجهه وفكره وفكر أبيه ومعاصريه إلى الله رب كل شيء، قال: «فاسمع يا تراخ، يا أبي، سأفتش أمامك عن الإله الذي خلق الأشياء كلها لا عن الآلهة التي نخترعها نحن:

«فمن هو إذن، أو ما هو الذي حمّر السماوات، والذي ذهّب الشمس، الذي أعطى النور للقمر ومعه للنجوم، من الذي جفف الأرض مع وجود المياه الكثيرة، ومن الذي أقامك أنت نفسك بين البشر؟ هل يمكن لله أن يكشف نفسه بنفسه لنا؟»[1].

نجد مثل هذا النص في أدبيات يهودية كثيرة كلها تتحدث عن الرشد الإبراهيمي والمواجهة التي كانت بين إبراهيم وبين أبيه وقومه وملكه في أمر المنحوتات والمصنوعات والمعبودات من دون الله، نكتفي بما أوردناه في الدلالة عليها.

الأمر نفسه نجده في التلاوة القرآنية الجديدة التي تصدق ما بين يديها من الكتاب وتعيد الاعتبار للمعاني المخفية أو المهمشة التي كتمتها المذاهب والفرق والاتجاهات المختلفة لأسباب مختلفة؛ قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (سورة الأنعام).

---

(١) مخطوطات قمران، **التوراة المنحول**، ج٣، ص ٥٧٣.

إنه الخطاب الديني نفسه الذي حاول فريق من أهل الكتاب إخفاءه خلف أهداف أرضية وعنصرية لا علاقة لها بدين الله الذي أنزله في كتابه؛ وجاء القرآن بالنور المبين الذي يبيّن ما يخفون من الكتاب ويعفو عن كثير.

وهذا كتاب الخمسينيات يحدثنا عن الجدل بين إبراهيم وأبيه وقومه في الموضوع نفسه، قال: «وبدأ الولد يفهم ضلال الأرض. (فعرف) أن كل شيء كان يضل باتباع الصور المنحوتة والنجاسة. وعلمه والده الكتابة، (عندما كان) عمره أسبوعين من السماوات. وترك أباه لكي لا يعبد الأصنام معه، وبدأ يصلي لخالق كل شيء، لكي ينقذه من ضلال البشر، ولكي لا يكون نصيبه الذي تؤدي إليه النجاسة والدناءة»[1].

ولنستمع إلى إبراهيم وهو يحاور أباه في سفر الخمسينيات، يقول: «أبي» فأجاب هذا الأخير: «ها أنذا يا بني». فقال (أبرام): «أية مساعدة وأية فائدة لنا من هذه الأصنام التي تعبدها وتسجد أمامها. ليس فيها ثمة أيّ نفس: إنها (صور) صماء، وضلال للروح. لا تعبدها، بل اعبد إله السماء الذي ينزل المطر والندى على الأرض، والذي ينتج كل شيء على الأرض، والذي خلق كل شيء بكلمته والذي منه تصدر كل حياة. لماذا تعبدون هذه الأشياء التي ليس لها نفس؟ إنها مصنوعة بأيدي (الإنسان). إنكم تحملونها بأنفسكم على أكتافكم، إنما لا يتأتى منها أية مساعدة لكم، وفقط خجل كبير للذين يصنعونها وضلال للروح بالنسبة للذين يعبدونها. فلا تعبدوها»[2].

الخطاب الديني نفسه الوارد في هذه الأسفار هو الذي أعاد القرآن الكريم تلاوته علينا مؤكداً الحقيقة الواحدة التي جاءت بها جميع الأديان: توحيد الله وعدم الشرك به، وتأسيس الملة الإبراهيمية الحنيفة على يد أبينا إبراهيم؛ قال

(١٠٨ **الخمسينيات**، مخطوطات قمران، ج٢، ص ١٩٨.

(١٠٩ **الخمسينيات**، مخطوطات قمران، ج٢، ص ١٩٨.

تعالى، وقد كرّر مثل هذا الكلام بأساليب مختلفة، في غير ما موضع من القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (سورة الصافات).

وقال عز وجل في نفس الموضوع: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (سورة الأنبياء).

ينذر إبراهيم نفسه لمجاهدة الشرك والدعوة إلى التوحيد إلى أن يضيق أبوه وقومه به ذرعاً بعد أن سفّه أحلامهم وبخس أصنامهم؛ وتحدثنا أسفار متعددة عن الموقف الذي اتخذه قومه اتجاهه، نذكر منه ما ورد في كتاب الخمسينيات في مناسبة هجرة إبراهيم، حيث نسمعه يقول في صلاته: «إلهي أيها العلي إلهي، أنت وحدك إلهي. أنت من خلق الأشياء كلها، وكل ما هو موجود هو من صنع يديك. إنك أنت، (إنها) ألوهتك التي اخترتها. أنقذني من ضر الأرواح الشريرة التي تحكم أفكار القلب البشري فلا تضل هذه الأفكار بعيداً عنك يا إلهي. ثبتني، أنت نفسك، أنا وذريتي إلى الأبد، فلا نضل منذ الآن وإلى الأبد. إنني أتساءل إذا كنت سأعود إلى أور إلى عند الكلدانيين الذين يحاولون إعادتي، أم إذا كنت سأبقى هنا في هذا المكان. ألا اجعل لخادمك صراطاً مستقيماً ساراً أمامك، فيمضي فيه ولا أمشي متبعاً ضلال قلبي، آه يا إلهي»[١].

---

(١) **الخمسينيات**، مخطوطات قمران، ج٢، ص ٢٠٠.

«وعندما انتهى من الكلام والصلاة، وجهت إليه كلمة من الرب عبر وساطتي: «اترك بلدك، وعائلتك وبيت أبيك إلى بلد سأدلك عليه، وسأجعل منك أمة كبيرة وكثيرة. سأباركك وأجعل منك اسماً عظيماً. ستكون مباركاً على الأرض، وبك ستتبارك شعوب الأرض كلها. سأبارك مباركيك وألعن الذين سيلعنونك. وسأكون إلهك، لك ولابنك ولابن ابنك ولذريتك كلها. فلا تخش شيئاً بعد الآن، على مدى أجيال الأرض، فإنني إلهك»[١].

إن خروج إبراهيم من أرضه وعشيرته وبيت أبيه كان بسبب الاختلاف في المعتقد، وبسبب مجاهدة إبراهيم لأبيه وقومه وملكه في موضوع الشرك والتوحيد؛ وتذكر لنا أسفار أخرى أن المواجهة بلغت إلى حد إلقائه في النار وإنجاء الله له منها؛ فقد جاء في الآثار التوراتية: «قام أبرام في الليل وأشعل منزل الأصنام. أحرق كل ما كان يوجد فيه، ولم يره أحد. وقام (الآخرون) في الليل وحاولوا إنقاذ آلهتهم. وأسرع حران لنجدتهم فاشتعلت النار فيه فاحترق ومات في أور الكلدانيين. وترك تراخ أور الكلدانيين ، هو وأبناؤه، وذهب قاصداً بلد لبنان وبلد كنعان. وأقام في بلد حران. وأقام أبرام مع تراخ أبيه في بلد حران تسعة أسابيع من السنوات»[٢].

ورغم محاولة إخراج أبي إبراهيم معه في هذا النص إلا أن موضوع اعتداء إبراهيم على معبد قومه سواء بالإحراق كما ورد في هذا النص، أو بكسر الأصنام أو هدم المعبد كما ورد في نصوص أخرى، كان موضوعاً أساسياً من مواضيع الاعتقاد سجلته الآثار والكتب اليهودية، ولا يزال كثير من تفصيلاته في كتب قانونية، بدّلت فقط اسم إبراهيم بأسماء أخرى منها

---

(١) **الخمسينيات**، مخطوطات قمران، ج٢، ص ٢٠٠.

(٢) **الخمسينيات**، مخطوطات قمران، ج٢، ص ١٩٩.

«جدعون»، واحتفظت بمضامين القصة كما هي، ومن ذلك قصة جدعون الذي طلب منه الإله أن يهدم مذبح البعل ويبني بيت الله:

«فَبَنَى جِدْعُونُ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَاهُ «يَهْوَهَ شَلُومَ». إِلَى هَذَا الْيَوْمِ لَمْ يَزَلْ فِي عَفْرَةِ الأَبِيعَزَرِيِّينَ. (٢٥) وَكَانَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَنَّ الرَّبَّ قَالَ لَهُ: «خُذْ ثَوْرَ الْبَقَرِ الَّذِي لأَبِيكَ، وَثَوْراً ثَانِياً ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ، وَاهْدِمْ مَذْبَحَ الْبَعْلِ الَّذِي لأَبِيكَ وَاقْطَعِ السَّارِيَةَ الَّتِي عِنْدَهُ، (٢٦) وَابْنِ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ إِلَهِكَ عَلَى رَأْسِ هَذَا الْحِصْنِ بِتَرْتِيبٍ، وَخُذِ الثَّوْرَ الثَّانِيَ وَأَصْعِدْ مُحْرَقَةً عَلَى حَطَبِ السَّارِيَةِ الَّتِي تَقْطَعُهَا. (٢٧) فَأَخَذَ جِدْعُونُ عَشَرَةَ رِجَالٍ مِنْ عَبِيدِهِ وَعَمِلَ كَمَا كَلَّمَهُ الرَّبُّ. وَإِذْ كَانَ يَخَافُ مِنْ بَيْتِ أَبِيهِ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ نَهاراً فَعَمِلَهُ لَيْلاً. (٢٨) فَبَكَّرَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فِي الْغَدِ وَإِذَا بِمَذْبَحِ الْبَعْلِ قَدْ هُدِمَ وَالسَّارِيَةُ الَّتِي عِنْدَهُ قَدْ قُطِعَتْ، وَالثَّوْرُ الثَّانِي قَدْ أُصْعِدَ عَلَى الْمَذْبَحِ الَّذِي بُنِيَ. (٢٩) فَقَالُوا الْوَاحِدُ لِصَاحِبِهِ: «مَنْ عَمِلَ هَذَا الأَمْرَ؟» فَسَأَلُوا وَبَحَثُوا فَقَالُوا: «إِنَّ جِدْعُونَ بْنَ يُوآشَ قَدْ فَعَلَ هَذَا الأَمْرَ». (٣٠) فَقَالَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لِيُوآشَ: «أَخْرِجِ ابْنَكَ لِنَقْتُلَهُ، لأَنَّهُ هَدَمَ مَذْبَحَ الْبَعْلِ وَقَطَعَ السَّارِيَةَ الَّتِي عِنْدَهُ». (٣١) فَقَالَ يُوآشُ لِجَمِيعِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهِ: «أَنْتُمْ تُقَاتِلُونَ لِلْبَعْلِ، أَمْ أَنْتُمْ تُخَلِّصُونَهُ؟ مَنْ يُقَاتِلْ لَهُ يُقْتَلْ فِي هَذَا الصَّبَاحِ. إِنْ كَانَ إِلَهاً فَلْيُقَاتِلْ لِنَفْسِهِ لأَنَّ مَذْبَحَهُ قَدْ هُدِمَ». (٣٢) فَدَعَاهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ «يَرُبَّعْلَ» قَائِلاً: «لِيُقَاتِلْهُ الْبَعْلُ لأَنَّهُ قَدْ هَدَمَ مَذْبَحَهُ»(١١٥).

لم تتحدث لنا القصة عما فعله قوم جدعون بهذا الفتى الذي هدم معبدهم مع أنهم كانوا يبحثون عنه ليقتلوه؛ وإنما طلبوا من أبيه أن يقدمه لهم ليقتلوه، فبدا أبوه موحّداً (رغم أنه صاحب المعبد المهدوم) يدافع عنه ويحج قومه

---

(١) سفر القضاة ٦/ ٢٤-٣٢.

بكونهم يدافعون عن البعل والمفروض أن يدافع البعل عن نفسه؛ لقد أُخرجت القصة من سياقها الإبراهيمي لتدخل في سياق قصة يهودية لا علاقة لها بها.

لكننا إذا رجعنا إلى كتاب الآثار التوراتية، فسنجد موضوع إحراق إبراهيم بارزاً؛ ففي معرض الحديث عن بناء البرج بالحجارة المشوية المكتوب عليها أسماء أصحابها؛ حيث «أخذ كلّ حجره، باستثناء اثني عشر رجلاً رفضوا أخذ الحجارة. وتلك هي أسماؤهم: أبرام وناشور ولوث وتنوت وزابا وأرمودات ويوباب وإيسار وأبيماحل وسابا وأوسين. وأمسك بهم شعب الأرض وقادهم ليمثلوا أمام رؤسائه وقال لهم: «إنهم الرجال الذين خرقوا قراراتنا، والذين لا يريدون السير في طرقنا». فقال لهم الرؤساء: «لماذا لم تريدوا أن يضع كل منكم حجارتكم مع شعب الأرض؟» فأجابه هؤلاء قائلين: «لن نضع حجارتنا معكم ولن نضم إرادتنا على إرادتكم. فنحن لا نعرف سوى إله واحد، وهو الذي نعبده. وحتى لو وضعتمونا في النار مع حجارتكم فلن نوافقكم»[1].

يقرر الحاكم سجن الرجال الاثني عشر إلى أن يلقيهم في النار، غير أن مساعده المؤمن سيعمل على تهريبهم بدعوى أنهم كسروا باب السجن وهربوا ولحق بهم مئة من الرجال للقبض عليهم، ولم يبق في السجن إلا إبراهيم وحده، لأنه لم يرد أن يهرب. «عندها قالوا له: «فلنحرق إذن هذا الذي وجدناه» وأخذوه وقادوه إلى رؤسائهم. وقالوا له: «أين هم الذين كانوا معك؟» وقال: «كنت نائماً بعمق في الليل. وعندما استيقظت لم أجدهم». وأخذوه وبنوا أتوناً وأشعلوا النار فيه. ورموا في الأتون الحجارة المحرقة بالنار. وعندها أخذ يكتام الذي أذابه الألم أبرام ورماه في الأتون مع الآجر.

---

(١) **الآثار التوراتية**، مخطوطات قمران، ج٣، ص ١٩٩.

لكن الله حرض هزة أرضية عنيفة وأفلتت النار من الأتون في شعلات وشرارات من الشعلات وأحرقت جميع الذين كانوا حول وأمام الأتون (. . .) أما أبرام فلم يصب ولو بجرح بسيط بسبب حرق النار. وقام أبرام من الأتون وذاب أتون النار. وهكذا أنقذ أبرام»[1].

هكذا حكى لنا كتاب **الآثار التوراتية** قصة نجاة إبراهيم من النار.

نفس القصة أعاد القرآن الكريم تلاوتها علينا محتفظاً بكل أبعادها الدينية والإنسانية، حيث يقول تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨)﴾ (سورة الصافات)؛ وقال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩) قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾ (سورة الأنبياء).

---

(١) **الآثار التوراتية**، مخطوطات قمران، ج٣، ص ٢٠٠.

كان القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومعيداً لأربعين في المئة من المعاني المخفية من قصة إبراهيم والمبعدة عن الكتب القانونية؛ وكانت التلاوة القرآنية تستحضر جوانب أساسية من الدين غُيّبت في التقليد اليهودي، على رأسها موضوع التوحيد وموضوع البعث كما رأيناه في هذا المبحث. وتستبعد في المقابل موضوع النسب والعنصرية والأرض الذي أدى إلى جعل أبي إبراهيم هو الذي يخرج بابنه من أرضه، وهو ما أبطله القرآن كما أبطلته نصوص يهودية من قبل؛ منها ما ورد في دعوة إبراهيم إلى الخروج من أرضه وعشيرته وبيت أبيه في سياق النجاة من العذاب الذي سيحل ببيت أبيه، قال: «وحصل أنني بينما كنت أحدث والدي هكذا في باحة بيته، سقط صوت القدير من السماء في سيل من النار، قائلاً ومنادياً: «أبراهام، أبراهام» فقلت: «هاأنذا»، فقال: «إنك تبحث عن رب الأرباب والخالق في ذكاء قلبك. إنه أنا. اخرج من عند أبيك تراخ ومن بيته، حتى لا تقتل أنت أيضاً بخطايا أبيك». فخرجت، وحصل أنني خرجت ولم يكن لديّ الوقت حتى أجتاز باب الباحة. فجاء صوت حرق أبي وبيته وكل ما كان في بيته على عمق أربعين ذراعاً»[1].

المرحلة الثانية: هجرة إبراهيم

يمثل الجزء الثاني من حياة إبراهيم الخليل ٦٠ في المئة من حديث القرآن الكريم، بينما يمثل ما يناهز ٩٨ في المئة من حديث النص التوراتي الحاخامي؛ ويبدأ من خروج إبراهيم من أرضه وعشيرته وبيت أبيه.

بدأ الحديث عن هذا الموضوع في أسفار العهد القديم منذ الإصحاح

(١) مخطوطات قمران، **التوراة المنحول**، ج٣، ص ٥٧٣.

الثاني عشر من سفر التكوين، منذ أن أمر الله إبراهيم بالخروج من بيت أبيه؛ حيث قال له: «(١٢) وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أرضك وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أبيك إلى الأرض الَّتِي أريكَ. (٢) فأجعلك أُمَّةً عَظِيمَةً وأباركك وأعظم اسْمَكَ وَتَكُونَ بَرَكَةً. (٣) وأبارك مُبَارِكِيكَ وَلاعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأرض». (٤) فَذَهَبَ أبرام كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أبرام ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. (٥) فَأَخَذَ أبرام سَارَايَ امرأته وَلُوطاً ابْنَ أخيه وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إلى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوا إلى أَرْضِ كَنْعَانَ. (٦) وَاجْتَازَ أبرام فِي الأرض إلى مَكَانِ شَكِيمَ إلى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأرض. (٧) وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أعطي هَذِهِ الأرض». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. (٨) ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إلى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلٍ وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتُ إِيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَايُ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ. (٩) ثُمَّ ارْتَحَلَ أبرام ارْتِحَالاً مُتَوَالِياً نَحْوَ الْجَنُوبِ»(١).

لقد رأينا في ما سبق كيف أن الأسفار القانونية أغفلت موضوع الشرك الذي كان عليه أبوه وقومه وملكه، وأغفلت دعوة إبراهيم إلى التوحيد ومجادلته لقومه واحتجاجه عليهم حتى كسر أصنامهم فقرروا إحراقه بالنار فأنجاه الله منها؛ كما رأينا أن خروجه عليه السلام من أرضه إنما كان بسبب ذلك.

وسنرى في ما يلي هجرة إبراهيم؛ التي يظهر أنها هجرة عادية، وإن كانت بأمر من الله؛ يتنقل فيها إبراهيم من مكان إلى مكان، فها هو يجتاز في شكيم إلى بلوطة مورة، ثم يبني مذبحاً هناك؛ ثم ينتقل من هناك إلى الجبل شرقي

---

(١) سفر التكوين، إصحاح ١٢، عدد ١-٩.

بيت إيل حيث ينصب خيمته، ويبني هناك مذبحاً للرب ويصلي هنالك ويدعو باسم الرب، ثم يرتحل ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب.

إنها هجرة مليئة بالتنقل والترحال، بحثاً عن الأرض الموعودة، التي لم يستقر بها إبراهيم أبداً؛ والتي كان دائماً يسعى للحصول عليها؛ ورغم الصلاة والذبح والدعاء والبركة في هذه الأماكن لم تأخذ أبعاداً قدسية، وكانت صورة إبراهيم دائماً هي صورة البدوي المتنقل الباحث عن مكان الاستقرار المؤقت في أرض الأغيار.

مقابل هذه الصورة المهتزة لإبراهيم المرتحل، يقدّم لنا القرآن الكريم صورة جديدة تربط إبراهيم بأرض القداسة وتجعله إماماً للعالمين من أجل مباركتهم في عهد أبدي بينه وبين ربه وبين ذريته غير الظالمين من بعده، بناءً على نجاحه في الامتحانات التي كانت من قبل، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (سورة البقرة).

لقد عالجت هذه المقاطع موضوع عهد إبراهيم مع ربه؛ إذ جعله بنو إسرائيل عهداً بالأرض إلى النسل والذرية، التي هي الشعب المختار؛ وكان الجواب القرآني بأن هذا العهد إنما هو عهد بالإمامة الدينية في بيت الله، وهو عهد لا ينال الظالمين، وإنما من شروطه البر والإحسان والقيام بشعائر الله وشرائعه في المكان الذي اختاره؛ وإننا بتأملنا للنص التوراتي المؤسس في هذا الموضوع، والذي اطلعنا عليه سابقا لنكتشف هذا الشرط في ثنايا الأمر الإلهي لإبراهيم بالخروج؛ إذ قال له: اترك أرضك وعشيرتك وبيت أبيك، واذهب إلى الأرض التي أريك، «(٢) فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ

(١٢٣ سورة الأنبياء ٧١.

وَأعَظِّمَ اسْمَكَ وَتَكُونَ بَرَكَةً. (٣) وَأبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَلاعِنَكَ ألْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأرْضِ». فغاية الخروج هي نشر البركة في الأرض ومباركة جميع قبائلها وأممها، ولن يتأتى ذلك إلا بالبر والإحسان إلى الجميع لا بالحرب والطرد والسرقة والعدوان على الأمم الأخرى لحساب شعب واحد مختار؛ قال تعالى في شأن المكان الذي هاجر إليه إبراهيم ولوط: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ (سورة الأنبياء).

لم يكن خروج إبراهيم بعد أن نجح في ابتلاءات التوحيد والدين من أجل امتلاك الأرض وجمع الدنيا، وإنما كان من أجل حمل رسالة إنسانية عالمية، لخصها الكتاب المقدس والقرآن الكريم في لفظ البركة؛ حيث سيبني إبراهيم في هذه الأرض التي هاجر إليها بيت الله العالمي، ومنه ستنطلق البركة إلى جميع أمم الأرض؛ وإننا بالتأمل في نص سفر التكوين لندرك ذلك إذ يقول: «واذهب إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة، وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض». إن البركة التي سيحصل عليها إبراهيم ويعطيها لجميع قبائل الأرض إنما توجد في هذا المكان الذي اختاره الله له، ليكون إماماً فيه، يقصده الناس من أجل الحصول على البركة. وهو ما بيّنه القرآن الكريم في الآية السابقة وسنراه في نصوص أخرى كثيرة.

إن أول عمل قام به إبراهيم عندما وصل إلى الأرض المعلومة هو بناء بيت للعبادة في هذا المكان المختار، وهو ما رأيناه في نص الهجرة والخروج، قال: «(٧) وَظَهَرَ الرَّبُّ لأبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أعطي هَذِهِ الأرض». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. (٨) ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إيلٍ وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتُ إيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَايُ مِنَ

الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ. (٩) ثُمَّ ارْتَحَلَ أَبْرَامُ ارْتِحَالاً مُتَوَالِياً نَحْوَ الْجَنُوبِ»[١].

لقد حدد له الرب مكان بناء مذبح للرب؛ وعبارة بناء مذبح للرب في التعبير الكتابي تعني معنيين، الأول بناء بيت للعبادة، والثاني إقامة شعيرة العبادة في المعبد أو المذبح؛ حيث إن المذبح يبنى من أجل أن توضع عليه الذبيحة المحرقة؛ وما دام النص يكرر هذا الأمر فهو يقصد المعنيين معاً؛ فإبراهيم قد بنى بيتاً للعبادة في المكان الذي اختاره الله بعد أن لم يكن، ثم أقام في هذا البيت شعائر العبادة بما فيها الذبائح المطلوبة.

انتقال إبراهيم إذاً في هذا المكان لم يكن ارتحالاً كارتحال البدو الرحل بحثاً عن الماء والكلإ كما يوهم النص؛ وإنما كان ارتحالاً من أجل أداء المناسك التي يحتاج إبراهيم إلى تعلمها لتعليمها للعالمين الذين سيأتون إليه من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم؛ وهنا يأتي النص القرآني ليشرح لنا هذا الأمر ويخرجنا من الالتباس الحاصل في الموضوع، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (سورة البقرة)

---

(١) سفر التكوين، إصحاح ١٢، عدد ١-٩.

لقد حددت هذه المقاطع من سورة البقرة جوانب كثيرة كانت مبهمة في النص الكتابي؛ فالمكان الذي هاجر إليه إبراهيم هو بيت الله، وهو مقام إبراهيم الذي أقام فيه، وهو الذي جعله الله مصلى للناس جميعاً، وأمر الله الناس بالذهاب إليه، وجعله آمناً؛ وكان عهد الله مع إبراهيم وابنه إسماعيل أن يقوما بخدمة حجاجه، بعد أن قاما في البدء ببنائه ورفع قواعده؛ كما أن من المهام المعهودة إليهما فيه أن يقيما فيه الشعائر والمناسك ويعلماها للناس الذين يحجون إليه ويباركانهم ويدعوان لهم.

التلاوة القرآنية إذاً جعلت من إمامة بيت الله الحرام وتطهيره وخدمة الحجاج فيه ومباركتهم هي العهد الذي بين إبراهيم وربه وهي العهد الذي لا ينال الظالمين من ذريته.

نفس الأمر تحدثت عنه سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (سورة آل عمران).

إننا في هذا المبحث سنركز على مسألة بيت الله كما وجهنا القرآن الكريم إلى مدارستها مع أهل الكتاب من خلال كتابهم؛ إن القرآن الكريم يؤكد أن بيت الله الحرام هو أول بيت وضع للناس، وهو الذي ببكة، بناه إبراهيم وإسماعيل، وقاما عليه بالتطهير والخدمة وتعليم المناسك والأذان والصلاة والدعاء والمباركة، وهو العهد الذي بين الله وإبراهيم وذرية إبراهيم من بعده.

وسنعالج هذا الموضوع في الكتاب المقدس من خلال فقرتين:

الأولى تتعلق بترجمة بيت إيل في سفر التكوين؛ والثانية تتعلق بمضامين بيت الله في هذا السفر.

١- بيت الله الحرام وألاعيب الترجمة

ذكرت عبارة «بيت إيل» اثنتي عشرة مرة في سفر التكوين، وعدداً كبيراً من المرات في أسفار العهد القديم الأخرى، لكنها كانت تترك دائماً على أصلها «بيت إيل» دون أن تترجم لفظة «إيل» العبرية فيها إلى «الله» أو «إله» بالعربية، لتصير «بيت الله» أو «بيت الإله»، خلافاً لما نجده مثلاً بالنسبة للفظة «يهوه»، التي تترجم عادة بـ«الرب»، ومنها «بيت يهوه» الذي يترجم دائماً بـ«بيت الرب». وسبب رفض المترجمين لترجمة «بيت إيل» بـ«بيت الله» هو عدم اعتراف كهنة بني إسرائيل بأن هذا المكان مكان مقدس، رغم أن الآباء الكبار والأنبياء العظام قد حجوا إليه من أجل العبادة وإقامة الشعائر؛ وذلك لأن أئمته لم يكونوا من بني لاوي ولا من بني هارون، بخلاف «بيت يهوه» الذي يؤمّه الكهنة اليهود، ولذلك جعلوا الثاني بيتاً للرب ولم يجعلوا الأول بيتاً لله، مع أن «يهوه» تُترجم عادة بـ«الرب» و«إيل» تترجم عادة بـ«الله».

وخلاصة الملاحظات من خلال نصوص سفر التكوين الذاكرة لبيت إيل هي:

١- بيت إيل هو أول مكان خرج إليه إبراهيم بأمر من ربه، ليباركه ويبارك نسله ويجعله بركة ويبارك به جميع قبائل الأرض، وبه سيقيم هو وبنوه، وفيه سيبني بيته ويبني بيت الله ويسهر فيه على تقديم الطقوس والقرابين لله، الذي أخرجه من أرضه وعشيرته وبيت أبيه ليريه هذه الأرض المباركة للعالمين[١].

٢- بيت إيل هو المكان الذي كان يتردد عليه إبراهيم لأداء المناسك، كما فعل أول مرة[٢].

---

(١) انظر سفر التكوين، ١٢/٨.

(٢) انظر سفر التكوين، ١٣/٣-٤.

٣- يطلق يعقوب على بيت الله اسم «بيت إيل» بالعبري، لأن هذا المكان هو باب السماء، ولأنه مكان مقدس، منه تصعد الملائكة إلى السماء وتنزل إلى الأرض[١].

٤- وفي بيت إيل أقام يعقوب مع لابان عمود ورجمة الشهادة، التي سيطلق عليها اسم «جلعيد»، وتبقى شاهدة على العهد الذي بينهما إلى يوم الراوي[٢].

٥- وإلى بيت إيل يصعد يعقوب وكل عائلته لأداء طقوس الحج لله، في المكان الذي اختاره الله[٣].

٦- وفي بيت إيل تدفن دبورة مرضعة رفقة تحت ما ترجموه بـ«البلوطة» إلى العربية، ويمكن ترجمته بالسهل أو الحقل، ودُعي اسم المكان «إيلون باكوت» أي «سهل بكة» أو «حقل بكة»[٤].

٧- ويطلق يعقوب على المكان الذي رأى فيه رؤيا بيت الله اسم «بيت إيل»[٥].

والملاحظ أن كل هذه المواضع التي ذكر فيها هذا البيت في سفر التكوين لا تفيد إلا معنى واحداً، وهو التقديس والتعظيم وأداء العبادة والشعائر لله في المكان الذي اختاره، من طرف الآباء الكبار بدءاً من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وجميع آباء بني إسرائيل؛ ولذلك فهو بيت الله الأول الذي بناه إبراهيم وأقام فيه، وكان إماماً له، يُعلّم الناس مناسكهم، ويبارك فيه

---

(١) سفر التكوين ٢٨/ ١٩.
(٢) سفر التكوين ٣١/ ١٣.
(٣) سفر التكوين ٣٥/ ١-٦.
(٤) سفر التكوين ٣٥/ ٨.
(٥) سفر التكوين ٣٥/ ١٥-١٦

جميع أمم الأرض، وهو عينه المكان المقدس الذي سار إليه إسحاق ويعقوب والأسباط وأدوا فيه المناسك، وهو الموجود بأرض بكة حيث دفنت دبورة مرضعة رفقة وغيرها من الأنبياء والصالحين من بني إبراهيم وإسرائيل.

ولهذا فإن «بيت إيل» بالعبرية لا تعني إلا «بيت الله» بالعربية وهو الموجود ببكة أو مكة، وهو مكان الحج الذي لا يزال الناس يقصدونه إلى هذا اليوم، تصديقاً لما جاء في الكتاب المقدس من أن هذه الفريضة ستكون فريضة دهرية، تقام من سنة إلى سنة، في المكان الذي اختاره الله، وإن لم يكن أئمته من بني إسرائيل.

٢- بيت الله الحرام في سفر التكوين

قبل أن نبدأ بتفصيل وتحليل ومدارسة النصوص المختلفة المتحدثة عن هذا الموضوع، لا بد من التوقف ملياً عند المكان الذي اختاره الله لهجرة إبراهيم والتعرف إلى ملامحه وإدراك خصائصه، التي تعرضت - لأسباب كثيرة - لمحاولات الكتم والإخفاء والتغيير والتزوير وإلباس الحق بالباطل؛ لكن قوة الحقيقة دائماً تغلب محاولات تغطيتها مهما طغت، فتدمغها فإذا هي زاهقة.

إن هدف إخراج إبراهيم من أرضه وعشيرته وبيت أبيه هو نشر البركة في الأرض ومباركة جميع الأمم، وهو ما نجده في الخطاب الإلهي إلى إبراهيم: «وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ وَتَكُونَ بَرَكَةً. وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَلاعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ»[1].

---

(١) سفر التكوين ١٢/١-٣.

وهو ما قام به إبراهيم فعلاً، مستجيباً لأمر ربه، وتاركاً أرضه وعشيرته وبيت أبيه وذاهباً إلى الأرض التي سيريه الله.

ويحدثنا سفر التكوين عن هذا الخروج، بقوله: «فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ وَلُوطاً ابْنَ أَخِيهِ وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إلى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوا إلى أَرْضِ كَنْعَانَ»[1].

وأول ملاحظة يمكن تسجيلها على هذا النص، هي أن حاران لم تكن أرض إبراهيم ولا أرض عشيرته ولا بيت أبيه، وإنما كانت هي المكان الذي توجه إليه إبراهيم في هجرته من أرضه وعشيرته وبيت أبيه في أور الكلدانيين، وهو ما حدثنا عنه الإصحاح الحادي عشر بقوله:

«وَأَخَذَ تَارَحُ أبرام ابْنَهُ وَلُوطاً بْنَ هَارَانَ ابْنَ ابْنِهِ وَسَارَايَ كَنَّتَهُ امرأة أبرام ابْنِهِ فَخَرَجُوا مَعاً مِنْ أور الْكِلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إلى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوا إِلَى حَارَانَ وَأَقَامُوا هُنَاكَ. (٣٢) وَكَانَتْ أَيَّامُ تَارَحَ مِئَتَيْنِ وَخَمْسَ سِنِينَ. وَمَاتَ تَارَحُ فِي حَارَانَ»[2].

وثاني ملاحظة يمكن تسجيلها، هي أن إبراهيم قد ترك أباه في أرضه، وخرج إلى الأرض المأمور بالخروج إليها ومعه زوجته ولوط ابن أخيه، وأن المكان الذي خرجوا إليه هو حاران نفسها، وفيها أقام إبراهيم وكل من خرج معه؛ وأن أبا إبراهيم لم يكن ليترك أرضه وبيته ويذهب مع ابنه الخارج من أرضه بسبب مخالفة أبيه وقومه في دينهم ومعتقدهم، بل إن إبراهيم قد هرب

---

(١) سفر التكوين ١٢/ ٤-٥.

(٢) سفر التكوين ١١/ ٣١-٣٢.

بدينه إلى الأرض الجديدة التي سيؤسّس فيها ديناً جديداً مخالفاً لدين الآباء الذين تركهم في أور الكلدانيين. فلا حاجة لخروج أبيه معه، ولا حاجة لخروجه مرتين مرة إلى حاران وأخرى إلى كنعان، لأن حاران تقع ضمن نفوذ كنعان كما يدل عليه النص نفسه: «فَخَرَجُوا مَعاً مِنْ أور الْكِلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إلى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوا إلى حَارَانَ وأقاموا هُنَاكَ». وهذا المكان هو المكان المقدس عينه، الذي حدثنا عنه سفر التكوين في الإصحاح الثامن والعشرين، منسوباً إلى يعقوب، لا إلى إبراهيم، رغم كونه هو المؤسّس لأول بيت وضع للناس، جاء فيه: «فَخَرَجَ يَعْقُوبُ مِنْ بِئْرِ سَبْعٍ وَذَهَبَ نَحْوَ حَارَانَ. (١١) وَصَادَفَ مَكَاناً وَبَاتَ هُنَاكَ لأَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ قَدْ غَابَتْ. وَأَخَذَ مِنْ حِجَارَةِ الْمَكَانِ وَوَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ فَاضْطَجَعَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ. (١٢) وَرَأَى حُلْماً وَإِذَا سُلَّمٌ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ وَهُوَذَا مَلائِكَةُ اللهِ صَاعِدَةٌ وَنَازِلَةٌ عَلَيْهَا (١٣) وَهُوَذَا الرَّبُّ وَاقِفٌ عَلَيْهَا فَقَالَ: «أَنَا الرَّبُّ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ. الأَرْضُ الَّتِي أَنْتَ مُضْطَجِعٌ عَلَيْهَا أُعْطِيهَا لَكَ وَلِنَسْلِكَ. (١٤) وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَتُرَابِ الأَرْضِ وَتَمْتَدُّ غَرْباً وَشَرْقاً وَشِمَالاً وَجَنُوباً. وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الارْضِ. (١٥) وَهَا أَنَا مَعَكَ وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ وَأَرُدُّكَ إِلَى هَذِهِ الارْضِ لأَنِّي لا أَتْرُكُكَ حَتَّى أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ». (١٦) فَاسْتَيْقَظَ يَعْقُوبُ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: «حَقّاً إِنَّ الرَّبَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَأَنَا لَمْ أَعْلَمْ!» (١٧) وَخَافَ وَقَالَ: «مَا أَرْهَبَ هَذَا الْمَكَانَ! مَا هَذَا إِلَّا بَيْتُ اللهِ وَهَذَا بَابُ السَّمَاءِ!»»[١].

وهناك نصوص متعددة تؤكد لنا أن حاران أو بيت حاران أو بيت حورون أو بيت حرمون أو هارام المتحدث عنها في أسفار العهد القديم إنما هي بيت

---

(١) سفر التكوين ٢٨/ ١٠-١٧.

الله الحرام الذي أسّسه إبراهيم، وجعل الصعود إليه فريضة أبدية[١].

ويوجد في هذا النص المنسوب إلى يعقوب، قول الله له في الرؤيا: «ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض»؛ وهو نفس الهدف الذي خرج من أجله إبراهيم إلى الأرض المباركة للعالمين.

وهو ما يرد أقوال المفسرين المسيحيين التي تحاول أن تجعل حاران بعيدة عن الأماكن المختلفة التي أقام فيها إبراهيم بمئات الكيلومترات، وتجعل رحلة إبراهيم تبدأ من الشرق ثم تصعد إلى أقصى الشمال ثم تنزل إلى الجنوب في مساحة تستوعب مئات الكيلومترات تشمل العراق إلى شمال سوريا إلى جنوب فلسطين.

لقد خرج إبراهيم من أرضه في رسالة إنسانية، ليؤسس أول بيت وضع للناس من أجل العبادة، وهو ما نراه جلياً في وصف تنقلات الأب إبراهيم: «وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ. وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلَ وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتُ إِيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَايُ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ. ثُمَّ ارْتَحَلَ أَبْرَامُ ارْتِحَالاً مُتَوَالِياً نَحْوَ الْجَنُوبِ»[٢].

وبذلك تصير الأماكن التي تنقل فيها إبراهيم وأقام فيها، شاملة لحاران وشكيم، وبلوطة مورة، حيث بنى مذبحاً للرب، وحيث بيت إيل الذي نصب فيه خيمته، بين بيت إيل وعاي، وحيث قدم ذبائح وصلوات، وسعى سعياً متوالياً[٣].

---

(١) انظر مبحث حاران.

(٢) سفر التكوين ١٢/٦-٩.

(٣) سفر التكوين ١٢/ ٦-٩.

كل شيء في هذه التنقلات والإقامة يؤكد الهدف الذي خرج إبراهيم من أجله، وهو مباركة الناس وتعليمهم مناسكهم، كما يؤكد قدسية المكان المختار من الله للمباركة والعبادة وأداء الشعائر؛ وإن متابعتنا لهذه الأماكن في الكتاب المقدس، لتؤكد بما لا يقبل الشك أن هذا المكان بأسمائه المختلفة مكان مقدس تعبَّد فيه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وباقي أنبياء بني إسرائيل وقضاتهم وصالحوهم على مر العصور.

وأهم الأسماء التي نأخذها من هذا النص: ١) حاران؛ ٢) شكيم؛ ٣) بلوطة مورة؛ ٤) بيت إيل؛ ٥) عاي؛

وأهم الأفعال : ١) بناء المذبح للرب؛ ٢) نصب الخيمة؛ ٣) الدعاء باسم الرب؛ ٤) الارتحال المتوالي. وهي كلها أسماء شعائر وطقوس عبادة، سنرى كل واحد منها في مكانه وحينه.

٣ - إبراهيم يواصل أعماله في بيت إيل

يواصل إبراهيم وزوجه ولوط تنقلاته في المنطقة، كما حدثنا الإصحاح الثالث عشر من سفر التكوين، ويقوم بالأعمال عينها التي قام بها أول مرة في نفس المكان، جاء في النص:

فَصَعِدَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ وَلُوطٌ مَعَهُ إِلَى الْجَنُوبِ. وَكَانَ أَبْرَامُ غَنِيّاً جِدّاً فِي الْمَوَاشِي وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ. وَسَارَ فِي رِحْلاتِهِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى بَيْتِ إِيلَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ خَيْمَتُهُ فِيهِ فِي الْبَدَاءَةِ بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ إِلَى مَكَانِ الْمَذْبَحِ الَّذِي عَمِلَهُ هُنَاكَ أولاً. وَدَعَا هُنَاكَ أَبْرَامُ بِاسْمِ الرَّبِّ. وَلُوطٌ السَّائِرُ مَعَ أَبْرَامَ كَانَ لَهُ أيضاً غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَخِيَامٌ.

وَلَمْ تَحْتَمِلْهُمَا الأرض أَنْ يَسْكُنَا مَعاً إِذْ كَانَتْ أَمْلاكُهُمَا كَثِيرَةً فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعاً. فَحَدَثَتْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنَ رُعَاةِ مَوَاشِي أَبْرَامَ وَرُعَاةِ مَوَاشِي لُوطٍ.

وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفِرِزِّيُّونَ حِينَئِذٍ سَاكِنِينَ فِي الأرض. فَقَالَ أبرام لِلُوطٍ: «لا تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ لأننا نَحْنُ أَخَوَانِ. أليست كُلُّ الأرض أمامك؟ اعْتَزِلْ عَنِّي. إن ذَهَبْتَ شِمَالاً فَأنَا يَمِيناً وَإنْ يَمِيناً فَأنَا شِمَالاً»[1].

والأماكن المذكورة هنا، هي نفسها الأماكن المذكورة في الإصحاح السابق: ١) بيت إيل (بيت الله)؛ ٢) عاي (الرجمة)؛ ٣) المذبح الذي عمله أولاً (مكان الذبائح، ومكان الصلوات)؛ وأما الأفعال فمنها: ١) الصعود (الحج)؛ ٢) الترحال (السعي)؛ ٣) الإقامة؛ ٤) بناء المذبح (الذبائح)؛ ٥) الدعاء باسم الرب (الصلاة)؛ ٦) الذهاب يميناً وشمالاً في المكان المخصص لذلك (السعي).

وتبعاً للترتيب الوارد في هذا النص، فإن إبراهيم سيصعد مرة أخرى إلى أرض الجنوب؛ ولفظ الصعود إلى المكان المقدس، يعني الحج إليه وإقامة الشعائر فيه، باعتبار المكان المقدس مكاناً عالياً؛ وذلك لا يعني أن إبراهيم لم يكن يقيم في ذلك المكان، إذ الحجاج ليسوا هم الوافدين على هذا البيت، وإنما هم كل من نووا القيام بتلك الشعائر بمن فيهم المقيمون وخدام ذلك البيت وأئمته؛ ثم انتقل إبراهيم من بيت الله إلى المكان الذي كانت فيه خيمته في البداية بين بيت إيل وعاي، وذهب إلى مكان المذبح الذي عمله أول مرة هناك، وصلى ودعا باسم الرب.

إن قضية الموضعين بيت إيل وعاي، هي قضية أهم مكانين تتجمع فيهما شعائر الحج، فالموقع الأول هو موقع بيت الله (بيت إيل)، ويضم الكعبة وبئرها والصفا والمروة وكل الطرق التي توصل إليها، وفيه يقوم الناس بجزء

---

(١) سفر التكوين ١٣/١-٩.

من طقوس الحج، كما يقومون بالعمرة كاملة؛ وأما الموقع الثاني (عاي، التي تعني الرجمة) فيضم مجموعة أخرى من الشعائر، تبدأ بالمبيت بالوادي، ورمي الجمرات، والمبيت بمنى، والوقوف بعرفات، والنحر وتقديم الهدي والصدقات والنذور وغيرها؛ وهو جزء لا يتجزأ من شعيرة الحج؛ وهو لا يكون إلا في موسم الحج، وليس من ضمن شعائر العمرة التي يمكن القيام بها طيلة شهور السنة في الموقع الأول فقط.

والتنصيص على نصب الخيمة بين بيت الله وعاي، إنما هو للإقامة حتى يتمكن الحاج من أداء مختلف الشعائر من غير مشقة، وهي سنّة الحجاج إلى يوم الناس هذا.

ويطلق على المكان كله أحد أسماء الشعائر المختلفة، فهو بيت الله، والبيت الحرام، وهو الكعبة، وهو الحج؛ ولا شك في أن من حج إلى بيت الله في موسم الحج فعليه أن يقوم بكل الشعائر، وأما من اعتمر فعليه أن يقوم ببعض تلك الشعائر دون وقوف بعرفات ولا رمي جمار وما يرتبط بهما من شعائر أخرى خاصة بموسم الحج.

ويشير النص إلى الغنى الذي كان يتمتع به إبراهيم، الذي كان له الكثير من المواشي والذهب والفضة، وتتضمّن هذه الإشارة قضية إخراج العشور التي تقدم بشكل قرابين في هذا المكان المقدس، كما يشير إلى الذهاب والإياب في طول هذا المكان وعرضه، والذي يعبر عنه بقوله: إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً، وإن يميناً فأنا شمالاً[1]؛ وهو تعبير عن طقس السعي الذي فيه الطواف بين الصفا والمروة من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال، سعياً متوالياً (سبعة أشواط). وإن فعل «ارتحل» الذي استعمله المترجم العربي أفقد

(١) سفر التكوين ١٣/ ١-٩.

النص حمولته الدينية، ولعلنا بالرجوع إلى النص العبري نسترجع بعض هذه الحمولة، حيث يستعمل فعل: «נסע» «نسع» والذي يقابله فعل «سعى» بالعربي، فيصير المعنى: أن إبراهيم «سعى سعياً متوالياً في أرض الجنوب»، «ויסע אברם הלוך ונסוע הנגבה»[1]؟ وإن كثيراً من أسماء الشعائر وأفعال العبادة في هذا البيت الحرام ما زالت محافظة على مسمّياتها كما هي في الكتاب المقدس، وكما كانت منذ اليوم الأول، وهي تشهد على مصداقية هذا البيت القائم اليوم، وارتباطه بالأب إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

٤ - إقامة إبراهيم عند بلّوطات ممرا

يواصل سفر التكوين تحديثنا عن أعمال إبراهيم عليه السلام، التي هي في أغلبها طقوس عبادة ترتبط ببيت الله الحرام، وتقدّم للناس مناسكهم كما تعلّمها أبوهم إبراهيم من ربه:

«وَقَالَ الرَّبُّ لأبْرَامَ بَعْدَ اعْتِزَالِ لُوطٍ عَنْهُ: «ارْفَعْ عَيْنَيْكَ وَانْظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أنْتَ فِيهِ شِمَالاً وَجَنُوباً وَشَرْقاً وَغَرْباً، لأنَّ جَمِيعَ الارْضِ الَّتِي أنْتَ تَرَى لَكَ أعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إلَى الابَدِ.

وَأجْعَلُ نَسْلَكَ كَتُرَابِ الأرْضِ حَتَّى إذَا اسْتَطَاعَ أحَدٌ أنْ يَعُدَّ تُرَابَ الأرْضِ فَنَسْلُكَ أيْضاً يُعَدُّ.

قُمِ امْشِ فِي الأرْضِ طُولَهَا وَعَرْضَهَا لأنِّي لَكَ أعْطِيهَا». فَنَقَلَ أبْرَامُ خِيَامَهُ وَأتَى وَأقَامَ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الَّتِي فِي حَبْرُونَ وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ»[2].

يمكن أن نسجل في هذا الخطاب الإلهي أمراً لإبراهيم بالمشي في الأرض طولاً وعرضاً؛ ولا علاقة لهذا المشي بامتلاك الأرض التي شغلت

---

(١) سفر التكوين ١٢/٩.
(٢) سفر التكوين ١٣/ ١٤-١٨.

الذهن اليهودي، والكاهن والمفسر الكتابي، وفرضت عليه أن يفهم كل أوامر الله وشرائعه في إطار تحقيق الأماني والأحلام اليهودية الأرضية، وإنما يرتبط هذا المشي بالهدف الذي جاء من أجله إبراهيم إلى الأرض المباركة؛ وهو ما يفسره السلوك الإبراهيمي استجابة لأمر ربه: لقد نقل خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا، وبنى هناك مذبحاً للرب؛ ولا يختلف الأمر الإلهي لأبرام في هذه المقاطع[1]، بالمشي في الأرض طولها وعرضها، عن قول لوط السابق لأبرام بالذهاب في الأرض شمالاً وجنوباً، وعن النص الذي قبله المتحدث عن السعي المتوالي في أرض الجنوب، فهو كله تعبير عن طقس السعي المتوالي بين الصفا والمروة في المكان المقدس، ولذلك فقد استجاب أبرام لربه ونقل خيامه وأتى إلى بلوطات ممرا، (التي هي المروة)، وقد عبّر عنها في النص الأول بـ«بلوطة مورة» «وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأرض إلى مَكَانِ شَكِيمَ إلى بَلُّوطَةِ مُورَةَ»؛ وبدأ بالقيام بشعيرة السعي، ثم قام بباقي الشعائر، التي منها بناء مذبح للرب، وهو ما يعني تقديم ذبيحة أو صلاة.

٥ - ما هذا إلا بيت الله، وهذا باب السماء

ويواصل سفر التكوين تحديثنا عن هذا المكان المقدس الذي هو بيت الله وباب السماء، مبيّناً لنا، كما سبق أن أوردنا، أن نبي الله يعقوب هو الذي اكتشف هذا المكان المقدس، عندما رأى فيه حلم الملائكة الصاعدة والنازلة إلى السماء من هذا البيت، وأنه هو الذي دعا اسمه «بيت إيل»؛ وإن كانت النصوص الأخرى تبيّن أن المقصود في هذا النص هو إبراهيم وليس يعقوب؛ ومهما يكن فقدسية المكان كانت قبل نبي الله يعقوب واستمرت بعده،

---

(١) سفر التكوين ١٣/ ١٤-١٨.

وطقوس العبادة في هذا المكان بقيت فريضة أبدية على كل المؤمنين بالله في جميع الأمم، لكون هذا المكان هو مكان البركة العالمية لجميع أمم الأرض. وإن قراءة سريعة لأسماء المواقع المذكورة في هذا النص لتؤكد لنا كل ما سبق ذكره من كون الأسماء الواردة المرتبطة بهذا المكان إنما هي أسماء شعائر وليست أسماء بلدان أو مدن أو أمم أو شعوب أو غيرها، وإنما أسماء أماكن مقدسة اتخذت مناسك وشعائر يعظمها الناس ويحجون إليها في كل سنة من أجل عبادة الله وإقامة شعائره وشرائعه؛ وهذا ما جاء في النص المتحدث عن هذه الأمور: «فَخَرَجَ يَعْقُوبُ مِنْ بِئْرِ سَبْعٍ وَذَهَبَ نَحْوَ حَارَانَ. (١١) وَصَادَفَ مَكَاناً وَبَاتَ هُنَاكَ لأنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ قَدْ غَابَتْ. وَأَخَذَ مِنْ حِجَارَةِ الْمَكَانِ وَوَضَعَهُ تَحْتَ رَأسِهِ فَاضْطَجَعَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ. (١٢) وَرَأى حُلْماً وَإذَا سُلَّمٌ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الأرْضِ وَرَأسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ وَهُوَذَا مَلائِكَةُ اللهِ صَاعِدَةٌ وَنَازِلَةٌ عَلَيْهَا (١٣) وَهُوَذَا الرَّبُّ وَاقِفٌ عَلَيْهَا فَقَالَ: «أنَا الرَّبُّ إلَهُ إبْرَاهِيمَ أبِيكَ وَإلَهُ إسْحَاقَ. الأرْضُ الَّتِي أنْتَ مُضْطَجِعٌ عَلَيْهَا أعْطِيهَا لَكَ وَلِنَسْلِكَ. (١٤) وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَتُرَابِ الأرْضِ وَتَمْتَدُّ غَرْباً وَشَرْقاً وَشَمَالاً وَجَنُوباً. وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأرْضِ. (١٥) وَهَا أنَا مَعَكَ وَأحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ وَأرُدُّكَ إلَى هَذِهِ الأرْضِ لأنِّي لا أتْرُكُكَ حَتَّى أفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ». (١٦) فَاسْتَيْقَظَ يَعْقُوبُ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: «حَقّاً إنَّ الرَّبَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَأنَا لَمْ أعْلَمْ!» (١٧) وَخَافَ وَقَالَ: «مَا أرْهَبَ هَذَا الْمَكَانَ! مَا هَذَا الَّا بَيْتُ اللهِ وَهَذَا بَابُ السَّمَاءِ!» (١٨) وَبَكَّرَ يَعْقُوبُ فِي الصَّبَاحِ وَأخَذَ الْحَجَرَ الَّذِي وَضَعَهُ تَحْتَ رَأسِهِ وَأقَامَهُ عَمُوداً وَصَبَّ زَيْتاً عَلَى رَأسِهِ (١٩) وَدَعَا اسْمَ ذَلِكَ الْمَكَانِ «بَيْتَ إيلَ». وَلَكِنِ اسْمُ الْمَدِينَةِ اوَّلاً كَانَ لُوزَ»[١].

---

(١) سفر التكوين ٢٨/ ١٠-١٩.

لقد وردت مجموعة من الأسماء التي انتقل بينها نبي الله يعقوب، كلها تدل على كونه عليه السلام لم يكن في رحلة عادية، وإنما كان في مسيرة تعبدية، ينتقل من شعيرة إلى شعيرة، ويؤدي مناسك الله كما وجب عليه أداؤها؛ وسنسجل أسماء الأماكن الأساسية في هذه الرحلة: ١) بئر سبع، ٢) حاران، ٣) بيت إيل، كما نسجل الأفعال الأساسية التي قام بها يعقوب: ١) الأخذ من حجارة المكان، ٢) المبيت في المكان المقدس، ٣) القيام باكراً، ٤) إقامة عمود الحجارة، ٥) صب الزيت على الرأس؛ ٦) دعاء اسم المكان بيت إيل. والملاحظ أن رحلة يعقوب هذه لم تستغرق إلا بضع ساعات من النهار بين بئر سبع ومكان المبيت حيث اضطجع يعقوب، وقليل من الوقت في الصباح الباكر بين مكان المبيت الذي أخذ منه يعقوب الحجارة، ومكان العمود الذي أقامه؛ وهو ما يعني أن هذه الأماكن ليس بينها مسافات طويلة كالتي بين المدن والقرى، كما يحاول إيهامنا به كهنة الكتاب المقدس ومفسّروه، الذين كانوا وما زالوا يبحثون عن مشروعية امتلاك أراضي الأمم الأخرى واحتلالها باسم الله.

وتبعاً لترتيب طقوس هذه الرحلة، نرى أنها تسجل طقوس المرحلة الثانية من الحج، (التي غالباً ما تكون في ما يسمّى عاي أو الجلجال أو جلعيد، التي تعني الرجمة) حيث يخرج يعقوب من بئر سبع (بئر الكعبة)، ويدخل في طقس رمي الجمار، كل هذا في البيت الحرام (حاران)، فيأخذ من حجارة الوادي ويضطجع هناك واضعاً الحجارة تحت رأسه (في مزدلفة)، ويبكر صباحاً لرمي هذه الحجارة على عمود الحجر المقام أصلاً لهذا الغرض (رمي الجمار)، وبعد الانتهاء من هذا الطقس يكون على المحرم أن يتحلل من إحرامه بحلق رأسه أو تقصيره، وقد حدثنا النص عن صب الزيت على الرأس، الذي قد يفهم منه التحلل من الإحرام والتمتع. ومهما يكن فإن

المكان الذي تتحدث عنه هذه النصوص مكان مقدس، هو بيت الله وباب السماء، وإن ما قام به يعقوب في هذا المكان إنما هو شعائر الدين التي أسّسها الأب إبراهيم وعلمها لبنيه وذريته، وهي أساس البركة التي جعلها الله للناس في هذا المكان المختار.

٦ - الحجر والعمود في بيت الله

لم تكن إقامة عمود الحجر وصبّ الزيت على الرأس هي كل الطقوس التي قام بها يعقوب، بل إنه نذر نذراً والتزم التزاماً أن يعشر كل ما رزقه الله من خبز ولباس، في بيت الله هذا إن كان الله معه ووهبه رزقاً حسناً، وفي ذلك يقول: «وَنَذَرَ يَعْقُوبُ نَذْراً قَائِلاً: «إِنْ كَانَ اللهُ مَعِي وَحَفِظَنِي فِي هَذَا الطَّرِيقِ الَّذِي أَنَا سَائِرٌ فِيهِ وَأَعْطَانِي خُبْزاً لِآكُلَ وَثِيَاباً لأَلْبِسَ وَرَجَعْتُ بِسَلامٍ إِلَى بَيْتِ أَبِي يَكُونُ الرَّبُّ لِي إِلَهاً وَهَذَا الْحَجَرُ الَّذِي أَقَمْتُهُ عَمُوداً يَكُونُ بَيْتَ اللهِ وَكُلُّ مَا تُعْطِينِي فَإِنِّي أُعَشِّرُهُ لَكَ»[1].

وهو ما يؤكد أن من طقوس العبادة في بيت الله الحرام الوفاء بالنذر، وتقديم العشور عن كل ما رزق الله الناس من أنعام ورزق ولباس.

٧ - في جبل جلعاد

إن رحلة يعقوب كانت وصفاً لطقوس العبادة في الأماكن المقدسة، التي منها «جبل جلعاد»؛ ولم تكن رحلة يعقوب في هذا المكان الصحراوي إلا على الجمال، التي كانوا يستخفونها في إقامتهم وترحالهم، وكانوا يأكلون لحمها ويشربون لبنها من قبل أن تنزل التوراة؛ وهو ما يعني أن جبل جلعاد إنما كان ضمن أرض البيت الحرام، وأنها كانت واحدة من الشعائر المقدسة

---

(١) سفر التكوين ٢٨/ ٢٠-٢٢.

التي كان يحييها الناس، فريضة أبدية. ولنستمع إلى سفر التكوين يحدثنا عنها وعن زيارة يعقوب لها في رحلة الحج العجيبة التي حكاها لنا الكتاب المقدس، وأراد أهل الكتاب كتمانها على الناس.

جاء في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التكوين:

«فَقَامَ يَعْقُوبُ وَحَمَلَ أَوْلادَهُ وَنِسَاءَهُ عَلَى الْجِمَالِ (١٨) وَسَاقَ كُلَّ مَوَاشِيهِ وَجَمِيعَ مُقْتَنَاهُ الَّذِي كَانَ قَدِ اقْتَنَى: مَوَاشِيَ اقْتِنَائِهِ الَّتِي اقْتَنَى فِي فَدَّانِ آرَامَ لِيَجِيءَ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. (١٩) وَأَمَّا لابَانُ فَكَانَ قَدْ مَضَى لِيَجُزَّ غَنَمَهُ فَسَرَقَتْ رَاحِيلُ أَصْنَامَ أَبِيهَا. (٢٠) وَخَدَعَ يَعْقُوبُ قَلْبَ لابَانَ الآرَامِيِّ إِذْ لَمْ يُخْبِرْهُ بِأَنَّهُ هَارِبٌ. (٢١) فَهَرَبَ هُوَ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ وَقَامَ وَعَبَرَ النَّهْرَ وَجَعَلَ وَجْهَهُ نَحْوَ جَبَلِ جِلْعَادَ. (٢٢) فَأُخْبِرَ لابَانُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ بِأَنَّ يَعْقُوبَ قَدْ هَرَبَ (٢٣) فَأَخَذَ إِخْوَتَهُ مَعَهُ وَسَعَى وَرَاءَهُ مَسِيرَةَ سَبْعَةِ أَيَّام فَأَدْرَكَهُ فِي جَبَلِ جِلْعَادَ. (٢٤) وَأَتَى اللهُ إِلَى لابَانَ الآرَامِيِّ فِي حُلْمِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: «احْتَرِزْ مِنْ أَنْ تُكَلِّمَ يَعْقُوبَ بِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ». (٢٥) فَلَحِقَ لابَانُ يَعْقُوبَ وَيَعْقُوبُ قَدْ ضَرَبَ خَيْمَتَهُ فِي الْجَبَلِ. فَضَرَبَ لابَانُ مَعَ إِخْوَتِهِ فِي جَبَلِ جِلْعَادَ»[١].

بين أن المنطقة التي يتحدث عنها النص منطقة صحراوية، يركب فيها الرجال والنساء والأطفال على الجمال، وكان يعقوب من ضمن سكان هذه المنطقة القادرين على ركوب الجمال، وكان ليعقوب صهر من غير بني إسرائيل، حدثنا سفر التكوين عن كثير من مشاكله مع يعقوب، بسبب هذا الاختلاف في الهوية؛ وحسب هذا النص فإن لابان أبو راحيل كان يعبد الأصنام، وأن ابنته سرقت أصنامه، فهرب يعقوب ومن معه من لابان صهره الذي تعقبه إلى أن رأى في رؤيا المنام أن لا يمسّه بخير ولا بشر، وهو ما

(١) سفر التكوين ٣١/ ١٧-٢٥.

فعل. وحتى لا نضيع في الرواية النمطية اليهودية، التي تجعل سكان منطقة بيت الله الحرام مشركين، وبيتهم المحرم بيت شرك، والعلاقة معهم علاقة عداوة، لا يكون فيها السلام إلا استثناءً أو خديعة؛ سنسجل مجموعة من الملاحظات:

١) راحيل تسرق أصنام أبيها، ٢) هروب يعقوب ومن معه، ٣) القيام وعبور النهر، ٤) التوجّه إلى جبل جلعاد، ٥) احترام الحجاج وعدم مسّهم بخير ولا بشر، ٦) ضرب الخيمة في الجبل. ٧) مسيرة سبعة أيام.

إن سرقة الأصنام لا تعني إلا الشرط الأول من شروط الحج، الذي هو إزالة الأصنام، ولا يعني الهروب إلا ذلك الطواف والسعي حيث يجري الناس بعضهم في إثر بعض، لكن من غير خوف ولا حرب ولا عداوة، وهي مسيرة قد تستمر سبعة أيام قبل أن ينتقل الناس إلى رمي الجمار والوقوف بعرفة.

وبعد هذه المرحلة يأتي الذهاب إلى الوادي والمبيت فيه، في انتظار الصباح من أجل القيام بشعائر رمي الجمار ثم الوقوف بالجبل (جبل عرفة في آخر المطاف).

ومن الأمور الأساسية في موضوع الحج عدم إيذاء الحجاج، وقد رأى لابان الآرامي هذا الأمر في رؤيا الحلم حيث كلمه الله، والحقيقة أن الأمن من أهم مميزات هذا البيت الحرام، حيث جعله الله آمناً وجعل الناس مؤتمنين فيه على أموالهم وأنفسهم، بينما يتخطف الناس من حولهم؛ ولم يرجع هذا الأمر إلى رؤيا رآها أحد الناس في هذا البيت أو خارجه، وإنما هو بيت الله الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً.

٨ - شاهد العمود والحجارة والرجمة والحلف والذبيحة

يواصل سفر التكوين تفصيل شعائر الحج مع يعقوب، من خلال قصته مع

لابان الآرامي، ويبيّن لنا شعيرة رمي الجمار، يقول: «فَأَجَابَ لابَانُ: «الْبَنَاتُ بَنَاتِي وَالْبَنُونَ بَنِيَّ وَالْغَنَمُ غَنَمِي وَكُلُّ مَا أَنْتَ تَرَى فَهُوَ لِي. فَبَنَاتِي مَاذَا أَصْنَعُ بِهِنَّ الْيَوْمَ أَوْ بِأَوْلادِهِنَّ الَّذِينَ وَلَدْنَ؟ فَالآنَ هَلُمَّ نَقْطَعْ عَهْداً أَنَا وَأَنْتَ فَيَكُونُ شَاهِداً بَيْنِي وَبَيْنَكَ». فَأَخَذَ يَعْقُوبُ حَجَراً وَأَوْقَفَهُ عَمُوداً وَقَالَ يَعْقُوبُ لإِخْوَتِهِ: «الْتَقِطُوا حِجَارَةً». فَأَخَذُوا حِجَارَةً وَعَمِلُوا رُجْمَةً وَأَكَلُوا هُنَاكَ عَلَى الرُّجْمَةِ. وَدَعَاهَا لابَانُ «يَجَرْ سَهْدُوثَا» وَأَمَّا يَعْقُوبُ فَدَعَاهَا «جَلْعِيدَ» وَقَالَ لابَانُ: «هَذِهِ الرُّجْمَةُ هِيَ شَاهِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ الْيَوْمَ». لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا «جَلْعِيدَ» وَ «الْمِصْفَاةَ» لأَنَّهُ قَالَ: «لِيُرَاقِبِ الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ حِينَمَا نَتَوَارَى بَعْضُنَا عَنْ بَعْضٍ. إِنَّكَ لا تُذِلُّ بَنَاتِي وَلا تَأْخُذُ نِسَاءً عَلَى بَنَاتِي. لَيْسَ إِنْسَانٌ مَعَنَا. انْظُرْ. اللهُ شَاهِدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ». وَقَالَ لابَانُ لِيَعْقُوبَ: «هُوَذَا هَذِهِ الرُّجْمَةُ وَهُوَذَا الْعَمُودُ الَّذِي وَضَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ. شَاهِدَةٌ هَذِهِ الرُّجْمَةُ وَشَاهِدٌ الْعَمُودُ أَنِّي لا أَتَجَاوَزُ هَذِهِ الرُّجْمَةَ إِلَيْكَ وَأَنَّكَ لا تَتَجَاوَزُ هَذِهِ الرُّجْمَةَ وَهَذَا الْعَمُودَ إِلَيَّ لِلشَّرِّ. إِلَهُ ابْرَاهِيمَ وَآلِهَةُ نَاحُورَ آلِهَةُ أَبِيهِمَا يَقْضُونَ بَيْنَنَا». وَحَلَفَ يَعْقُوبُ بِهَيْبَةِ أَبِيهِ إِسْحَاقَ»[1].

يلاحظ أن هذا النص يضم مجموعة من العناصر التي ينبغي تسجيلها: ١) العهد الشاهد، ٢) عمود الحجر، ٣) التقاط الحجارة، ٤) عمل الرجمة، ٥) جلعيد ورجمة الشهادة، ٦) عدم إذلال البنات والنساء؛ ومن خلال هذه العناصر يمكن أن نتحدث عن شعيرة رمي الجمار بشكل أكثر وضوحاً من نصوص أخرى؛ وقبل الحديث عن تفاصيل هذا الطقس لا بد من التأكيد أنه جزء من العهد، أو الحلف أو القسم، وهو واحدة من الفرائض التي عاهد الله بها الناس، وأوجبها عليهم في كل عام، وهو معنى العهد الشاهد، فهو

---

(١) سفر التكوين ٣١/ ٤٣-٥٣.

ليس عهداً بين رجلين، وإنما هو عهد بين الله والناس يقوم به المؤمنون طاعة وإيماناً واحتساباً.

تضم هذه الشعيرة: ١) عمود الحجر القائم، أو على الأصح أعمدة الحجر الثلاثة القائمة، التي تسمّى العقبات الكبرى والوسطى والصغرى، وسنجد الحديث عنها في أماكن أخرى من أسفار الكتاب المقدس، و٢) الحجارة التي ينبغي أن تلتقط، من مكان المبيت كما فعل يعقوب في غير ما مرة، وإن كانت النصوص السابقة تراوحت بيت الحديث عن مجموعة من حجارة المكان وبين حجر واحد، ٣) عمل الرجمة، أو رمي الجمرات في الأماكن المخصصة لها، ٤) عدم إذلال النساء، أو الامتناع عن معاشرة النساء أثناء أداء هذه الفريضة، وقد وجدنا الإشارة إلى هذا الموضوع في العديد من المواضع في الكتاب المقدس، وسنخصص مبحثاً خاصاً للحديث عن هذا الموضوع[١]. وطبعاً فإن هذه الرجمة ستصبح عيداً يعاد في كل سنة، وهو مفهوم «جل» و«عيد»، بمعنى الرجمة الشاهدة التي تقام كل عام. وهكذا تصبح «جلعيد» و«جلعاد» و«جلجال» و«عاي» تدل على مكان واحد كان قائماً منذ عهد إبراهيم ويعقوب، إلى يومنا هذا، هو مكان الرجمة التي تشهد على أن بيت الله هو المكان الذي اختاره الله لأداء الفريضة السنوية الدهرية، والذي ما زال قائماً بجميع تفاصيله في بيت الله الحرام في مكة المكرمة إلى يوم الناس هذا.

بعد القيام بشعيرة رمي الجمار، يواصل يعقوب حجه، فيذبح الذبيحة في الجبل، ويأكل منها ويطعم إخوته، ويبيتون في الجبل، قبل يوم المباركة والوداع؛ قال: «وَذَبَحَ يَعْقُوبُ ذَبِيحَةً فِي الْجَبَلِ وَدَعَا إِخْوَتَهُ لِيَأْكُلُوا طَعَاماً.

---

(١) انظر مبحث النساء في الحج.

فَأَكَلُوا طَعَاماً وَبَاتُوا فِي الْجَبَلِ. ثُمَّ بَكَّرَ لابَانُ صَبَاحاً وَقَبَّلَ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ وَبَارَكَهُمْ وَمَضَى. وَرَجَعَ لابَانُ إِلَى مَكَانِهِ»[(١)].

من خلال رحلة يعقوب يتبيّن لنا جلياً أن هدف يعقوب من الصعود إلى بيت الله إنما كان الحصول على المباركة، وهو ما رأيناه في نهاية المراحل بعد الذبح والمبيت في الجبل والقيام باكراً للوقوف للمباركة، ثم توديع المكان المقدس وأهله، وليس توديع أبنائه وبناته وتقبيلهم؛ وهو ما يسمّى بطواف الوداع وإنهاء المناسك؛ ثم رجوع كل واحد إلى مكانه الذي جاء منه، بعد أن أتم منسكه.

٩ - حج يعقوب

رغم حديثنا الوافي عن وصف حج يعقوب ومن معه إلى بيت الله الحرام في إصحاحات مختلفة من سفر التكوين، فإن الإصحاح الخامس والثلاثين سيحدثنا بأسلوب مباشر عن طقوس هذا الحج ومناسكه بوضوح أكبر، وسيضيف إلينا مجموعة من العناصر الأخرى التي لم نتعرض لها في ما سبق، يقول:

ثُمَّ قَالَ اللهُ لِيَعْقُوبَ: «قُمِ اصْعَدْ إِلَى بَيْتِ ايلَ وَأَقِمْ هُنَاكَ وَاصْنَعْ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلَّهِ الَّذِي ظَهَرَ لَكَ حِينَ هَرَبْتَ مِنْ وَجْهِ عِيسُو أَخِيكَ».

فَقَالَ يَعْقُوبُ لِبَيْتِهِ وَلِكُلِّ مَنْ كَانَ مَعَهُ: «اعْزِلُوا الآلِهَةَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَتَطَهَّرُوا وَأَبْدِلُوا ثِيَابَكُمْ.

وَلْنَقُمْ وَنَصْعَدْ إِلَى بَيْتِ إِيلَ فَأَصْنَعَ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلَّهِ الَّذِي اسْتَجَابَ لِي فِي يَوْمِ ضِيقَتِي وَكَانَ مَعِي فِي الطَّرِيقِ الَّذِي ذَهَبْتُ فِيهِ».

---

(١) سفر التكوين ٣١/ ٣٤-٣٥.

فَأَعْطَوا يَعْقُوبَ كُلَّ الآلِهَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ وَالأَقْرَاطَ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ فَطَمَرَهَا يَعْقُوبُ تَحْتَ الْبُطْمَةِ الَّتِي عِنْدَ شَكِيمَ.

ثُمَّ رَحَلُوا. وَكَانَ خَوْفُ اللهِ عَلَى الْمُدُنِ الَّتِي حَوْلَهُمْ فَلَمْ يَسْعَوا وَرَاءَ بَنِي يَعْقُوبَ.

فَأَتَى يَعْقُوبُ إِلَى لُوزَ الَّتِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ (وَهِيَ بَيْتُ إِيلَ) هُوَ وَجَمِيعُ الْقَوْمِ الَّذِينَ مَعَهُ.

وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً وَدَعَا الْمَكَانَ «إِيلَ بَيْتِ إِيلَ» لأَنَّهُ هُنَاكَ ظَهَرَ لَهُ اللهُ حِينَ هَرَبَ مِنْ وَجْهِ أَخِيهِ.

وَمَاتَتْ دَبُورَةُ مُرْضِعَةُ رِفْقَةَ وَدُفِنَتْ تَحْتَ بَيْتَ إِيلَ تَحْتَ الْبَلُّوطَةِ فَدَعَا اسْمَهَا «أَلُّونَ بَاكُوتَ»[1].

يظهر من هذا النص أن الله قد أمر يعقوب أمراً مباشراً بالصعود إلى بيت إيل والقيام بمجموعة من الأمور هناك؛ وهي: ١) الإقامة هناك، ٢) صناعة المذبح لله، ويضم تقديم الذبائح والصلوات والأدعية، ٣) عزل الآلهة الغريبة، ٤) التطهر، ٥) تبديل الثياب، ٦) والقيام والصعود إلى بيت إيل، ٧) إعطاء أقراط الذهب، ٨) الرحلة أو السعي، ٩) الأمن؛

فقام يعقوب بما أمره به ربه، وبلّغ ذلك لأهل بيته ولكل من كان معه، وأتوا إلى بيت الله، وقاموا بجميع هذه الشعائر في بيت إيل في المكان الذي سمّاه يعقوب «إلّون باكوت» أي «بلوطة باكوت» أو «سهل بكة»[2].

وتبدأ هذه الطقوس منذ الاستجابة لأمر الله، ونية الصعود إلى هذا البيت، وطبعاً فإن الأمر الإلهي بالصعود إلى بيت الله لم يبدأ في عهد يعقوب، كما قد

---

(١) سفر التكوين ٣٥/ ١-٨.

(٢) انظر مبحث بكة في الكتب المقدسة.

يفهم من النص، وإنما هو فريضة دينية، أمر بها الله عز وجل كل الناس وكل الأمم في كتبه المقدسة وعلى لسان رسله، منذ إبراهيم وإلى آخر الأيام، فريضة دهرية، من لم يستجب لها من الأمم يكن عاصياً لأمر الله ومستحقاً لعقوبته[1]؛ وتبعاً لترتيب هذه الطقوس في النص الذي بين أيدينا سنرى مسيرة هذه العبادة كما أسّسها إبراهيم وقام بها الأنبياء والصالحون من بعده، ومنهم يعقوب عليه الصلاة والسلام وبنوه ومن كان معه:

١) الإقامة، إن على الحاج إلى بيت الله أن يقيم في هذه الأماكن مدة أداء طقوس العبادة، لأن هذه الطقوس لا تؤدّى في يوم واحد، وإنما تحتاج إلى أيام عديدة في مواطن مختلفة، توجد كلها في بيت الله الحرام، ٢) صناعة المذبح تعني: طقوس العبادة بكل أشكالها، بدءاً من الصلاة والدعاء وتقديم القرابين والصدقات والصيام والطواف والعكوف وغير ذلك، وليس معناه تقديم الذبائح فقط؛ ولذلك سمّي مكان العبادة مذبحاً، واعتبرت الصلوات ومختلف العبادات قرابين وذبائح؛ وهو معنى قول النص «اصعد إلى بيت إيل وأقم هناك واصنع مذبحاً للرب»، فيشمل هذا المذبح كل الشعائر والمناسك التي يقوم بها الصاعد إلى «بيت الله». ٣) عزل الآلهة الغريبة، إن غاية بناء هذا البيت هي إقامة دين الله الواحد وإفراده بالعبادة والصلاة دون غيره من الآلهة المزعومة، وهي المهمة التي جاء من أجلها إبراهيم، وصار على أثرها إسحاق ويعقوب والأسباط وكل الصالحين من بني إسرائيل. ٤) التطهر، فبعد التطهر المعنوي والعقائدي من الشرك والآلهة الغريبة من دون الله، يأتي التطهّر المادي الذي يكون عادة قبل إقامة الصلوات والعبادات، ويشمل غسل الجسم والأطراف والثياب ونظافة المحيط الذي يقيم فيه الإنسان. ٥) تبديل الثياب،

---

(١) انظر مبحث «الحج فريضة عالمية».

ليس المطلوب تغيير ثياب الإنسان بثياب أخرى كيف ما كان نوعها، ولكن المطلوب هو لبس ثياب تليق بالعبادة، يتجرد فيها الإنسان من بهرج الحياة الدنيا وزينتها، حتى لا تشغله مظاهر اللباس والزينة عن عبادة الله والخشوع له والتذلل له، ولذلك فقد اشترط في هذه الثياب أن تكون في أبسط المستويات، وأن يستغني الحاج عن كل مظاهر الزينة وعن الحلي وما إلى ذلك مما لا يليق بمقام التجرد لتعظيم الله وتقديسه؛ ٦) الصعود إلى بيت إيل؛ يمكن إطلاق بيت الله على كل مناسك الحج، وهو ما يسمّى إجمالاً «الصعود إلى بيت إيل»، كما يطلق بيت الله على البيت المسمّى بهذا الاسم، والذي هو واحد من المناسك، وهو البيت المربع الذي يطوف عليه الناس، باعتباره واحدة من شعائر البيت الحرام، وهو الذي يطلق عليه الكعبة، والبيت الحرام، كذلك، وإن كانت هذه الأسماء نفسها يمكن أن تطلق على مجمل المناسك، كما تطلق على هذا المنسك الخاص، الذي هو البيت المكعب الذي يتوسّطها؛ والذي يطوف به الناس باعتباره واحداً من مناسك الحج؛ وقد يضم معه منسك الصفا والمروة دون منسك رمي الجمار الذي يطلق عليه مع المناسك التي تجاوره اسم عاي أو الجلجال أو جلعيد أي «الرجمة»؛ ومهما يكن فإن صعود يعقوب بعد أن قام بشروط الصعود المادية والمعنوية، أو ما يسمّى الإحرام، التي رأيناها في ما سبق، فسيقوم في هذه المرحلة بما ينبغي أن يقوم به في هذا البيت، الذي هو الطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، وبعد ذلك ينتقل إلى المرحلة الثانية من هذه المسيرة التعبدية، التي هي مرحلة عاي وقد وجدنا تفاصيلها في ما سبق، مع يعقوب في حاران وفي جلعيد؛ ٧) تقديم الأقراط، إن أقراط الذهب التي في الآذان تأتي في الكتاب المقدس في سياقين، السياق الأول هو سياق الحديث عن الشرك، وهو يذكّر عند بني إسرائيل، باتخاذهم من حليهم وذهبهم عجلاً من دون الله على عهد موسى،

ولذلك فهم يربطون بين إزالة الآلهة المزعومة وإزالة الأقراط من الآذان؛ والثاني هو الهدايا والصدقات والعشور المقدمة إلى بيت الله من الذهب والفضة، وهي التي يقولون عنها «فوضعت في خزانة بيت الله»، ومهما يكن فإن أقراط الآذان تحيل على الإسماعيليين الذين يميّزهم عن غيرهم من سكان المنطقة وضع الأقراط في الآذان كما ينص عليه الكتاب المقدس، وقد أحال ركوب الجمال من قبل على طبيعة المنطقة التي يوجد بها بيت الله باعتبارها منطقة صحراوية يتنقل الناس فيها على الجمال. ٨) الرحلة أو السعي، إن كل مناسك الحج إنما هي عبارة عن سعي متوال بين كل هذه المناسك من جهة لأداء طقوس العبادة؛ وفيها أماكن محددة لسعي خاص قد يكون طوافاً على أشواط متوالية، أو سعياً بين الصفا والمروة في سبعة أشواط كذلك، أو مشياً لرمي الجمار أو غيرها. ٩) الأمن، إن أهم ما يميز هذا المكان هو الأمن والسلام سواء للعاكف أو البادي، وهو الذي نجد الحديث عنه في نصوص كثيرة بطرق مختلفة، تؤكد أن هذا البلد هو البلد الأمين الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، ومن دخله كان آمناً بينما يتخطف الناس من حوله في غيره من البلاد.

هذه هي بعض تفاصيل طقس الصعود إلى بيت إيل، التي جعلها الله فريضة دهرية وعيداً سنوياً يقام من سنة إلى سنة في المكان الذي اختاره الله من أول يوم وإلى آخر الأيام؛ والذي لا نعرفه واقعياً إلا في مكان واحد في الأرض هو «بكة» التي بقيت محتفظة بكل هذه الشعائر إلى يومنا هذا، وهي تقام في المكان نفسه من سنة إلى سنة إلى هذا اليوم. وهي ما زالت كما كانت ، لم يتغيّر منها شيء، وإنما أصبحت عامرة أكثر من أي وقت مضى، خلافاً لكل المواضع المدّعاة أنها «بيت إيل»، إذ لا شيء فيها يوحي لا بعبادة قديمة ولا حديثة، ولا فيها تحقيق لعهد ولا لمواعيد، وإنما هي أهواء قوم

أرادوا أن يجعلوا لبيت الله بيتاً ضراراً للإغاظة، لكن من غير سلطان مبين، والله بكل شيء عليم.

٣ - مع القرآن الكريم

٣ - إن القرآن الكريم وهو يدفعنا إلى إعادة تلاوة الكتاب المقدس يقدّم لنا مقترحات أساسية تعين على هذه التلاوة من أجل استرجاع الأبعاد الأساسية المكتومة والمخفية في الكتاب، والملبس فيها الحق بالباطل بدون علم أحياناً وعن علم أحياناً أخرى؛ ولأن مجال المدارسة محدود، فإننا سنكتفي بهذا القدر في بيان بُعد الدين والملة الإبراهيمية العالمية التي تنبني على تعظيم شعائر الله وحرماته في المكان الذي اختاره، وسنورد على ذلك مجموعة من النصوص القرآنية الدالة عليه.

قال تعالى عن أهل الكتاب بعد ذكره لأول بيت وضع للناس: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ (سورة آل عمران).

إن هذا النص يجمع بين بيت الله الحرام وآياته البينات وبين كفر أهل الكتاب بهذه الآيات وهم شهداء؛ ولم نجد من العلماء والفقهاء والمفسرين من وقف عند هذا الربط بين بيت الله الذي كان أول بيت وضع للناس وما فيه من آيات بينات وبين كفر أهل الكتاب وهم شهداء.

وفي الحديث عن الصفا والمروة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ

لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ (سورة البقرة).

يشير هذا النص إلى مستوى آخر لم ينتبه إليه المفسّرون المسلمون، وهو ما يقوم به الذين يكتمون ما أنزل الله من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنه الله في الكتاب، وأولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.

أي كتاب يتحدث عنه هذا النص؟ ومن هم هؤلاء الكاتمون للحق المبين في هذا الكتاب؟ وما علاقة ذلك بشعائر الله وخصوصاً الصفا والمروة؟ لم يتحدث المفسرون والعلماء والفقهاء المسلمون كثيراً عن كل هذه الأسئلة السالفة الذكر؛ غير أننا نعلم أن كل كلمة في هذا النص تثير قضية في غاية الأهمية ينبغي لقارئي القرآن، وكان ينبغي لهم من قبل، أن يأخذوها بالاعتبار؛ فالكتاب الذي بيّنه الله للناس هو الكتاب السابق على محمد صلى الله عليه وسلم، بما يحويه من أسفار مختلفة أنزلت على الأنبياء، بيّن فيه الله ما أنزل من البيّنات والهدى، ومنها موضوع الصفا والمروة وشعائر الله الأخرى؛ لكن الذين يكتمون ما أنزل الله أرادوا إخفاءه وكتمانه عن الناس، بأساليب مختلفة، فأولئك هم الملعونون من الله واللاعنين من الملائكة ومن الناس إلا إذا تابوا وأصلحوا وبيّنوا والله تواب رحيم، وإلا فسيكونون في النار مع الخالدين.

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ

عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ (سورة البقرة).

مناقشة موضوع القبلة من أهم المناقشات التي أوردها القرآن الكريم، معتبراً مثيري هذا الموضوع من أهل الكتاب «السفهاء من الناس»، وهو يرتبط بتعريفه السابق في نفس السياق «من سفه نفسه»؛ فالسفهاء هم الذين رغبوا عن ملة إبراهيم، وإبراهيم هو باني البيت وخادمه الأول وإمامه والمؤذن في الناس بالحج ليأتوا إليه على كل ضامر من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم، وليأخذوا عنه مناسكهم، وليسلموا وجوههم لله رب العالمين، ومن تنكر لهذا الموضوع بما يحمله من اعتقاد وتوحيد وعبادة فقد سفه نفسه لأنه رغب عن دين الله الذي أسّسه إبراهيم.

إن القبلة التي كان عليها أتباع محمد عندما هاجروا إلى المدينة، لم تكن إلا قبلة أهل الكتاب، وكانت امتحاناً للمؤمنين الأوائل بمحمد، إلى أي حد يتعلق إيمانهم بالله ورسوله؟ وإلى أي حد هم مستعدون لترك أعرافهم وتقاليدهم التي منها التوجه إلى البيت الحرام؟ أم أن ارتباطهم بتقاليدهم سيكون أقوى فينقلبون على أعقابهم عندما يؤمرون بتغيير قبلتهم؟ لقد نجحوا في الامتحان واتبعوا الرسول الذي صلى معهم إلى قبلة أهل الكتاب؛ لكنهم جميعاً كانت تتقلب وجوههم في السماء بحثاً عن القبلة الحق، وانتظاراً للأمر الإلهي فيها؛ إلى أن جاء الأمر بالتحول إلى البيت الحرام لأنه القبلة الحق

التي اختارها الله مع إبراهيم من قبل وارتضاها رسوله، قبل الهجرة وبعد الأمر الإلهي بالعودة إليها، وأما قبلة أهل الكتاب فلم تكن إلا هوى خالفوا به أوامر الله من قبل ومن بعد، وهم غير مستعدين بأي وجه من الوجوه لاتباع القبلة الإبراهيمية والربانية والمحمدية وإن أتيتهم بكل آية؛ ولذلك فهم السفهاء الذين رغبوا عن ملة إبراهيم وقبلته ومناسكه، وسيقولون للمؤمنين ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ (سورة البقرة).

يستمر القرآن في عرض موضوع القبلة، مبيّناً أن أهل الكتاب يعرفون هذا الموضوع معرفة جيدة كما يعرفون أبناءهم لكن فريقاً منهم يكتم الحق وهو يعلم، والباقي فهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني ويردّدون ما يقوله أئمتهم دون علم ولا تعقل.

المطلوب من المؤمنين إذاً أن يعملوا على شاكلتهم وأن يتوجهوا بصلاتهم شطر المسجد الحرام، وحيثما خرجوا يتوجّهون إلى المسجد الحرام؛ ولعل في تكرار المعنى إشارة إلى الواقع التاريخي الذي كان على العهد النبوي،

فقبل الهجرة لما كان المؤمنون عند البيت الحرام كانوا يتوجهون إلى هذا البيت بالصلاة شأن باقي المصلين قبل البعثة وبعدها، ولكنهم عندما خرجوا إلى المدينة توجهوا إلى قبلة أهل الكتاب، وهو ما اتخذه أهل الكتاب حجة ضدهم، فكان التأكيد القرآني على هذه المسألة وبياناً لسببها: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ (سورة البقرة).

هكذا إذاً يصبح بيت الله الحرام الذي بناه إبراهيم، ويصبح الحج إليه وتعظيم شعائره وحرماته والاتجاه إليه بالصلاة من جملة الملة الإبراهيمية، لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه في الدنيا والآخرة.

هناك نصوص قرآنية عديدة ناقشت أهل الكتاب في دعاواهم العنصرية والمذهبية الباطلة التي نسبت إلى إبراهيم، وردّتهم إلى ما أنزل الله في الكتاب وطلبت منهم أن يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، ودعتهم إلى الملة الإبراهيمية الواحدة، التي لا تنفك فيها العقيدة عن الشريعة والتوحيد عن المناسك، وإلى الكلمة السواء التي تجمعهم مع المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وهناك إصرار كتابي على إبعاد غير اليهود من الإرث، بدءاً من بكر إبراهيم الذي أخرج هو وأمه لئلا يرث مع أخيه إسحاق، ومروراً بنزع البركة من عيسو حتى لا ينافس أخاه يعقوب، وانتهاءً بطرد جميع الشعوب وإبادتها حتى يتمكن أسباط الشعب المختار من تقسيم أرض الميعاد؛ ويقابل هذا الإصرار الكتابي هناك إصرار قرآني على وحدة الملة والدين والمناسك والبركة والقيم والنفس الإنسانية وعلى إعادة بناء المفاهيم الدينية وفقاً لهذه الوحدة.



الفصل الخامس

قصة الأسباط



يتناول هذا الفصل موضوع الأسباط في التوراة والقرآن؛ وقد تحدثنا فيه عن معنى السبط في النص التوراتي ومعناه في القرآن، وما هي الإضافة النوعية القرآنية في هذا الموضوع، حيث أعادنا القرآن الكريم إلى المعنى الأساسي للسبط، الذي يتعلق بالفرع المباشر، والمقصود به الآباء الأسباط الاثنا عشر؛ ثم تعرضنا لحديث القرآن عن الوحي والوصايا التي جاءتهم، وكيف أن النص التوراتي القانوني أغفلها، مقابل حضورها في الأدبيات اليهودية والمسيحية الأخرى؛ وأوردتها نصوص من وصايا الأسباط؛ كما بيّنا التحيّز الواضح في النصوص القانونية لسبط يهوذا على حساب باقي الأسباط، وانتقلنا بعد ذلك إلى سبط هارون وعلاقته بالسامري، ورأينا المراجعة القرآنية في هذا الأمر؛ ثم انتقلنا إلى الحديث عن سبط يهوذا وداود، وسبط هارون في المسيحية، والمراجعة القرآنية للموضوع؛ وخلصنا إلى أن للقرآن الكريم اقتراحات إنسانية أساسية ينبغي الانتباه إليها.

معنى السبط والأسباط في التوراة

وردت لفظة سبط («שבט» «شبط») باللغة العبرية مئة وتسعين (١٩٠) مرة في أسفار العهد القديم، وفقاً لنظام الترقيم الذي جعله سترونغ في معجمه

لكامل الكتاب المقدس[١]، والمعتمد في نسخة الملك جيمس القانونية ومعجمها[٢]:

أربعاً وثمانين (٨٤) مرة بمعنى: قبائل أو جماعات بالجمع، و(٥٧) مرة بمعنى قبيلة أو جماعة بالمفرد، وترجمت إلى العربية في الموضعين، بأسباط وسبط، في ترجمة سميث وفان ديك العربية[٣].

وجاءت تسعاً وأربعين (٤٩) مرة بغير لفظ السبط في العربي: أربعاً وثلاثين (٣٤) مرة منها بمعنى «عصا»، وتسع (٩) مرات بمعنى «قضيب» أو «غصن» أو «فرع»، وست (٦) مرات الباقية، توزعت بين معنى أغصان بالجمع وتأديب وسهام وقلم.

ففي معنى السهام ترجم النص إلى العربية هكذا: «فَقَالَ يُوآبُ: «إِنِّي لاَ أَصْبِرُ هكَذَا أَمَامَكَ». فَأَخَذَ ثَلاَثَةَ سِهَامٍ («שבטים» «شبطيم» جمع «שבט» «شبط» أي سبط) بِيَدِهِ وَنَشَّبَهَا فِي قَلْبِ أَبْشَالُومَ وَهُوَ بَعْدُ حَيٌّ فِي قَلْبِ الْبُطْمَةِ»[٤].

وفي معنى القلم، ترجمت الكلمة في نسخة الملك القانونية الإنجليزية: بـ«قلم الكاتب»:

and out of Zebulun they that handle the pen «בשבט» of the writer.[٥]

لكنها ترجمت في العربية بقضيب أو صولجان القائد:

وَمِنْ زَبُولُونَ مَاسِكُونَ بِقَضِيبِ الْقَائِدِ («בשבט ספר»)[٦].

---

(١) Strong's Exhaustive Concordance of the Bible

(٢) King James Concordance

(٣) The Smith & Van Dyke Arabic Bible (1865)

(٤) سفر صموئيل ٢، إصحاح ١٨، عدد ١٤.

(٥) سفر القضاة، إصحاح ٥، عدد ١٤.

(٦) سفر القضاة، إصحاح ٥، عدد ١٤.

انطلاقاً من هذه المعاني المختلفة للفظة سبط وأسباط العبرية («شبط» «שבט» و«شبطيم أو شبطي» «שבטים أو שבטי»)، نجدها تتمحور حول معنى أساسي، هو القبيلة أو القبائل والجماعة أو الجماعات؛ والمقصود بالتحديد هنا قبائل وجماعات بني إسرائيل الاثنتا عشرة؛ وللربط بين هذا المعنى الاجتماعي للسبط والأسباط الذي يعني القبيلة والجماعة، وبين معاني أشياء طبيعية مثل العصا والقضيب والغصن والفرع وحتى السهم والقلم؛ ندرك رابط الأصل والفروع التي تتكاثر كلما ابتعدت عنه في الأشجار، وفروع هذه الأشجار هي التي تعطينا العصا والقضيب والفرع والغصن وحتى السهم والقلم، وكلها يطلق عليها «شبط» في اللغة العبرية؛ وكذلك الأمر بالنسبة للأب وفروعه التي تتكون منها العشائر ثم القبائل ثم شعوب بأكملها كلما طال الزمن؛ والأب المقصود هنا هو يعقوب أو إسرائيل، وفروعه هم بنو إسرائيل بجماعاتهم الاثنتي عشرة الذين يسمّون أسباطاً؛ بدءاً من الأبناء المباشرين وانتهاءً بآخر التجمعات البشرية.

ورغم أن أغلب استعمال لفظة الأسباط كان في بني إسرائيل، فقد استعملت أحياناً في غيرهم، من ذلك استعمالها للدلالة على قبائل مصر:

رُؤَسَاءُ صُوعَنَ صَارُوا أَغْبِيَاءَ. رُؤَسَاءُ نُوفَ انْخَدَعُوا. وَأَضَلَّ مِصْرَ وُجُوهُ أَسْبَاطِهَا[(١)].

واستعملت في بيان قبائل سبط واحد، من ذلك ما جاء في بني بنيامين :

وَأَرْسَلَ أَسْبَاطُ إِسْرَائِيلَ رِجَالاً إِلَى جَمِيعِ أَسْبَاطِ بَنْيَامِينَ قَائِلِينَ مَا هذَا الشَّرُّ الَّذِي صَارَ فِيكُمْ[(٢)].

---

(١) سفر أشعياء، إصحاح ١٩/ ١٣.

(٢) سفر القضاة، إصحاح ٢٠/ ١٢.

وما جاء في سبط منسى وسبط أفرايم، وهما ابنا يوسف، فقد ذكرا ما يزيد على ثلاثمئة مرة في أسفار العهد القديم.

وما جاء في سبط القهاتيين الذين هم فرع من اللاويين، يقومون بالخدمة لكنهم لا يُسمح لهم برؤية قدس الأقداس، الذي لا يحل الدخول إليه إلا لسبط الهارونيين وهم فرع من اللاويين كذلك:

وَأَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ: (١٨) «لا تَقْرِضَا سِبْطَ عَشَائِرِ الْقَهَاتِيِّينَ مِنْ بَيْنِ اللاوِيِّينَ. (١٩) بَلِ افْعَلا لَهُمْ هَذَا فَيَعِيشُوا وَلا يَمُوتُوا عِنْدَ اقْتِرَابِهِمْ إِلى قُدْسِ الأَقْدَاسِ. يَدْخُلُ هَارُونُ وَبَنُوهُ وَيُقِيمُونَهُمْ كُل إِنْسَانٍ عَلى خِدْمَتِهِ وَحِمْلِهِ (٢٠) وَلا يَدْخُلُوا لِيَرَوا القُدْسَ لحْظَةً لِئَلا يَمُوتُوا»[١].

وأما عن مكونات السبط، فيمكن أخذها من مجموعة من النصوص:

منها ما جاء في سفر يشوع في معرض البحث عن رجل آثم من بني إسرائيل في أسباط بني إسرائيل قال:

«فَتَتَقَدَّمُونَ فِي الْغَدِ بِأَسْبَاطِكُمْ، وَيَكُونُ أَنَّ السِّبْطَ الَّذِي يَأْخُذُهُ الرَّبُّ يَتَقَدَّمُ بِعَشَائِرِهِ، وَالْعَشِيرَةُ الَّتِي يَأْخُذُهَا الرَّبُّ تَتَقَدَّمُ بِبُيُوتِهَا، وَالْبَيْتُ الَّذِي يَأْخُذُهُ الرَّبُّ يَتَقَدَّمُ بِرِجَالِهِ»[٢].

«فَبَكَّرَ يَشُوعُ فِي الْغَدِ وَقَدَّمَ إِسْرَائِيلَ بِأَسْبَاطِهِ، فَأُخِذَ سِبْطُ يَهُوذَا. (١٧) ثُمَّ قَدَّمَ قَبِيلَةَ يَهُوذَا فَأُخِذَتْ عَشِيرَةُ الزَّارَحِيِّينَ. ثُمَّ قَدَّمَ عَشِيرَةَ الزَّارَحِيِّينَ بِرِجَالِهِمْ فَأُخِذَ زَبْدِي. (١٨) فَقَدَّمَ بَيْتَهُ بِرِجَالِهِ فَأُخِذَ عَخَانُ بْنُ كَرْمِي بْنِ زَبْدِي بْنِ زَارَحَ مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا»[٣].

---

(١) سفر العدد، إصحاح ٤/ ١٧-٢٠.
(٢) سفر يشوع، إصحاح ٧/ ١٤.
(٣) سفر يشوع، إصحاح ٧/ ١٦-١٨.

فالسبط في هذا العهد، كان قبيلة كبيرة تتكون من عدة عشائر كل عشيرة تضم عدة بيوت ولكل بيت رجاله.

إلا أنه قد ورد في إحدى المرات إشارة غير قوية إلى الأسباط، أو أسباط الرب بمعنى آباء بني إسرائيل، وإن كان المعنى يحتمل جماعات بني لإسرائيل كذلك، في المزمور ١٢٢، الذي يتحدث عن الصعود إلى بيت الله، الذي صعد إليه الآباء ليحمدوا الرب فيه، يقول:

«حَيْثُ صَعِدَتِ الأَسْبَاطُ أَسْبَاطُ الرَّبِّ شَهَادَةً لإِسْرَائِيلَ لِيَحْمَدُوا اسْمَ الرَّبِّ. (٥) لأَنَّهُ هُنَاكَ اسْتَوَتِ الْكَرَاسِيُّ لِلْقَضَاءِ كَرَاسِيُّ بَيْتِ دَاوُدَ»[١].

وخلاصة القول أن أغلب ما يعنيه لفظ سبط وأسباط في أسفار العهد القديم القانونية، هو فرع وفروع بني إسرائيل الاثنا عشر التي كونت قبائلهم وعشائرهم المختلفة عبر التاريخ، خصوصاً بعد الخروج من مصر. أما قبل ذلك فلم تتكون عشائر بني إسرائيل وقبائلهم بعد. ولتأكيد هذا المعنى نرجع إلى ترتيب استعمال أسفار الكتاب المقدس للفظة «أسباط»:

لم يبدأ استعمال لفظ الأسباط في أسفار العهد القانونية إلا في آخر سفر التكوين في الإصحاح التاسع والأربعين، عند الحديث عن وصية يعقوب لأبنائه، وقد ذكر هذا اللفظ مرتين في هذا الإصحاح، مرة عن دان الابن الرابع ليعقوب، حيث قال عنه يعقوب وهو يباركه: «دَانُ يَدِينُ شَعْبَهُ كَأَحَدِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ»[٢].

ومرة عن الأبناء الاثني عشر، قال:

«جَمِيعُ هَؤُلاءِ هُمْ أَسْبَاطُ إِسْرَائِيلَ الاثْنَا عَشَرَ. وَهَذَا مَا كَلَّمَهُمْ بِهِ أَبُوهُمْ

---

(١) مزمور ١٢٢، عدد ٤-٥.

(٢) سفر التكوين ٤٩/١٦.

وَبَارَكَهُمْ. كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ بَرَكَتِهِ بَارَكَهُمْ»[١٧٣].

والملاحظ أن كل المترجمين الذين اطلعت على ترجماتهم للفظة «أسباط» إلى اللغات اللاتينية ترجموها بقبائل؛ وأنا أعتقد أنه ينبغي تركها على أصلها في اللغة العبرية، الذي يعني فروع «שבטי»؛ والفروع في فترة نبي الله يعقوب لم تمتد بعد لتصير إلى قبائل أو عشائر أو حتى عشيرة واحدة، وإنما يمثلون بأجمعهم عائلة واحدة كبيرة، أو ما يسمّى بيتاً، تتكوّن من اثني عشر رجلاً وأزواجهم وأبنائهم، وهم لا يتجاوزون مئة إنسان عندما طلب منهم يوسف أن يأتوه إلى مصر بأهلهم أجمعين، ليسكنوا هنالك:

«وَهَذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مِصْرَ. مَعَ يَعْقُوبَ جَاءَ كُلُّ إِنْسَانٍ وَبَيْتُهُ. (٢) رَاوبَيْنُ وَشَمْعُونُ وَلاوِي وَيَهُوذَا (٣) وَيَسَّاكَرُ وَزَبُولُونُ وَبِنْيَامِينُ (٤) وَدَانُ وَنَفْتَالِي وَجَادُ وَأَشِيرُ. (٥) وَكَانَتْ جَمِيعُ نُفُوسِ الْخَارِجِينَ مِنْ صُلْبِ يَعْقُوبَ سَبْعِينَ نَفْساً. (وَلَكِنْ يُوسُفُ كَانَ فِي مِصْرَ)»[١].

وبناءً على ذلك، فإن لفظة «أسباط» لا تعني في هذا السياق إلا الأبناء الذين كان يكلمهم أبوهم يعقوب؛ حيث جاء في النص:

«وَدَعَا يَعْقُوبُ بَنِيهِ وَقَالَ: «اجْتَمِعُوا لأُنْبِئَكُمْ بِمَا يُصِيبُكُمْ فِي آخِرِ الأَيَّامِ. (٢) اجْتَمِعُوا وَاسْمَعُوا يَا بَنِي يَعْقُوبَ وَأَصْغُوا إِلَى إِسْرَائِيلَ أَبِيكُمْ.»[٢]؛ وكان يوصي كل ابن باسمه؛ وهو ما يؤكد أن لفظة «أسباط» تعني الفروع المباشرة، الذين هم الأبناء، قبل أن تعني الفروع الممتدة التي ستصبح عشائر وقبائل وأمماً في ما بعد.

---

(١) سفر التكوين ٤٩/٢٨.

(٢) سفر الخروج، الإصحاح ١، عدد ١-٥.

(٣) سفر التكوين ٤٩/١-٢.

السبط أو الأسباط في القرآن

لم ترد لفظة سبط بالمفرد في القرآن الكريم؛ ووردت لفظة أسباط جمعاً خمس مرات، واحدة منها تتوافق مع المعنى التوراتي الذي يعني جماعات من الناس وأمماً، والمقصود به أسباط بني إسرائيل الاثنا عشر؛ قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ (سورة الأعراف).

غير أن النص القرآني في إيراده لمفردة الأسباط في المواضع الأربعة الأخرى منه، تناولها تناولاً مختلفاً؛ انتقل فيه من المعنى البعيد للسبط، المذكور في النص السابق، والذي يفيد فروع بني إسرائيل الذين أصبحوا جماعات وأمماً؛ إلى المعنى القريب للسبط الذي يفيد الفروع المباشرة ليعقوب، والمعني بهم الآباء الكبار عند بني إسرائيل وأممهم.

ذكر القرآن الكريم أن الوحي الذي جاء محمداً هو عينه الوحي الذي أنزل على الأنبياء بمن فيهم الآباء الكبار لبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (سورة النساء).

ورغم أن النص التوراتي الحاخامي القانوني قد أغفل تماماً الحديث عن أبناء يعقوب باعتبارهم قد تلقوا وحياً من الله، إلا أن نصوصاً كتابية عديدة أكدت على هذه الأمر ونقلت إلينا وصاياهم ومواعظهم التي تعد من الأدبيات

الأساسية في التراث اليهودي الشفوي والتلمودي.

كذلك أمر القرآن المؤمنين به بالإيمان بالله وجميع ما أنزله على الرسل والأنبياء بمن فيهم الأسباط عليهم الصلاة والسلام، دون التفريق بين أحد منهم. واعتبر ذلك هو دين الإسلام الذي لا يرغب عنه إلا السفهاء من الناس. قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (سورة آل عمران).

وفي جوابه على دعوى اليهود والنصارى أن الهداية في أتباع أديانهم فقط، اعتبر أن أحسن ملة هي ملة إبراهيم التي يُعترَف فيها بجميع الأنبياء والرسل وما أنزل إليهم من غير تفريق بينهم ، بما في ذلك الأسباط؛ وأن تلك هي الهداية وغيرها هو الشقاق الذي ينبغي توكيل أمره إلى الله. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ (سورة البقرة).

وفي رده على دعوى اعتبار الأسباط يهوداً أو نصارى، استنكر على علمائهم كتمان الشهادة عندهم من الله؛ وذكرهم بأن كلاً من الأمم سيتحمل مسؤولية كسبه، ومن ثم فلن ينفعهم محاولة الانتماء إليهم بشيء ولو صحت؛

قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾ (سورة البقرة).

ثم دحض حججهم في الأمر مبيّناً أن التوراة والإنجيل إنما أنزلا بعد مجيء هؤلاء الآباء، وهو ما ينفي عنهم أنهم كانوا يهوداً أو نصارى. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ (سورة آل عمران).

إن القرآن الكريم في هذه المواطن الأربعة التي ذكر فيها الأسباط نقلهم من حالة التقطيع والانفكاك عن الوحي والدخول في الشتات ثم الذلة والسبي إلى مرحلة الآباء والنبوة والوحي والعهد؛ وربط بين الأسباط وما أنزل إليهم وعليهم وما أوحي لهم وبين مسيرة الوحي من أول نبي ورسول إلى آخر الأنبياء؛ وأعاد الذكر والاعتبار للبعد التأسيسي الديني للآباء الذي نسيه أو غفل عنه أو أخفاه بنو إسرائيل من النص التوراتي الحاخامي القانوني.

وإن لدينا في هذه النصوص العديد من الشواهد على صحة ما نذهب إليه، ومن ذلك ما جاء في العهد إلى لاوي الابن المعهود إليه بالكهنوت، كما تذكره نصوص قانونية وغير قانونية متعددة؛ ومنها ما جاء في سفر ملاخي؛ حيث وجه الله وصيته إلى الكهنة مباشرة، الذين لا يسمعون ولا يجعلون في القلب تعظيماً، ليعطوا لاسم الرب مجداً؛ لأنهم حادوا عن

الطريق، وأعثروا كثيرين بالشريعة، وأفسدوا عهد لاوي أبيهم، الذي كان عهد الله معه للحياة والسلام، وأعطاه إياهما للتقوى، فاتقاه ومن اسمه ارتاع، حيث إن «شريعة الحق كانت في فمه، وَإِثْمٌ لَمْ يُوجَدْ فِي شَفَتَيْهِ. سَلَكَ مَعِي فِي السَّلاَمِ وَالاسْتِقَامَةِ وَأَرْجَعَ كَثِيرِينَ عَنِ الإِثْمِ. (٧) لأَنَّ شَفَتَي الْكَاهِنِ تَحْفَظَانِ مَعْرِفَةً وَمِنْ فَمِهِ يَطْلُبُونَ الشَّرِيعَةَ لأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْجُنُودِ»؛ وكانت عقوبته لهم أن صيرهم محتقرين ودنيئين عند كل الشعب لأنهم لم يحفظوا طرقه وحادوا في الشريعة[1].

إن هذا النص القانوني لا يزال محتفظاً بالأبعاد الدينية الأساسية، وإن كانت الأسفار القانونية عموماً قد خَفَتَ فيها بُعد التقوى والوحي والآخرة بسبب مذهب الكتبة والصدوقيين، الذي كان يركز على بُعد استعادة المملكة في الأرض، وغلبة الأمم الأخرى، وطردهم وامتلاك أراضيهم في الدنيا؛ وبذلك تحولت كل النصوص المتحدثة عن أرض الميعاد وإرثها في يوم الميعاد من طرف عباد الله الصالحين، إلى وعود أرضية للشعب المختار تتحقق في الزمن الأرضي عندهم. وتغيب عمداً، الآخرة والبعث والجزاء والعقاب.

إن هذا المذهب الأرضي الذي كان يقوده طلاب المُلك وخصوصاً بنو يهوذا، قد استبعد الأبعاد الدينية الأساسية، بما فيها بعد العبادة وخدمة البيت، الذي كان مخصصاً لبني لاوي، حسب المقولات اليهودية نفسها؛ ولذلك لم تتحدث الأسفار القانونية عن الآباء الأوائل بما يفيد أنهم أنبياء أوحي إليهم، وتلقوا كتباً مقدسة؛ بما في ذلك الأب لاوي، الذي كان عهد الله معه للحياة والسلام، وأعطاه الله إياهما للتقوى، والذي اتقى الله ومن اسمه ارتاع، حيث إن «شريعة الحق كانت في فمه، وَإِثْمٌ لَمْ يُوجَدْ فِي شَفَتَيْهِ.

---

(١) انظر سفر ملاخي، الإصحاح ٢، عدد ١-٩.

سَلَكَ مَعِي فِي السَّلاَمِ وَالاِسْتِقَامَةِ وَأَرْجَعَ كَثِيرِينَ عَنِ الإِثْمِ.»[١]؛ ومقابل ذلك نجد مباركته من طرف أبيه يعقوب، عبارة عن لعنات وشتائم في حقهما عليهما السلام، حيث يقول عنهما: «شَمْعُونُ وَلاوِي أخوان. آلات ظُلْمٍ سُيُوفُهُمَا. (٦) فِي مَجْلِسِهِمَا لا تَدْخُلُ نَفْسِي. بِمَجْمَعِهِمَا لا تَتَّحِدُ كَرَامَتِي. لأَنَّهُمَا فِي غَضَبِهِمَا قَتَلا إنساناً وَفِي رِضَاهُمَا عَرْقَبَا ثَوْراً. (٧) مَلْعُونٌ غَضَبُهُمَا فَإِنَّهُ شَدِيدٌ وَسَخَطُهُمَا فَإِنَّهُ قَاسٍ. أَقَسِّمُهُمَا فِي يَعْقُوبَ وأفرقهما فِي إسرائيل»[٢].

وهو ما يعني أن المذهب المتسلط، مذهب سبط يهوذا، الذي يفترض أن يكون فيه الملك، قد جعل الكتاب المقدس يسير في اتجاهه على حساب باقي الأسباط الأحد عشر؛ ويشهد على ذلك؛ مقدار ذكر يهوذا مقابل ذكر باقي الأسباط: لقد ذكر يهوذا وسبطه وحده ما يزيد عن ثمانمئة مرة في أسفار العهد القديم؛ أغلبها تعظيم وتمجيد ومباركة وشهادة بالنصر والنجاح والملك والسلطة لهذا السبط؛ بينما لم يُذكر مجموع الأسباط الاثني عشر إلا قريباً من تسعمئة مرة، مع ما شمله هذا الذكر من اللعنة، والبخس أو الانتقاص من باقي الأسباط.

وصايا الأسباط

إن الكتب المقدسة الواردة عند بعض المذاهب غير الرسمية ومنهم الأسينيون، وإن اعتبرت منحولة عن المذهب الرسمي، تستحضر لنا تلكم الأبعاد الخافتة والمخفية والمبعدة عن النص القانوني؛ ومنها ما ورد في وصايا الآباء الاثني عشر.

---

(١) انظر سفر ملاخي، الإصحاح ٢، عدد ١-٩.

(٢) انظر سفر تكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٥-٧.

وإن المتأمل في هذه الوصايا ليكتشف كثيراً من الحقائق التي هي من صميم الوحي الذي أوحي إلى الأسباط، والذي بيّنه القرآن الكريم، ورأينا بعضه في النص القانوني في الحديث عن عهد الله مع لاوي؛ وسأقتصر في هذه الدراسة على نقل وصية أو وصيتين من وصاياهم، كما وردت في النصوص المنسوبة إليهم.

١ - وصية رأوبين

سنبدأ حديثنا عن وصايا الشيوخ الاثني عشر بوصايا رأوبين الابن الأكبر ليعقوب، وسنختار منها وصيته عن **الفسق ومعاشرة النساء**، باعتبار رأوبين قد ارتكب هذه الفاحشة التي ظلت تطارده إلى يوم احتضاره، فكانوا يوصي أبناءه باجتنابها؛ قال عليه السلام: «فلا تعيروا إذن يا أبنائي انتباهاً لجمال النساء، ولا تنشغلوا بأمورهن، بل سيروا في بساطة القلب، وفي مخافة الرب، مكرسين أنفسكم للأعمال الحسنة وللدراسة ولقطعانكم، حتى يعطيكم الرب الزوجة التي يرضاها، حتى لا تقعوا في تجاربي المحزنة. لأنه حتى وفاة أبي، لم أجرؤ على النظر إليه مواجهة أو التحدث مع كل من إخوتي بسبب لومهم. وحتى الآن فإن شعوري بخطيئتي يعذبني. ومع ذلك فقد واساني أبي وتشفع لي عند الرب، حتى يبعد عني غضب الرب كما بينه لي الرب. ومذاك فقد ندمت وانتبهت ولم أعد أخطئ.

ولهذا يا أبنائي فإنني أقول لكم احفظوا كل ما أوصيكم به ولن تخطئوا.

الفسق هو هاوية النفس، وهو يبعد عن الله ويقرب من الأصنام، لأنها هي التي تضل الروح والفكر لكي تنزل الشبان إلى الشيؤل (الهاوية) قبل أوانهم. لقد كان الفسق فقداناً للكثير. أكان الإنسان معمراً أو نبيلاً. فإنه يجعل من نفسه موضوع عار وسخرية بالنسبة لبلعار (الشيطان) ولأبناء

الإنسان. فلأن يوسف حفظ نفسه من كل امرأة، وطهر أفكاره من كل فسق إنما وجد النعمة لدى الله والبشر. لأن المصرية قامت بجهود كبيرة، واستقدمت السحرة، وقدمت له مشاريب الحب، لكن نازع روحه لم يتأثر بالرغبة الشريرة. ولهذا فقد حرره إله آبائكم من كل شر ومن موت غامض. لأنه إذا لم يخضع الفسق فكركم فإن بلعار أيضاً لا يستطيع إخضاعكم[1].

«فاحفظوا أنفسكم إذن من الفسق، وإذا أردتم أن تكونوا أنقياء بالفكر، فاحفظوا أيضاً أحاسيسكم من كل امرأة. امنعوهن من التواجد فرداً لفرد مع الرجال، حتى يكن هن أيضاً نقيات بالفكر. لأن اللقاءات المستمرة، حتى إذا لم يقترف فيها الفعل الكافر، هي بالنسبة لهم مرض عضال، وبالنسبة لنا تدمير من بلعار في عار أبدي. لأن الفسق لا يملك ذكاءً ولا ورعاً، بل إن كافة أنواع الغيرة تكمن في رغبته»[2].

٢ - وصية شمعون

سنختار من وصايا شمعون وصيته عن **الغيرة**، يقول عليه السلام:

«والآن يا أبنائي، فاحفظوا أنفسكم من أرواح الضلال والغيرة. فالغيرة تتسلط على فكر الإنسان، ثم لا تتركه يأكل ولا يشرب ولا يعمل أي عمل حسن، بل تحرضه دائماً على قتل الذي يغار منه، والذي يغار منه يزدهر باستمرار، في حين أن الغيور يتلف نفسه. وقد أمت روحي بالصيام طيلة سنتين في خشية الله، وعرفت أن التحرر من الحسد يتأتى من مخافة الله. لأنه إذا لجأ أحد إلى الله فإن الروح الشرير يهرب بعيداً عنه، ويصبح فكره مرتاحاً. ويكون له من الآن فصاعداً رحمة بالنسبة للذي كان يغار منه، ولا

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣١٥.
(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣١٦.

يؤنب الذين يحبونه، ويكف هكذا أن يكون غيوراً»[١].

«لقد سألني أبي، لأنه رآني حزيناً، وقلت له إنني أتألم من الكبد. كنت أئن في الواقع أكثر من جميع الآخرين، لأنني أنا كنت مسؤولاً عن بيع يوسف. وعندما نزلنا إلى مصر وسجنني كجاسوس، عرفت أنني أتألم بحق ولم أعد أئن. كان يوسف رجلاً طيباً، وكان فيه روح الله وكان رؤوفاً رحيماً؛ فلم يحفظ لي ضغينة، بل أحبني مثل إخوته الآخرين. فاحفظوا أنفسكم إذاً يا أبنائي من كل حسد وغيرة، وسيروا في بساطة الروح بقلب مليء بالطيبة، متمثلين أخا أبيكم، حتى يعطيكم الله أنتم أيضاً النعمة والمجد والبركة على رؤوسكم، كما يمكنكم أن تروا مثال ذلك في حالة يوسف. فهو لم يلمنا على هذا الأمر يوماً واحداً، بل أحبنا مثل نفسه وكرمنا مثل أبنائه، وأعطانا الخيرات والقطعان والغلال»[٢].

«وأنتم أيضاً يا أبنائي، فليحب كل أخاه بقلب مليء بالطيبة، وروح الغيرة تستبعد عنكم. لأن هذه الروح تجعل النفس هائجة، وتفسد الجسد، وتسلم النازع للغضب والحرب، وتدفع إلى الجريمة، وتقود الفكر إلى الهذيان، وتترك النفس مضطربة والجسم هلعاً. لأنه حتى خلال النوم فإن غيرة خبيثة تسيء إليه وتتأكله؛ وهي تشوّش نفسه بواسطة أرواح شريرة، وتجعل جسمه يرتجف، وتوقظ فكره بجعله مضرباً، فهي إذاً تظهر للبشر مثل روح شريرة وخبيثة.

ولهذا كان يوسف لطيف الهيئة وجميل المظهر، لأن لا شيء شريراً كان يسكن فيه؛ إن الوجه يكشف في الواقع عن بعض اضطراب النفس»[٣].

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٢٤.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٢٥.

(٣) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٢٥.

٣ - وصية لاوي

سنختار من وصايا لاوي نبوءته عن **الكاهن الأخير** عندما ينقضي الكهنوت؛ فبعد أن يتحدث الأب لاوي عن نبوءات مستقبلية تتعلق بالكهنة، سيتحدث عن نهاية الكهنوت وعقاب الكهان المفسدين، ومجيء الكاهن الجديد الذي لا يعقبه آخر، يقول:

«وبعد أن ينفذ الرب عقابهم، سيختفي الكهنوت. عندها سيبعث الرب كاهناً جديداً. له سيكشف كلام الرب كله: فهو الذي سينفذ عقاب الحقيقة على الأرض خلال أيام كثيرة. نجم سيشرق في السماء كنجم ملك، ساطعاً بنور المعرفة، كما تلمع الشمس في وسط النهار، وسيمجد في العالم كله.

وسيمحو الظلمات كلها من تحت السماء، وسيسود السلام على الأرض كلها.

ستهلل السماوات في هذه الأيام، والأرض ستستبشر. ستنتشر معرفة الرب على الأرض مثل مياه البحار، وسيكون ملائكة مجد وجه الرب في حبور بسببه.

السماوات ستنفتح، ومن هيكل المجد سيحل التقديس عليه، مع صوت أبوي في الوقت نفسه مثل صوت إبراهيم أو إسحاق. ومجد العلي سيشهر عليه، وروح البصيرة والتقديس سيحل عليه بواسطة الماء. لأنه هو الذي سيعطي تمجيد الرب لأبنائه في الحق إلى الأبد، ولن يعقبه أحد من جيل إلى جيل إلى الأبد. وتحت كهنوته، ستزداد الأمم في المعرفة على الأرض، وستستنير بنعمة الرب.

لكن إسرائيل ستتقلص في الجهل، وستغرق في ظلام الحداد.

وتحت كهنوته ستختفي الخطيئة، الكفار سيكفون عن فعل الشر، والأبرار سيعتمدون عليه.

إنه هو الذي سيفتح أبواب الفردوس، والذي سيبعد السيف الذي يهدد آدم.

سيعطي القديسين أن يأكلوا من ثمر شجرة الحياة، وسيكون روح القداسة عليهم.

بلعار سيقيّد على يده، وسيعطي لأبنائه القدرة على وطء الأرواح الشريرة بأقدامهم.

والرب سيغتبط بسبب أبنائه، وسيغتبط بأحبته إلى الأبد.

عندها سيبتهج أبراهام وإسحاق ويعقوب، وأنا أيضاً سأغتبط، والقديسون كلهم سيلبسون الحق»[1].

٤ - وصية يهوذا

سنختار من وصايا يهوذا وصيته عن **الخمر**، قال عليه السلام:

«والآن، يا أبنائي، لا تسكروا بالخمر، لأن الخمر يحول الفكر عن الحقيقة، ويحرّض اضطرام الرغبة ويقود إلى انحراف العينين. لأن الخمر في خدمة روح الفسق ليسر التخيّل، وكلاهما يفقدان الإنسان السيطرة على نفسه. فإذا شرب إنسان الخمر حتى السكر فإنه يلوّث روحه بأفكار نجسة تقود الفسق؛ وهو يشعل جسده بقصد الاتصال الجسدي، فإذا سنحت له الفرصة المرغوبة فإنه يرتكب الخطيئة دون أي خجل. كذا هو شارب الخمر يا أبنائي، لأن السكير لا يحترم أحداً. لأنه كما ترون فقد أضلني أنا نفسي حتى إنني لم أخجل أمام جميع أهل المدينة. وأمام أعين الجميع التفت إلى تامار، وارتكبت خطيئة كبرى، وكشفت عري أبنائي. فبعد أن شربت الخمر لم أعد

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٤٣-٣٤٤.

أحترم وصية الله واتخذت امرأة كنعانية. إن الذي يشرب الخمر يجب أن يعدل كثيراً من شربه. ويكون الاعتدال في شرب الخمر على النحو التالي: ما دام يحفظ شعوراً بالإمساك فليشرب؛ فإذا تجاوز الحد فسرعان ما سيطلق روح الضلال خياله؛ فهو يجعل الثمل يتلفظ بالكلام الفاحش، ويجعله يخرق الشريعة، ويقوده دون أن يشعر بالخجل إلى التكبر بدناءته والاعتقاد بأنه رجل شريف»[١].

«فالزموا إذن يا أبنائي حداً صحيحاً في شرب الخمر، إذ فيه توجد أربع أرواح شريرة: وهي أرواح الرغبة والشهوة المشتعلة والمغالاة وحب الكسب. فإذا شربتم الخمر بابتهاج، فليكن بإمساك وفي مخافة الله؛ فإذا ابتعد في سروركم خوف الله فسرعان ما يأتي السكر وتتسرب الصفاقة. ولكن إذا أردتم العيش في الاعتدال فامتنعوا تماماً عن الخمر من أجل ألا تخطئوا بالشتائم والنزاعات والنمائم، وبمخالفة وصايا الله، والموت هكذا قبل أوانكم. وإضافة إلى ذلك فإن الخمر يكشف أسرار الله والبشر؛ وهكذا فقد كشفت أنا نفسي للكنعانية وصايا الله وأسرار يعقوب أبي والتي كان الله قد منعني من كشفها. إن الخمر سبب الحرب والفوضى»[٢].

٥ - وصية يساكر

سنختار من وصايا يساكر ما جاء تحت عنوان **براءة يساكر**، قال عليه السلام:

«لقد بلغت من العمر مئة وستاً وعشرين سنة، ولا يبكتني ضميري لاقتراف خطيئة مميتة. لم أعرف امرأة غير امرأتي. ولم أتعاط الفسق برفع

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٦٣.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٦٣.

عيني. لم أشرب الخمر حتى الانحراف به؛ ولم أطمع بشيء من الثروات المرغوبة لقريبي. لم يكن ثمة غش في قلبي، والكذب لم يطلع شفتي. مع كل إنسان حزين تألمت، وتقاسمت خبزي مع الفقير. لقد كنت ورعاً في أيام حياتي كلها. وحفظت الحقيقة. لقد أحببت كل إنسان أكثر من أولادي. وأنتم أيضاً يا أبنائي، فاعملوا هكذا، وسيهرب كل روح بلعار بعيداً عنكم؛ أية خطى للأشرار لن تستطيع التمكن منكم، وستخضعون دواب البرية، ما دام إله السماء والأرض معكم، ماشياً مع الناس البسيطي القلب»[1].

٦ - وصية زبولون

سنختار من وصايا زبولون وصية **الرحمة**، قال عليه السلام:

«والآن يا أبنائي، فإنني آمركم أن تحفظوا وصايا الرب، وأن ترحموا قريبكم وأن تشفقوا على كل شيء، ليس فقط على البشر، بل على الحيوانات المحرومة من العقل. ذلك لأنه بسبب ذلك إنما باركني الرب، وإذ مرض جميع إخوتي، فقد أفلت أنا من المرض، لأن الرب يعرف نيات كل شخص. فلتكن إذن أحشاؤكم رحيمة، لأنه كما يتصرف كل شخص تجاه قريبه كذلك سيتصرف الرب تجاهه. وفي الحق، فقد مرض أبناء إخوتي وماتوا بسبب يوسف، لأنهم لم يتراحموا في أحشائهم، لكن أبنائي نجوا من المرض كما تعرفون. ولما كنت في بلد كنعان، على الساحل، كنت أذهب للصيد من أجل يعقوب أبي، بينما كان الكثيرون يهلكون في البحر فإنني كنت أبقى سالماً»[2].

«وأنتم يا أبنائي أشفقوا على كل إنسان، في الرحمة، حتى يرحمكم الرب

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٨٠-٣٨١.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٨٩.

إذ يحن عليكم. لأن الله سيرسل رحمته في الأيام الأخيرة على الأرض، وحيث سيجد أحشاء رحمة فسيسكنها. لأنه بقدر ما يرأف الإنسان بقريبه يرأف الرب به. وعندما نزلنا إلى مصر لم يحفظ لنا يوسف الضغينة بل أخذته الشفقة عندما رآني. فاعملوا أنتم أيضاً على مثاله، وكونوا بلا ضغينة يا أبنائي، وأحبوا بعضكم بعضاً، ولا يعدن أحد خبث أخيه. لأن ذلك يشرخ الوحدة، ويبدّد كل صلة قربى، ويشوّش النفس ويكدّر الوجه»[1].

٧ - وصية دان

سنختار من وصايا دان وصية **ترك الكذب والغضب**، يقول عليه السلام:

«والآن يا أبنائي، أنا على وشك الموت، وفي الحقيقة أقول لكم إنكم إذا لم تحترزوا من روح الكذب والغضب، وإذا لم تحبوا الحقيقة والصبر فإنكم ستهلكون. لأن الغضب عمى ولا يسمح بأن نستطيع رؤية أحد حقاً. وحتى عندما يتعلق الأمر بأب أو بأم، فإن الغضوب يحترس منهما كخصمين؛ أو بأخ فإنه يتجاهله؛ أو بنبي للرب، فإنه يعصاه؛ أو ببار، فإنه لا يراه؛ أو بصديق، فإنه لا يتعرف عليه. ذلك أن روح الغضب يغطيه بشبكة الضلال ويعمي عينيه، وبالكذب فإنه يغمر ذكاءه في الظلمات ويجهز له رؤيته الخاصة للأشياء. فبماذا يغطي عينيه؟ بحقد قلب مليء بالغيرة تجاه أخيه»[2].

«سيّئ هو الغضب يا أبنائي، لأنه يعكر حتى الروح نفسها. إنه يتملك جسم الغضوب، ويصبح سيد روحه، وينقل للجسم قوته الخاصة ليجعله يرتكب كل أنواع الظلم. وكما يفعل الجسم ذلك كله، فإن النفس تصدق ما قام به، لأنها لا ترى صواباً. ولهذا فإن الرجل الذي يحتد يملك إذا كان قوياً

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٨٩.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٩٨.

قوة مضاعفة ثلاث مرات: أولاً بمساعدة عبيده؛ وثانياً فهو يقنع وينتصر ظلماً بواسطة ثرائه؛ وثالثاً يرتكب الشر بواسطة قوته الطبيعية. والإنسان الذي يحتد، حتى عندما يكون ضعيفاً، يملك قوة مضاعفة لقوته الطبيعية، لأن الغضب يسعفه دائماً في الجور. ذلك أن هذا الروح يمشي دائماً مع الكذب إلى يمين ساتان، حتى تتم مشاريعه في العنف والكذب»[١].

«افهموا إذاً ما هي قوة الغضب: إنها لسفيهة. فهي أولاً تحرض بواسطة الكلام؛ ثم تقوي الإنسان الذي تملكه الغضب بواسطة الأفعال؛ وهي تكدر نازعه بأذيات ممضة، وبالتالي تحرض نفسه بغضب كبير. عندما يجري الكلام ضدكم لا تغضبوا، وإذا امتدحت قداستكم، فلا تتباهوا ولا تشعروا بالسرور ولا بالتقزز. لأن ذلك يغيّر السمع؛ فالروح المشحون هكذا يدرك التحدي ويقدر عندها وقد استثير أنه غاضب بحق. فإذا تعرضتم يا أبنائي لشيء من الضرر أو لبعض الخسارة، فلا تقاوموا، لأن هذا الروح نفسه يجعلنا نشتهي ما خسرناه، حتى نثار بالرغبة. فإذا تعرضتم لأذية، عن قصد أو عن غير قصد، فلا تغتموا، لأنه من الحزن يتأتى أيضاً الغضب مع الكذب. إن الغضب مع الكذب بلية ذات وجهين: فكلاهما يتحدان ليكدرا النازع، وعندما تصبح النفس مكدرة باستمرار يبتعد عنها الرب ويستولي عليها بلعار»[٢].

٨ - وصية نفتالي

سنختار من وصايا نفتالي وصية **النظام**، قال عليه السلام:

«كذا إذن يا أبنائي فلتقوموا بأعمالكم كلها بنظام، من أجل الخير، في مخافة الله؛ لا تفعلوا شيئاً بشكل فوضوي بالإهمال ولا خارج الوقت

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٩٨.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٣٩٨.

المحدد. فإذا قلت للعين أن تسمع فستكون غير قادرة على ذلك، وكذلك لا تستطيعون عمل أعمال النور في الظلمات.

«لا تعجلوا إذن بإفساد أعمالكم بجشعكم أو بإغواء نفوسكم بالكلام الباطل، لكن بحفظ الصمت في نقاء القلب إنما تفهمون كيف تعملون مشيئة الله وتنبذون مشيئة بلعار. إن الشمس والقمر والنجوم لا تغير نظامها، وبالمثل، أنتم أيضاً لا تغيروا شريعة الله بفوضى أعمالكم. لقد هجرت الأمم الضالة الرب، وغيّرت نظامها الخاص بها وأطاعت الأصنام الحجرية والخشبية وأرواح الضلال. ولكن أنتم يا أبنائي لا تتصرفوا هكذا؛ بل انظروا الرب الذي صنع الكون في القبة السماوية والأرض والبحر وفي كافة أعماله، حتى لا تصبحوا مثل سدوم التي غيّرت نظامها الطبيعي. وبالمثل، غيّر الساهرون هم أيضاً نظامهم الطبيعي، هم الذين لعنهم الرب وقت الطوفان والذين بسببهم جعل الأرض غير قابلة للسكن وبائرة»[1].

«لأن لوصايا الشريعة مظهرين، ويجب أن تتمم بمهارة. إذ هناك وقت لمضاجعة الرجل امرأته، ووقت تعفف مخصص للصلاة. فتانك وصيتان، ولكن إذا لم تتمما في الترتيب الخاص بهما، فإنهما تصيران فرصة للخطيئة. فصيروا حكماء إذن في الله، يا أبنائي، ورجالاً عقلاء، يعرفون نظام وصاياه وشرائع الأمور كلها، لكي يحبكم الله»[2].

٩ - وصية جاد

سنختار من وصايا جاد وصية **اجتناب الحقد**، قال عليه السلام:

«والآن اسمعوا يا أبنائي كلمة حق، لكي تطبقوا العدل وشريعة العلي

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤٠٩.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤١١.

كلها، ولا تنحرفوا بروح الحقد، لأن ذلك يفسد أعمال البشر كلها. فمهما عملنا يجده الحقود كريهاً؛ فإذا التزم أحد بشريعة الرب فإنه لا يحمده؛ وإذا كان أحد يخشى الرب ويرغب بما هو عادل فإنه لا يحبه. فهو ينتقد الحقيقة ويغار من الذي ينجح، ويبحث عن الاغتياب؛ ويحب العجرفة، لأن الحقد يعمي روحه، كما أمكنني رؤية ذلك في حالة يوسف»[١].

«فاحفظوا أنفسكم يا أبنائي من الحقد، لأنه يؤدي إلى ارتكاب الإفساد ضد الرب نفسه. لأننا لم نعد نريد سماع كلام وصاياه حول محبة القريب، ونرتكب الخطيئة ضد الله. إذا سقط أخ، فسرعان ما نبلغ الجميع بذلك؛ ونعجل لمحاكمته ولمعاقبته بالموت. وإذا كان الأمر يتعلق بعبد، فإننا نحرضه ضد سيده، لكي نسر بمصائبه كلها إذا ما أعدم. ذلك أن الحقد يتعاون مع الحسد ضد الذين ينجحون. فدائماً نمرض عندما نرى أو نعرف بنجاح الغير. لأنه كما أن المحبة تريد إعادة الأموات إلى الحياة وتريد إعدام المدانين، فإن الحقد يريد قتل الذين يحيون ولا يريد ترك الذين لم يخطئوا إلا في أمور قليلة أحياء. لأن روح الحقد يتعاون بفضل نفاد الصبر مع ساتان في كل الأمور من أجل إهلاك البشر، لكن روح المحبة، بفضل الصبر، تساعد شريعة الله من أجل إنقاذ البشر»[٢].

«فالحقد سيّئ إذاً، لأنه يرتبط باستمرار بالكذب؛ فهو يقول عكس الحقيقة؛ ويجعل من الأمر الصغير كبيراً؛ وهو يغيّر النور إلى ظلمة؛ ويدعو العذب مراً؛ ويعلم النميمة والغضب والحرب والسفاهة، وكافة أنواع الاشتهاء، ويملأ القلب بسمّ شيطاني. أقول لكم ذلك عن خبرة، لكي تطردوا حقد الشيطان وتتعلقوا بمحبة الله. العدالة تطرد الحقد. والتواضع يدمر

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤١٨.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤١٨.

الغيرة. وفي الواقع، يخشى الإنسان العادل أن يرتكب الظلم، إذ يشكى لظلمه ليس من الغير بل من قلبه نفسه، لأن الرب يرقب نازعه. فهو لا يسفه رجلاً ورعاً، ما دامت خشية الله تسكن فيه. وبما أنه يخاف إهانة الله، فإنه يرفض رفضاً قاطعاً الإساءة إلى أي كان حتى بالفكر. لقد تعلمت ذلك أخيراً بعد أن ندمت على الإساءة التي سببتها ليوسف. لأن التوبة الحقيقية بحسب الله تدمّر الجهل، وتطرد الظلمات، وتضيء العينين، وتحمل المعرفة للروح وتقود النازع إلى السلام. ما لم أتعلمه من البشر عرفته بالتوبة. لقد أرسل الرب في الحقيقة مرضاً للكبد، ولو لم تسعفني صلوات أبي ما كان بقي على اختفاء روحي سوى القليل. لأن الإنسان يعاقب بما أخطأ فيه. وهكذا، بما أن كبدي كان فظاً تجاه يوسف، فقد عوقبت بالألم الفظيع في الكبد طيلة أحد عشر شهراً، وهو الوقت الذي كنت مبغضاً فيه ليوسف»[١].

«والآن فإني أستحلفكم، أحبوا كل أخاه وانزعوا الحقد من قلوبكم؛ أحبوا بعضكم بعضاً بالعمل والقول والشعور. كنت بحضور أبي أتكلم بمودة مع يوسف، لكنني عندما تركته أعمى روح الحقد بصيرتي وشوّش روحي ليقودني إلى قتله. أحبوا بعضكم بعضاً من كل قلبكم، وإذا أخطأ أحد تجاهك، فكلمه بهدوء، مبعداً سم الحقد ودون أن تحفظ الخبث في نفسك، فإذا أقر بذنبه وتاب فسامحه. ولكن إذا أنكر، فلا تعاتبه خوفاً من أن يقسم ويرتكب خطيئة مضاعفة. ولا يجب أن يسمع الغريب سرك أثناء النزاع، حتى لا تكون له الفرصة ليبغضك ويصبح عدوك ويرتكب خطيئة كبيرة تجاهك، إذ إنه غالباً ما يتوجّه إليك ويستقصي عن حسابك بنية سيئة آخذاً سمك. فإذا كان وهو ينفي خجلاً، لأنه مقتنع بغلطته، فكف عن تأنيبه. وفي الواقع، فإنه حتى

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤١٨.

في استمراره في نفيه فإنه يتوب ولن يرتكب الخطأ تجاهك من بعد، بل سيحترمك ويخشاك ويسالم. ولكن إذا كان وقحاً واستمر في الخبث، فحتى في هذه الحالة سامحه من كل قلبك واترك الانتقام لله»[١].

«وإذا نجح أحد نجاحاً أفضل منك، فلا تتكدر، بل صلّ من أجله حتى ينجح كلياً، فربما كنت هكذا تستفيد من ذلك. وإذا كان مركزه أهم فلا تغر منه، بل تذكر أن كل جسد يموت وقل أناشيد للرب الذي يمنح للبشر كل ما هو صالح ومفيد. تمعن في أحكام الرب، وسيهدأ نازعك ويسكن. وإذا اغتنى أحد ظلماً، مثل عيسو أخو أبي، فلا تحسده بل انتظر أن يضع الرب له حداً. لأنه إذا كان يأخذ من الأشرار ثرواتهم، فإنه يسامح الذين يتوبون، إنما يحفظ الذي لا يتوب لعقاب أبدي. لأن المعوز إذا لم يكن حسوداً، يكون مرضياً في كل شيء للرب؛ فهو أغنى من جميع البشر،لأنه لا يعرف قلق المنذورين للباطل. فانزعوا إذن الحقد من نفوسكم وأحبوا بعضكم بعضاً بقلب سليم»[٢].

١٠ - وصية أشير

سنختار من وصية أشير وصية تحت عنوان **النازعان،** قال عليه السلام:

«اسمعوا أباكم يا أبناء أشير، وسأبيّن لكم كل ما هو «مستقيم» أمام الله. ثمة دربان، هذا ما أعطاه الله للبشر، نازعان وفعلان وسلوكان ونهايتان. ولهذا تمضي الأشياء كلها مزدوجة، الواحد مقابل الآخر. ذلك أن هناك دربين، درب الخير ودرب الشر. وللخير وللشر إنما ينتمي النازعان في صدورنا ، عندما يميزان هذين الدربين. فإذا أرادت روح السير في الخير فإن

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤١٨.
(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤١٨.

كل عمل من أعمالها يكون في العدل؛ فإذا أخطأت فسرعان ما تتوب. لأنها بتركيزها على العدل ونبذها للمكر فإنها سرعان ما تدمّر الشر وتستأصل الخطيئة. ولكن إذا مالت هذه الروح إلى الشر، فإن عملها كله يكون في الخبث. فهي تهجر الخير وتتعلق بالشر وتستعبد لبلعار. فأي خير تعمله يحوله إلى شر. ذلك أنها عندما تبدأ بعمل الخير فإن نهاية عملها يقودها إلى فعل الشر، ما دام كنز نازعها يجتاحه روح خبيث»[١].

«فأنتم يا أبنائي، لا تصبحوا مثل هؤلاء البشر مزدوجي الوجه، وجهاً للطيبة ووجهاً للخبث، بل تعلقوا بالطيبة وحدها، لأن الرب الإله يرتاح عليها والبشر يرغبونها. تجنبوا الخبث بتدمير النازع السيّئ بأعمالكم الصالحة، لأن الرجال المزدوجي الوجه لا ينتمون إلى الله، بل هم عبيد رغباتهم، لكي يرضوا بلعار والناس الذين يشبهونهم»[٢].

«لأن الناس الطيبين الذين ليس لهم إلا وجه واحد، عادلون أمام الله، حتى عندما يعتبرون خطاة أمام البشر مزدوجي الوجه. كثيرون يقتلون الأشرار ويكونون بذلك أصحاب عملين، أحدهما صالح والآخر سيّئ، لكن المحصلة صالحة، لأنه يستأصل الشر ويدمره. أحدهم يكره الإنسان الرحيم الذي يقترف الظلم والذي يرتكب الزنا والصوم، فهذا أيضاً مزدوج الوجه، لكن هذ الموقف في المحصلة صالح، لأنه يحاكي موقف الرب بعدم قبول ما يبدو صالحاً على أنه صالح فعلاً. وآخر لا يريد أن يتذوّق أياماً سعيدة مع عاهرين، لكي لا يلوّث جسمه ولا يدنس روحه؛ فهذا أيضاً مزدوج الوجه، لكن المحصلة صالحة. لأن مثل هؤلاء البشر يشبهون غزلاناً وأيائل، لأنهم يبدون نجسين مثل الحيوانات البرية. ومع ذلك فهم طاهرون بشكل خاص،

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤٢٥.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤٢٥.

لأنهم يمشون في حمية الرب ويمتنعون عما يبغضه ويمنعه الرب في وصاياه بفصلهم الشر عن الخير»[١].

١١ - وصية يوسف

سنختار من وصايا يوسف الصديق وصية **العفة**، قال عليه السلام:

«وكنت أصارع ضد امرأة سفيهة، كانت تدفعني لخرق الشريعة معها، لكن إله آبائي حررني من الشعلة الحارقة. فرميت في السجن، فضربت وسخر مني، لكن الرب جعلني أحظى برعاية السجان. لأن الرب لا يتخلى عن الذين يخافونه، لا في الظلمات ولا في الصلات ولا في الضيق ولا عند الضرورة. لأن الله لا يمكن أن يربك مثل الإنسان، ولا أن يرتجف مثل ابن إنسان. ولا أن يكون ضعيفاً أو مرهباً مثل المصنوع من التراب، إنه حاضر في كل مكان، وهو يعزي بطرق مختلفة، حتى وإن ابتعد لحظة ليختبر نازع النفس. لقد اختبرني بعشرة إغراءات، وفي كافة هذه الإغراءات أظهرت صبري، لأن الصبر علاج قوي، والتحمل ينتج خيرات عظيمة»[٢].

«كم مرة هددتني المصرية بالموت! وكم مرة دعتني وهددتني بعد أن كانت سلمتني للتعذيب؛ ولما لم أكن أريد الذهاب معها قالت لي: «ستسود علي وعلى جميع الذين معي في المنزل، إذا وهبتني نفسك، وستصبح مثل سيدنا». لكنني كنت أتذكر كلام أبي يعقوب؛ فكنت أدخل غرفتي وأصلي للرب باكياً. وكنت أصوم طيلة سبع سنوات، وكان المصري يظن أني أعيش في الملذات، لأن الذين يصومون لله يكون وجههم لطيفاً. ففي غياب سيدي لم أكن أشرب الخمر، وكنت طيلة ثلاثة أيام لا أتناول الطعام من أجل أن

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤٢٥.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤٣٣.

أعطيه للمعوزين والمرضى. وكنت أصلي للرب منذ الفجر وأبكي على ممفيس، المصرية، لأنها كانت تلح علي بلا انقطاع، وحتى في الليل كانت تأتي إلي بحجة الزيارة. ولأنه لم يكن لديها طفل ذكر كانت تزعم أنها تعتبرني مثل ابنها. ففي إحدى المرات قبلتني كما لو كنت ابنها، لكنني فهمت في ما بعد أن هذه المرأة كانت تجرني إلى الفسق. وعندما تحققت من ذلك حزنت حتى الموت؛ وعندما خرجت دخلت إلى نفسي ونحت عليها أياماً طويلة، لأنني فهمت خداعها وضلالها. وقد وجهت لها كلام العلي حتى ترجع عن رغبتها الخبيثة»[1].

«وكثيراً ما كانت تتملقني كرجل قديس وتمدح في خطاب عفتي أمام زوجها، وتريدني أن أعثر عندما نكون وحدنا. كانت تعلن للملأ عفتي، وفي السر كانت تقول لي: «لا تخف زوجي، فهو متيقن من عفتك. فإذا كلمه أحد عنا، فلن يصدقه». وبسبب ذلك كله، كنت أنام على الأرض وأصلي للرب لكي يحررني من المصرية. ولما لم تحصل على شيء بهذه الطريقة، جاءت إلي من جديد بحجة التعليم الديني ولتتعلم كلام الله. وقالت لي: «إذا كنت تريد أن أترك الأصنام واصلني، وسأقنعنّ زوجي بالانفكاك عن الأصنام وسنمشي أمام ربك». لكنني قلت لها: «ليس في النجاسة يريد الرب أن يحيا الذين يجلونه؛ وهو لا يسر بالذين يرتكبون العهر، إنما بالذين يتقربون منه بقلب نقي وبلا دنس». لكنها كانت تسكت تريد إشباع رغبتها. أما أنا فكنت أضاعف الصوم والصلوات حتى يحرّرني الرب منها»[2].

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤٢٥.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤٣٣.

١٢ - وصية بنيامين

سنختار من وصايا بنيامين الابن الأصغر ليعقوب وأخي يوسف الشقيق، وصية **الرجل الصالح**، قال عليه السلام:

«ليس للرجل الصالح عين معميّة بالظلمات، لأنه يرأف بالجميع، حتى بالخطأة. وحتى عندما يريدون أذيته، فإنه بعمل الخير إنما ينتصر على الشر، والله حاميه؛ فأما الأبرار فإنه يحبهم كنفسه. فإذا كان أحد مبجلاً فإنه لا يغار منه؛ وإذا اغتنى أحد فإنه لا يحسده؛ وإذا أظهر أحدهم شجاعة فإنه يمتدحه؛ والعفيف يحبه؛ والمعوز يشفق عليه؛ ويتألم مع الضعيف؛ ولله يرتل مدائحه. الذي يخشى الله يحميه؛ والذي يحب الله ينجده؛ والذي يدفع العلي يكسبه ويهديه؛ والذي حصل على هبة روح صالح فإنه يحبه كنفسه»[١].

«فإذا كان لكم أيضاً فكر معد جيّداً، عندها فإن الناس الأشرار سيسالمونكم، والفاسقون إذ يحترمونكم سيتوجهون إلى الخير؛ والذين فيهم روح الشهوة لن يتحولوا عن شهوتهم فقط، بل سيعطون ما كانوا يطمعون به للحزانى. وإذا عملتم الخير فإن الأرواح النجسة ستهرب عندها بعيداً عنكم، والحيوانات المتوحشة ستخشاكم، لأن الذي يحترم الأعمال الصالحة والذي فكره نيّر، فإن هذا تهرب الظلمات بعيداً عنه. فإذا شتم أحدهم رجلاً قديساً، فإنه يتوب، لأن الرجل الورع يشفق على الشاتم ويظل صامتاً. فإذا غدر أحدهم ببار، وكان البار على الرغم من صلواته قد أهين للحظة، فإنه سرعان ما يعود أكثر تألقاً، كما كان حال يوسف أخي»[٢].

---

(١) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤٤٦.

(٢) مخطوطات قمران، **كتابات ما بين العهدين**، الجزء الثاني ص ٤٤٦.

انطلاقاً من هذه الوصايا المختارة من كلام الأسباط عليهم السلام، والتي رغبنا في تنويعها؛ سواء في وصية رأوبين عن الفسق ومعاشرة النساء، أو في وصية شمعون عن الغيرة، أو في وصية لاوي عن الكاهن الخاتم؛ أو في وصية يهوذا عن الخمر، أو في وصية يساكر من خلال حديثه عن براءته، أو في وصية زبولون عن الرحمة، أو في وصية دان عن ترك الكذب والغضب، أو في وصية نفتالي عن النظام، أو في وصية جاد عن اجتناب الحقد، أو في وصية أشير عن النازعَيْن في الإنسان، أو في وصية يوسف عن العفة، أو في وصية بنيامين عن الرجل الصالح؛ نجد انسجاماً وتكاملاً عجيباً بينها، سواء من حيث التصور أو الاعتقاد أو السلوك، يبعد كثيراً عن المعتقدات العنصرية والأرضية الإسرائيلية، ويقترب كثيراً من الطرح القرآني العالمي والإنساني؛ والمستحضر للمعاني الأخروية والغيبية والإنسانية الغائبة عن النص التوراتي الحاخامي.

وصية يعقوب في القرآن الكريم

قدم لنا القرآن الكريم في ذكره لوصية يعقوب إلى أبنائه حين وفاته، صورة تنسجم تماماً مع المفهوم العالمي لدين الإسلام، كما رأيناه في الوصايا السابقة؛ قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ (سورة البقرة).

إنها وصية يعقوب إلى أبنائه وهو على فراش الموت، يذكرهم بالله ويوصيهم بعبادته وإخلاص الدين له، وإسلام الوجه له بعمل صالح وقلب نقي؛ تماماً مثلما وصّى بنو يعقوب أبناءهم في الوصايا التي بين أيدينا.

إن استحضار القرآن لوصية يعقوب لأبنائه بالإسلام، يعد مراجعة نقدية عميقة للفكر الكتابي؛ تساير الطرح العالمي الإنساني للدين، الذي تعبّر عنه هذه الوصايا بوضوح كامل؛ وهو ما يفيد أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط، كانوا كلهم ضمن هذا الدين العالمي الإنساني، الذي لا مجال فيه للعنصرية والدنيوية اليهودية التي فرض حاخامات الكتبة والصديقيين مفاهيمها على الكتاب المقدس القانوني، وعلى الفكر الكتابي عموماً.

وصية يعقوب في النص التوراتي القانوني

مقابل هذا الاستحضار القرآني للأبعاد الإنسانية والأخروية من خلال الحديث عن يعقوب وأبنائه ووصاياهم، يورد النص الحاخامي حديثاً يعده وصية ليعقوب إلى أبنائه؛ أو على الأصح مباركة يعقوب لأبنائه؛ أغفلت كل ما يتعلق بالوحي والنبوة والكتاب والوصايا بالنسبة لهؤلاء الأبناء.

فلنقرأ في الإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين هذه المباركة، قال:

«وَدَعَا يَعْقُوبُ بَنِيهِ وَقَالَ: «اجْتَمِعُوا لأنبئكم بِمَا يُصِيبُكُمْ فِي آخر الأيام. (٢) اجْتَمِعُوا وَاسْمَعُوا يَا بَنِي يَعْقُوبَ وأصغوا إِلَى إسرائيل أبيكم»[(١)].

لقد جمع يعقوب بنيه لينبئهم بما يصيبهم في آخر الأيام. وتوجه إلى رأوبين ليقول له:

«(٣) رَاوبَيْنُ انْتَ بِكْرِي قُوَّتِي وأول قُدْرَتِي فَضْلُ الرِّفْعَةِ وَفَضْلُ الْعِزِّ. (٤) فَائِرا كَالْمَاءِ لا تَتَفَضَّلُ لأَنَّكَ صَعِدْتَ عَلَى مَضْجَعِ أَبِيكَ. حِينَئِذٍ دَنَّسْتَهُ. عَلَى فِرَاشِي صَعِدَ»[(٢)].

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩/ ١-٢.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩/ ٣-٤.

وهو ما يعني أن رأوبين قد نال لعنة من أبيه لا بركة، حيث إنه يكون فائراً كالماء، ولا يتفضل، بل يتفضل غيره من إخوانه عليه، رغم أنه هو البكر.

ثم توجه بخطابه إلى الابنين الثاني والثالث، شمعون ولاوي، ليقدّم لهما لعنة كذلك؛ إذ هما آلات ظلم سيوفهما، وفي مجلسهما لا تدخل نفس أبيهما، ولا تتحد كرامته بمجمعهما، ومصيرهما أن يقسما في يعقوب ويقطعا في إسرائيل:[1]

ثم توجه إلى يهوذا ليخصه بالبركة العظيمة، قال:

«(٨) يَهُوذَا إياك يَحْمَدُ إخوتك. يَدُكَ عَلَى قَفَا أعدائك. يَسْجُدُ لَكَ بَنُو أبيك. (٩) يَهُوذَا جَرْوُ أَسَدٍ. مِنْ فَرِيسَةٍ صَعِدْتَ يَا ابْنِي. جَثَا وَرَبَضَ كَأَسَدٍ وَكَلَبْوَةٍ. مَنْ يُنْهِضُهُ؟ (١٠) لا يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُوذَا وَمُشْتَرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ شِيلُونُ وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ. (١١) رَابِطاً بِالْكَرْمَةِ جَحْشَهُ وَبِالْجَفْنَةِ ابْنَ أَتَانِهِ. غَسَلَ بِالْخَمْرِ لِبَاسَهُ وَبِدَمِ الْعِنَبِ ثَوْبَهُ. (١٢) مُسْوَدُّ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الْخَمْرِ وَمُبْيَضُّ الاسْنَانِ مِنَ اللَّبَنِ»[2].

لقد نال يهوذا كل البركة، فهو الذي يحمده إخوته، ويسجد له بنو أبيه، وتكون له السلطة والثروة وفي ذريته يكون الملك؛ غير أن واقع الحال إلى وفاته ووفاة إخوته لم يكن كذلك، فالذي سيسجد له إخوته هو يوسف، وإنه بسبب هذا السجود كانت هذه القصة كلها، لأن إخوته رفضوا حلمه بذلك، وكادوا له إلى أن أكرمه الله بأن وهب له الملك والتصرف في خزائن مصر؛ وهو ما يفيد أن لسبط يهوذا دخلاً في محاولة تغيير حقيقة السجود ليوسف

---

(١) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٥-٧.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٨-١٢.

وتحويله إلى يهوذا؛ وإن كثيراً من النصوص الكتابية بما في ذلك القانونية تشهد بالأمر؛

لقد جاء في موضوع رؤيا يوسف في سفر التكوين:

«ثُمَّ حَلُمَ أَيْضاً حُلْماً آخر وَقَصَّهُ عَلَى إخوته. فَقَالَ: «إني قَدْ حَلُمْتُ حُلْماً أيضاً وإذا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً سَاجِدَةٌ لِي»[1].

وجاء فيه: «وَكَانَ يُوسُفُ هُوَ الْمُسَلَّطَ عَلَى الأرض وَهُوَ الْبَائِعَ لِكُلِّ شَعْبِ الأرض. فأتى إخوة يُوسُفَ وَسَجَدُوا لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إلى الأرض. (٧) وَلَمَّا نَظَرَ يُوسُفُ إخوته عَرَفَهُمْ فَتَنَكَّرَ لَهُمْ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ بِجَفَاءٍ وَقَالَ لَهُمْ: «مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟» فَقَالُوا: «مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ لِنَشْتَرِيَ طَعَاماً»[2].

ومنها: «فَلَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إِلَى الْبَيْتِ أَحْضَرُوا إليه الْهَدِيَّةَ الَّتِي فِي أياديهم إلى الْبَيْتِ وَسَجَدُوا لَهُ إلى الأرض. (٢٧) فَسَأَلَ عَنْ سَلامَتِهِمْ وَقَالَ: «أسالم أبوكم الشَّيْخُ الَّذِي قُلْتُمْ عَنْهُ؟ أَحَيٌّ هُوَ بَعْدُ؟» (٢٨) فَقَالُوا: «عَبْدُكَ أبونا سَالِمٌ. هُوَ حَيٌّ بَعْدُ». وَخَرُّوا وَسَجَدُوا»[3].

وفي جميع الأحوال فإن يهوذا لم يسجد له أحد من إخوته، وإنما الذي سجد له إخوته هو يوسف الصديق كما حدثتنا هذه النصوص مجتمعة، ونصوص أخرى منحولة لا موجب لعرضها في هذا المقام. وهو ما يفيد أن سبط يهوذا قد وجّه النصوص الحاخامية القانونية إلى ما يخدم أهواءه.

ثم يتوجه يعقوب في هذه المباركة إلى زبولون ليذكر مكان سكناه عند ساحل البحر:

---

(١) سفر التكوين ٣٧/ ٩.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٢، عدد ٦-٧.

(٣) سفر التكوين، الإصحاح ٤٣، عدد ٢٦-٢٨

(١٣) زَبُولُونُ عِنْدَ سَاحِلِ الْبَحْرِ يَسْكُنُ وَهُوَ عِنْدَ سَاحِلِ السُّفُنِ وَجَانِبُهُ عِنْدَ صَيْدُونَ[١].

ويتوجّه إلى يساكر ليتنبأ لجماعته بإحناء الكتف للحمل مثل الحمار والعيش في العبودية ودفع الجزية، قال:

(١٤) يَسَّاكَرُ حِمَارٌ جَسِيمٌ رَابِضٌ بَيْنَ الْحَظَائِرِ. (١٥) فَرَأى الْمَحَلَّ أَنَّهُ حَسَنٌ وَالأَرْضَ أَنَّهَا نَزِهَةٌ فَأَحْنَى كَتِفَهُ لِلْحِمْلِ وَصَارَ لِلْجِزْيَةِ عَبْداً[٢].

ثم يتوجه يعقوب إلى دان الذي يدين شعبه، ويكون حية على الطريق وأفعواناً يلسع عقبي الفرسان:

(١٦) دَانُ يَدِينُ شَعْبَهُ كَأَحَدِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ. (١٧) يَكُونُ دَانُ حَيَّةً عَلَى الطَّرِيقِ أَفْعُواناً عَلَى السَّبِيلِ يَلْسَعُ عَقِبَي الْفَرَسِ فَيَسْقُطُ رَاكِبُهُ إِلَى الْوَرَاءِ. (١٨) لِخَلاصِكَ انْتَظَرْتُ يَا رَبُّ[٣].

ثم يتوجه إلى سبط جاد الذي يزحمه جيش، وهو يزحم مؤخره:

(١٩) جَادُ يَزْحَمُهُ جَيْشٌ وَلَكِنَّهُ يَزْحَمُ مُؤَخَّرَهُ[٤].

ويتوجه إلى أشير صاحب الخبز السمين ومعطي لذات الملوك:

(٢٠) أَشِيرُ خُبْزُهُ سَمِينٌ وَهُوَ يُعْطِي لَذَّاتِ مُلُوكٍ[٥].

ويقول لنفتالي إن أقواله حسنة لكنه كالأيلة المسيبة:

(٢١) نَفْتَالِي أَيِّلَةٌ مُسَيَّبَةٌ يُعْطِي أَقْوَالاً حَسَنَةً[٦].

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ١٣.
(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ١٤-١٥.
(٣) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ١٦-١٨.
(٤) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ١٩.
(٥) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٢٠.
(٦) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٢١.

ثم يتوجه إلى يوسف ليباركه فيتحدث عن إثماره وعلوه ونجاته من المحن ونصرة الله له فيها والبركات التي نالها:

(٢٢) يُوسُفُ غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ عَلَى عَيْنٍ. أَغْصَانٌ قَدِ ارْتَفَعَتْ فَوْقَ حَائِطٍ. (٢٣) فَمَرَّرَتْهُ وَرَمَتْهُ وَاضْطَهَدَتْهُ أَرْبَابُ السِّهَام. (٢٤) وَلَكِنْ ثَبَتَتْ بِمَتَانَةٍ قَوْسُهُ وَتَشَدَّدَتْ سَوَاعِدُ يَدَيْهِ. مِنْ يَدَيْ عَزِيزِ يَعْقُوبَ مِنْ هُنَاكَ مِنَ الرَّاعِي صَخْرِ إِسْرَائِيلَ (٢٥) مِنْ إِلَهِ أَبِيكَ الَّذِي يُعِينُكَ وَمِنَ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ الَّذِي يُبَارِكُكَ تَأْتِي بَرَكَاتُ السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَبَرَكَاتُ الْغَمْرِ الرَّابِضِ تَحْتُ. بَرَكَاتُ الثَّدْيَيْنِ وَالرَّحِمِ. (٢٦) بَرَكَاتُ أَبِيكَ فَاقَتْ عَلَى بَرَكَاتِ أَبَوَيَّ. الَى مُنْيَةِ الآكَامِ الدَّهْرِيَّةِ تَكُونُ عَلَى رَأْسِ يُوسُفَ وَعَلَى قِمَّةِ نَذِيرِ إِخْوَتِهِ[١].

لكنه لم يباركه بسجود إخوته له، وتسلطه عليهم، ولا بأن يكون له «خُضُوعُ شُعُوبٍ. (١١) رَابِطاً بِالْكَرْمَةِ جَحْشَهُ وَبِالْجَفْنَةِ ابْنَ أَتَانِهِ. غَسَلَ بِالْخَمْرِ لِبَاسَهُ وَبِدَمِ الْعِنَبِ ثَوْبَهُ. (١٢) مُسْوَدُّ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الْخَمْرِ وَمُبْيَضُّ الأَسْنَانِ مِنَ اللَّبَنِ.»[٢]؛ وهو ما اختص به سبط يهوذا دون غيره من الأسباط.

أما بركة بنيامين فستكون في الافتراس:

(٢٧) بِنْيَامِينُ ذِئْبٌ يَفْتَرِسُ. فِي الصَّبَاحِ يَأْكُلُ غَنِيمَةً وَعِنْدَ الْمَسَاءِ يُقَسِّمُ نَهْباً»[٣].

هكذا توزع البركات على بني إسرائيل وأسباطهم، ويأخذ سبط يهوذا أفضلها، ويسجد له جميع إخوته، ومنهم من يصير من عبيده أو الخاضعين له

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٢٢-٢٦.
(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٨-١٢.
(٣) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٢٧.

أو الساكنين في مساكنه؛ وبذلك تختصر بركات يعقوب وكلامه في ما ذكر:

(٢٨) جَمِيعُ هَؤُلاءِ هُمْ أسباط إسرائيل الاثْنَا عَشَرَ. وَهَذَا مَا كَلَّمَهُمْ بِهِ أبوهم وَبَارَكَهُمْ. كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ بَرَكَتِهِ بَارَكَهُمْ[1].

كما تختصر وصاياه في دفنه في أرض الآباء:

(٢٩) وأوصاهم وَقَالَ لَهُمْ: «أنا أَنْضَمُّ إلى قَوْمِي. ادْفِنُونِي عِنْدَ آبائي فِي الْمَغَارَةِ الَّتِي فِي حَقْلِ عِفْرُونَ الْحِثِّيِّ. (٣٠) فِي الْمَغَارَةِ الَّتِي فِي حَقْلِ الْمَكْفِيلَةِ الَّتِي أمام مَمْرَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ الَّتِي اشْتَرَاهَا إبراهيم مَعَ الْحَقْلِ مِنْ عِفْرُونَ الْحِثِّيِّ مُلْكَ قَبْرٍ. (٣١) هُنَاكَ دَفَنُوا إبراهيم وَسَارَةَ امرأته. هُنَاكَ دَفَنُوا إسحاق وَرِفْقَةَ امرأته. وَهُنَاكَ دَفَنْتُ لَيْئَةَ. (٣٢) شِرَاءُ الْحَقْلِ وَالْمَغَارَةِ الَّتِي فِيهِ كَانَ مِنْ بَنِي حِثَّ»[2].

ثم توفاه الله:

(٣٣) وَلَمَّا فَرَغَ يَعْقُوبُ مِنْ تَوْصِيَةِ بَنِيهِ ضَمَّ رِجْلَيْهِ الَى السَّرِيرِ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ وَانْضَمَّ إلى قَوْمِهِ[3].

يمكننا، انطلاقاً من بركة يعقوب ووصيته، أن ندرك الاتجاه العام الذي سارت فيه النصوص التوراتية القانونية، التي كانت تركز على بيان بركات السبط الحاكم سبط يهوذا الذي تكون له السلطة الكاملة على باقي الأسباط الأخرى، والوصية بأرض الآباء التي اشتراها إبراهيم مع الحقل الذي توجد فيه، حيث دفن إبراهيم وسارة وإسحاق ويعقوب، وكذا باقي آباء بني إسرائيل؛ وغابت مقابل ذلك الأبعاد الدينية الأساسية التي ذكرتها وصايا الآباء (الأسباط)، ووصية يعقوب القرآنية، التي تركز على الجوانب الإنسانية

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٢٨.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٢٩-٣٢.

(٣) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٣٣.

والأخلاقية والقيمية، وعلى الأبعاد الأخروية والمقصدية والغيبية في الدين. وبذلك نصير أمام طرحين دينيين:

- طرح يهودي عنصري أرضي حاخامي، كتبه سبط يهوذا بالأساس وفريق الكتبة والصدوقيين الذين ينكرون البعث والجزاء والغيب، ويحلمون بأرض الميعاد والمملكة السياسية في الدنيا، ويقولون بوراثة الأرض الدنيوية عن طريق طرد سكانها أو إبادتهم.

- وطرح ديني إنساني، يعتبر الوصايا الدينية إنسانية تقوم على الأخلاق والقيم والعمل الصالح، وتؤمن بالله رب العالمين لا رب شعب دون باقي الشعوب، وتؤمن بالبعث والجزاء والحساب في الآخرة؛ وتعتبر أرض الميعاد جزءاً من هذا الجزاء الذي يناله المحسنون بغض النظر عن انتماءاتهم المذهبية والقومية والعنصرية؛ وأن غاية الدين إنما هي مباركة جميع أمم الأرض وليست لعنهم بالطرد أو القتل أو الاستعباد؛ وأن أكرم الناس من كانوا أحسنهم سلوكاً وأخلاقاً.

قصة يوسف وإخوته محورية في تاريخ بني إسرائيل

مثلت قصة يوسف نقطة تحول أساسية في التاريخ الإبراهيمي عموماً، وفي تاريخ بني إسرائيل خصوصاً.

فأما بالنسبة للتاريخ الإبراهيمي، أو تاريخ الملة الإبراهيمية؛ فإن إبراهيم قد خرج من أرضه وبيت أبيه، وترك عشيرته وقومه المشركين، ليؤسس أول بيت وضع للناس من أجل إخلاص العبادة لله وحده من غير شريك؛ وليعلمهم فيه مناسكهم، وليقوم بخدمته وإمامة الناس فيه؛ فكان بيت الله الحرام، أو ما أصر أهل الكتاب على تسميته باسم «بيت إيل»، ولو نقلوه إلى اللغات الأخرى، مع أن معنى العبارة هو «بيت الله»؛ لكنهم أصروا على

إفراغه من بعده الديني، ليبقى اسم موضع من غير قداسة حتى يسلطوا عليه أهواءهم.

وولد إبراهيم إسماعيل وإسحاق، واستمرّا معه في خدمة ذلك البيت؛ باعتبار هذه الخدمة وإمامة الناس في الصلاة والمناسك، عهداً بين إبراهيم وربه وذريته الصالحين من بعده.

وولد إسحاق يعقوب وولد يعقوب الأسباط الاثني عشر الذين عاشوا مع أبيهم وجدهم في نفس المكان الذي أمر الله إبراهيم للهجرة إليه.

وجاءت قصة يوسف لتغيّر مسار التاريخ الإسرائيلي، وتخرج بني إسرائيل من الأرض التي سكنها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، إلى مصر التي دخلوها آمنين ومعهم أهلهم أجمعون؛ ولم يبق في المقام الإبراهيمي إلا أبناء العم إسماعيل (بنو عمون) والأم هاجر (الهاجريون) أو أم الأب (الموآبيون) ، أو مكة (المعكيون) أو الكعبة (الجبعونيون) أو بئر زمزم (الزمزميون)؛ أو غيرها من المسمّيات التي ظلت محافظة على أصلها اللغوي في الكتاب المقدس رغم محاولات الكتمان والإخفاء.

مع موسى وهارون

ومن عهد يوسف تأسس تاريخ جديد للتجربة الإسرائيلية؛ بدأ في مصر؛ وتطور فيها مع الاضطهاد الفرعوني بعد وفاة يوسف عليه السلام؛ إلى أن جاء موسى وهارون ليقودا صناعة التاريخ اليهودي الخاص بكل خوارقه وآياته وخروقاته وإخفاقاته، في مصر أولاً ثم في الصحراء ثانياً وفي جبل سيناء وفي التيه وفي الشتات.

مع موسى تأسس الدين الكتابي، حيث إنه عليه السلام كتب الوصايا، وقاد شعباً رأى وعاش وأوتي من الآيات ما لم يُؤْتَهُ أحد من العالمين؛ وكان

هارون وزيراً لموسى يعضده وينوب عنه في الكلام وفي كثير من المهام الدينية بالخصوص.

ولما ذهب موسى لميقات ربه؛ أخلف أخاه هارون في قومه؛ قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (سورة الأعراف).

غير أن المفسدين من الشعب استغلوا فترة غياب موسى، وقرروا فتنة قومه من بعده وغوايتهم؛ واتخذوا من حليّهم جسداً له خوار، وقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي؛ وحاول نبي الله هارون صدّهم عما هم فيه، لكنهم لم يأبهوا به؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ (سورة طه).

غير أن النص الحاخمي قدم لنا رواية أخرى تتهم هارون عليه السلام بكونه هو صانع العجل الذهبي؛ قال:

«وَلَمَّا رأى الشَّعْبُ أن مُوسَى أبطأ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: «قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلهة تَسِيرُ أمامنا لأنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أصعدنا مِنْ أرْضِ مِصْرَ لا نَعْلَمُ مَاذَا أصابه». (٢) فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: «انْزِعُوا أقراط الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذان نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأتُونِي بِهَا». (٣) فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أقراط الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذانهم وَأتَوا بِهَا إِلَى هَارُونَ»[١].

«فَأخَذَ ذَلِكَ مِنْ أيديهم وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكاً. فَقَالُوا: «هَذِهِ إِلِهَتُكَ يَا إسرائيل الَّتِي أصعدتك مِنْ أرْضِ مِصْرَ!» (٥) فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ

---

(١) سفر الخروج، الإصحاح ٣٢، عدد ١-٣.

بَنَى مَذْبَحاً أمامه وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ: «غَداً عِيدٌ لِلرَّبِّ». (٦) فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلامَةٍ. وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ»[(١)].

إن الإعادة القرآنية لتلاوة قصة هارون في هذا الموقف بالذات كانت من أجل المراجعة النقدية لما نسب إلى رسول الله هارون من عمل شنيع، عوقب مرتكبوه، في النص التوراتي نفسه بالقتل؛ فكيف يصير هارون إماماً في الدين بعد قيامه بصناعة عجل مسبوك من الذهب عبده بنو إسرائيل؟

إن القرآن الكريم، وهو يقوم بهذه المراجعة، قدّم لنا ما يكفي من البيانات والآيات على ما يذهب إليه؛ وأجاب على ما يوجد من أسئلة وشبهات أثارها النص القانوني والكتبة الناسخون له، كما أثار أسئلة جديدة تتعلق بعملية تدوين الكتاب المقدس وتلاوته، وخصوصاً ما يتعلق بالسامرة والسامري التي تزخر بها نصوص الكتاب.

لقد رجع موسى آسفاً غضبان إلى قومه وأخيه؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ (سورة الأعراف).

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ

---

(١) سفر الخروج، الإصحاح ٣٢، عدد ٤-٦.

أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ (سورة طه).

إن المراجعة القرآنية موجهة للنص القانوني الذي جاء فيه: «(٢١) وَقَالَ مُوسَى لِهَارُونَ: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ هَذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟» (٢٢) فَقَالَ هَارُونُ: «لا يَحْمَ غَضَبُ سَيِّدِي! أنت تَعْرِفُ الشَّعْبَ انَّهُ شِرِّيرٌ. (٢٣) فَقَالُوا لِيَ: اصْنَعْ لَنَا آلهة تَسِيرُ أمامنا. لأنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أصعدنا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لا نَعْلَمُ مَاذَا أصابه. (٢٤) فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ لَهُ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي. فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ هَذَا الْعِجْلُ»[١]. وهو نص يقرّ فيه هارون بأنه المسؤول عن صناعة العجل، وعن الغضب الذي حل على بني إسرائيل بسببه؛ فكانت النصوص القرآنية تدافع عن براءة هذا الرسول الكريم.

لم يكتف النص القرآني بتبرئة نبي الله هارون مما نسب إليه، وإنما أبرز لنا المتهم الأول في هذه القضية، ووجه له التهمة مباشرة، وهو السامري الذي لم يشر له الكتاب المقدس في هذا الموضع أبداً، بأن له علاقة بهذا العجل المسبوك ولا بقصته.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ (سورة طه).

---

(١) سفر الخروج، الإصحاح ٣٢، عدد ٢١-٢٤.

وأورد لنا القرآن الكريم حواراً مهماً جرى بين موسى والسامري، الذي قام بجريمته عن سبق إصرار وترصّد؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦) قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾ (سورة طه).

هكذا نال السامري لعنة موسى ودعاءه عليه، وأُخذ منه إلهه وحرق ونسف في اليم نسفاً. وهو ما أكدته النصوص القانونية كذلك وإن لم تذكر السامري؛ فقد جاء في سفر التثنية قول موسى: «(٢١) وَأَمَّا خَطِيَّتُكُمُ العِجْلُ الذِي صَنَعْتُمُوهُ فَأَخَذْتُهُ وَأَحْرَقْتُهُ بِالنَّارِ وَرَضَضْتُهُ وَطَحَنْتُهُ جَيِّداً حَتَّى نَعِمَ كَالغُبَارِ. ثُمَّ طَرَحْتُ غُبَارَهُ فِي النَّهْرِ المُنْحَدِرِ مِنَ الجَبَلِ»[١].

وخلاصة القول أن السامري هو سبب ضلال بني إسرائيل وليس هارون، ولذلك أصبحت صفة السامري تعني المشرك في الثقافة الإسرائيلية، وأصبحت أرض السامرة أو مملكة السامرة تعني أرض الشرك أو مملكة الشرك، التي تقابلها مملكة الله ومملكة الكهنوت وهي مملكة إسرائيل، التي لابد من أن يكون أئمتها من بني هارون؛ ولنستمع إلى سفر ميخا وهو يحدثنا عن خطية السامرة عند بني إسرائيل، قال:

«كُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ إِثْمِ يَعْقُوبَ وَمِنْ أَجْلِ خَطِيَّةِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ. مَا هُوَ ذَنْبُ يَعْقُوبَ؟ أَلَيْسَ هُوَ السَّامِرَةَ! وَمَا هِيَ مُرْتَفَعَاتُ يَهُوذَا؟ أَلَيْسَتْ هِيَ أُورُشَلِيمَ! (٦) «فَأَجْعَلُ السَّامِرَةَ خَرِبَةً فِي الْبَرِّيَّةِ مَغَارِسَ لِلْكُرُومِ وَأُلْقِي حِجَارَتَهَا إِلَى

---

(١) سفر التثنية، الإصحاح ٩، عدد ٢١.

الْوَادِي وَأَكْشِفُ أُسُسَهَا. (٧) وَجَمِيعُ تَمَاثِيلِهَا الْمَنْحُوتَةِ تُحَطَّمُ وَكُلُّ أَعْقَارِهَا تُحْرَقُ بِالنَّارِ وَجَمِيعُ أَصْنَامِهَا أَجْعَلُهَا خَرَاباً لأَنَّهَا مِنْ عُقْرِ الزَّانِيَةِ جَمَعَتْهَا وَإِلَى عُقْرِ الزَّانِيَةِ تَعُودُ!». (٨) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنُوحُ وَأُوَلْوِلُ. أَمْشِي حَافِياً وَعُرْيَاناً. أَصْنَعُ نَحِيباً كَبَنَاتِ آوَى وَنَوْحاً كَرِعَالِ النَّعَامِ»[1].

السامرة إذن هي أرض الشرك؛ وكل أرض لا تتوافر فيها شروط التوحيد، وليس على رأسها أئمة بني هارون، فهي سامرة وأهلها سامريون، ولذلك اتُهم أبناء العم (بنو عمون) بنو إسماعيل بأنهم ملوك أرض السامرة، التي ينبغي تخريبها والقضاء عليها، وإن كان فيها بيت إيل، لأنهم لا يأتمّون ببني لاوي وبني هارون؛ ولا يخضعون لسلطة يهوذا، وإن كانت أرضهم في مشروع يهوذا ومخططه، وتسمّى باسمه «أرض يهوذا والسامرة»...

سبط هارون وسبط داود في المسيحية

كان اليهود ينتظرون مسيحاً مخلصاً يحقق لهم بعض آمالهم وأحلامهم المرتقبة في الحصول على وطن يأوون إليه، يخرجهم من ذل الغربة والشتات والسبي والتيه، ويمنحهم الدفء المفتقد في أرض تفيض لبناً وعسلاً، كما ظلوا يحلمون به دائماً.

كان اليهود يعيشون على أمل تحقيق المواعيد: وعد إبراهيم بوراثة أرض الميعاد، واسترجاع مملكة داود، والجلوس على كرسي سليمان، والخلاص من اضطهاد الأمم، ومعاقبتهم على ما فعل آباؤهم وأجدادهم فيهم، وطردهم وحتى إبادتهم هم وما يملكون إن اقتضى الأمر ذلك.

لابد للمسيح المنتظر أن يكون من النسل الملكي، من سبط يهوذا، من غصن يسى بن داود، بن سليمان ليحقق كل المواعيد.

---

(١) سفر ميخا، الإصحاح ١، عدد ٥-٨.

كان الصراع محتدماً بين سبط الملك وسبط الكهنوت، بين بيت يهوذا وداود وبين بيت لاوي وهارون؛ أيهما أحق بالمسيح؟ وما طبيعة إمامته؟ هل هو ملك سياسي، له السلطة الزمنية؟ أم كاهن ديني له السلطة الدينية؟

يبدأ الصراع من اللحظة التي قررت فيها امرأة عمران أن تنذر ما في بطنها محرراً لله رب العالمين؛ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ (سورة آل عمران).

لم يكن الكهنوت اليهودي يقبل الأنثى بين أحضانه؛ وكيف بهذه الأنثى التي جعلتها أمها نذراً لله قبل أن تلدها؟ إنها لم تكن تتوقع أن تكون أنثى؛ وهي العالمة أن الأنثى ليست كالذكر في هذا الأمر وفي هذا المجتمع؛ ولو كانت تعلم ذلك لما نذرتها محررة لله. فهل سيُرفض نذرها وهو المقدم لله رب العالمين؟ وإذا قُبل فكيف يتعامل معه المجتمع؟

كانت الحكمة الربانية تُعدّ كل شيء. كتب الله لها القبول الحسن؛ وأنبتها النبات الحسن؛ فتقارع العلماء على كفالتها، وكفلها نبي الله زكريا، الذي كان من سبط هارون، وكان إمام الناس في زمانه؛ فأدخلها إلى قدس الأقداس حيث لا تدخل الأنثى وإن كانت من بني هارون كما سطرته القراطيس التي يبدونها ويخفون كثيراً. غير أن دخولها إلى المحراب غيّر كل شيء، لقد أصبحت تُرزق من غير حساب، وتكلّمها الملائكة وتناجيها وتهنّئها وتبشّرها وتلازمها؛ كانت صدّيقة عابدة مؤمنة خاشعة راكعة ساجدة قانتة، حافظة للغيب بما حفظ الله؛ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ (سورة آل عمران).

لم يتحدث عن قصة زكريا هذه، إلا إنجيل لوقا، من الأناجيل الأربعة القانونية؛ ولم يرد في أي من الأناجيل الأربعة أي حديث عن قصة نذر أم مريم لما في بطنها لله رب العالمين؛ بل إن هذه الأناجيل قد أحجمت عن ذكر أي شيء يتعلق بالحياة العائلية والاجتماعية للسيد المسيح وأمه قبل ولادته.

ورد في إنجيل لوقا الحديث عن انتماء زكريا لبيت هارون، أو على الأصح انتماء امرأته لهذا البيت؛ ولا يمكن لزكريا أن يكون كاهناً يدخل المحراب إلا إذا كان كذلك؛ قال:

«كَانَ فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ مَلِكِ الْيَهُودِيَّةِ كَاهِنٌ اسْمُهُ زَكَرِيَّا مِنْ فِرْقَةِ أَبِيَّا وَامْرَأَتُهُ مِنْ بَنَاتِ هَارُونَ وَاسْمُهَا أَلِيصَابَاتُ. (٦) وَكَانَا كِلاَهُمَا بَارَّيْنِ أَمَامَ اللهِ سَالِكَيْنِ فِي جَمِيعِ وَصَايَا الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ بِلاَ لَوْمٍ. (٧) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا وَلَدٌ إِذْ كَانَتْ أَلِيصَابَاتُ عَاقِراً. وَكَانَا كِلاَهُمَا مُتَقَدِّمَيْنِ فِي أَيَّامِهِمَا»[١].

لم يحدّثنا إنجيل لوقا، الذي انفرد بذكر هذا الجزء من القصة، عن نذر أم مريم، ولا عن تقبّلها من الله بقبول حسن، ولا عن دخولها المحراب مع زكريا؛ بينما حدثتنا نصوص أبوكريفية متعددة عن هذا الأمر؛ حتى صار من الأدبيات المريمية؛ تقام له الأعياد والمناسبات في كثير من البلاد المسيحية في الماضي والحاضر، وعليه العديد من الرسوم والمجسمات والآثار والقصص والأخبار؛ ومن ذلك ميلاد العذراء وطفولة مريم ودخولها المعبد وخروجها منه، وأناجيل الطفولة، وولادة المسيح، وغيرها، وهي تتراوح بين

---

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح ١، عدد ٥-٧.

النصوص والأخبار والآثار المعلية من شأن العذراء والمقدسة لها؛ وبين النصوص اليهودية التي تتقوّل على مريم بهتاناً عظيماً، وكذلك على ولدها السيد المسيح. ونصوص أخرى متأثرة بكلا الأمرين بدرجات متفاوتة.

إن لوقا كاتب الإنجيل الثالث، وتلميذ بولس مؤسس الكنيسة المسيحية وطبيبه، كما قال عن نفسه في أعمال الرسل؛ كان قد شرح لنا كيفية تأليف إنجيله، قال: «إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا (٢) كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّاماً لِلْكَلِمَةِ (٣) رَأَيْتُ أَنَا أَيْضاً إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ بِتَدْقِيقٍ أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ (٤) لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ»[١].

وانطلاقاً من مقدمته هذه، ندرك أن لصاحب الإنجيل دوراً أساسياً في تأليف إنجيله، وترتيب وتتبع وتدقيق معطياته المسلمة إليه من طرف المعاينين والخدام للكلمة؛ وإننا نرى أن كثيراً من المعطيات الواردة في إنجيله قد انفرد بها عن باقي الأناجيل؛ وجزء مهم منها يتعلق بما كان قبل ولادة السيد المسيح وبعائلة أمه، وقد نسب إليه بدلاً منها. ولنا من الشواهد في الأناجيل المنحولة والأبوكريفا ما يؤكد ذلك.

لقد جاء في وصف يحيى عندما بشّر الملاك أباه به أنه سيكون «لَكَ فَرَحٌ وَابْتِهَاجٌ وَكَثِيرُونَ سَيَفْرَحُونَ بِوِلاَدَتِهِ (١٥) لأَنَّهُ يَكُونُ عَظِيماً أَمَامَ الرَّبِّ وَخَمْراً وَمُسْكِراً لاَ يَشْرَبُ وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. (١٦) وَيَرُدُّ كَثِيرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِهِمْ»[٢]. والواضح أن هذا لا ينطبق على السيد يحيى بقدر ما ينطبق على السيد المسيح، الذي ينبغي له أن يتكلم في المهد

---

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح ١، عدد ١-٤.

(٢) إنجيل لوقا، الإصحاح ١، عدد ١٣-١٩.

ليبين براءة أمه، ويؤكد آية الله المعجزة فيها وفي ابنها؛ وهو ما لا حاجة لنبي الله يحيى به؛ لأن مجرد ولادته من امرأة عاقر وشيخ كبير هو آية بينة على قدرة الله تعالى، لا تحتاج إلى مزيد أدلة.

أما براءة العذراء مما ينسب إليها من فاحشة، فلا يبرّئها منه إلا معجزة الكلام في المهد، التي تبرز القدرة الإلهية والمعجزة الربانية، وهي غاية الحدث المريمي في تاريخ الإنسانية؛ إلا أن بيان براءة العذراء من علاقة غير شرعية، يتنافى مع النظرية اليهودية لسبط يهوذا، التي تريد أن تجعل المسيح ابناً لداود، ولو فرطت في المعجزة؛ بل إن نظريتها تتنافى مع المعجزة، وتفرض أن تكون هناك علاقة غير شرعية مع أحد أبناء السبط المختار، للحفاظ على نظريته في الملك؛ وإن محاولة إخفاء الكلام في المهد؛ إنما هي محاولة لإخفاء الدليل المادي الوحيد على هذه البراءة. وهو ما اتفقت عليه جميع الأناجيل.

مقابل هذا الإخفاء للدليل المادي الوحيد على براءة العذراء، ونسبته إلى يحيى بن زكريا في إنجيل لوقا؛ الذي كان الراوي الوحيد بين رواة الإنجيل القانوني المورد لقصة ولادة يحيى المعجزة، ومعها قصة ولادة العذراء المعجزة؛ اتفقت الأناجيل جميعاً على نسبة السيد المسيح إلى سبط يهوذا الملك؛ حتى أورد متى ولوقا شجرتي نسب إليه متناقضتين؛ جعلها متى في أول إنجيله، وجعلها لوقا في الإصحاح الثالث من إنجيله؛ قال متى في مطلعها: «كِتَابُ مِيلاَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْراهِيمَ. (٢) إِبْراهِيمُ وَلَدَ إِسْحاقَ. وَإِسْحاقُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يَهُوذَا وَإِخْوَتَهُ. (٣) وَيَهُوذَا وَلَدَ فَارِصَ وَزَارَحَ مِنْ ثَامَارَ. وَفَارِصُ وَلَدَ حَصْرُونَ. وَحَصْرُونُ وَلَدَ أَرَامَ»[١].

---

(١) إنجيل متى، الإصحاح ١، عدد ١-٣.

وقال في خاتمتها: «وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يُوسُفَ رَجُلَ مَرْيَمَ الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ. (١٧) فَجَمِيعُ الأَجْيَالِ مِنْ إِبْراهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى الْمَسِيحِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً»[(١)].

وقال لوقا عن شجرة النسب هذه، في بدايتها: «وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنَ يُوسُفَ بْنِ هَالِي»[(٢)]؛ وقال عنها في وسطها: «بْنِ عَمِّينَادَابَ بْنِ آرَامَ بْنِ حَصْرُونَ بْنِ فَارِصَ بْنِ يَهُوذَا (٣٤) بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ تَارَحَ بْنِ نَاحُورَ»[(٣)]. فنسب السيد المسيح إلى سبط يهوذا.

إن شجرة النسب المذكورة في هذين الإنجيلين، تختلف الواحدة منهما عن الأخرى في كل شيء: في عدد الآباء بين الرجل المنسوب إلى مريم، وانتهاءً بإبراهيم؛ حيث يذكر إنجيل متى أربعين أباً؛ بينما يذكر إنجيل لوقا خمسة وخمسين أباً؛ وحيث لا تشابه بين الأسماء فيهما من بعد داود.

إنه بالتأمل في شجرة النسب هذه في الإنجيلين، رغم اعترافهما بالولادة المعجزة للسيد المسيح، وأنه لم يكن ابناً لهذا الخطيب المزعوم يوسف؛ لندرك حجم الإصرار الكتابي على ربط السيد المسيح بسبط يهوذا؛ ولو كان ذلك على سبيل التبني كما في إنجيل متى، أو من باب الظن عند عامة الناس كما هو في إنجيل لوقا؛ إن الإنجيل الأول وهو يقرر منذ البدء أن السيد المسيح هو ابن داود ابن إبراهيم، ويفتتح بكتاب ميلاد السيد يسوع المسيح، ليكشف لنا عن الفكرة المركزية للكتاب/ إنجيل متى؛ إنها بيان المطابقة بين

---

(١) إنجيل متى، الإصحاح ١، عدد ١٦-١٧.
(٢) إنجيل لوقا، الإصحاح ١، عدد ٢٣.
(٣) إنجيل لوقا، الإصحاح ١، عدد ٣٣-٣٤.

النبوءات الكتابية السابقة عن المسيح المنتظر، وبين مجيء السيد المسيح الذي تتحقق فيه تلك النبوءات؛ مع ما رافق شجرة النسب هذه من إدخال لشخصيات نسائية مشبوهة في شجرة تختم بالسيدة العذراء؛ وكأن الراوي يحاول أن يؤكد لنا أن مسألة العلاقات غير الشرعية مسألة واردة في هذا النسب، ولا يمكن إبعادها عن السيدة العذراء؛ وهو ما نلمسه كذلك في سلوك هذا الخطيب تجاه امرأته التي لم يدخل بها بعد، ووجدها حبلى من الروح القدس، ولأنه كان يخاف الله، فقد قرر إبقاءها سراً ولم يرد أن يفضحها، حتى ولدت ابنها البكر، وتبنّاه هو دون أن يعلم أحد؛ فصار المسيح ابناً بالتبني ليوسف الخطيب هذا وإن لم يكن من نسله حقيقة. نفس الأمر نجده عند لوقا، الذي أخبرنا أن المسيح ابن داود من سبط يهوذا على ما كان يظن، وليس على ما هو عليه الأمر في حقيقته، حيث بشرها الملاك بغلام من غير أن تعرف بشراً، أو تكون له معه علاقة؛ وفي كلا الإنجيلين ألغي الدليل المادي على هذه المعجزة، والذي هو الكلام في المهد، ونسب المسيح إلى داود فيهوذا، لتتحقق النبوءات اليهودية والوعود بأرض الميعاد ومملكة داود وكرسي سليمان وغيرها من الأماني والأهواء الخاصة بسبط يهوذا.

هكذا إذاً تحول السيد المسيح إلى ابن داود في جميع الأناجيل، حتى كان يناديه المرضى والمجانين والشياطين باسمه «ابن داود» فيها جميعاً.

مراجعة قرآنية

عقد القرآن سورة من أطول سوره للحديث عن آل عمران، سُمّيت بهذا الاسم، وعقد سورة أخرى للحديث عن مريم العذراء، سُمّيت سورة مريم، ووردت كثير من الأحاديث القرآنية عن مريم وابنها في سور متعددة؛ كانت

جميعها تعالج قضايا فكرية وعقائدية وتاريخية ومعرفية تعرض لها أهل الكتاب، ومنها موضوع السبط والعائلة والذرية.

كانت سورة آل عمران تعالج منذ البدء موضوعاً أساسياً في المسيحية، وفي اليهودية من قبلها، يتعلق بالذات الإلهية، وبالتاريخ الديني لليهود والنصارى، وبالتزوير الذي لحق التاريخ والمعتقد والدين، وخصوصاً في المسيحية؛ وكانت السورة تناقش، ولو من طرف خفيّ يعلمه المطلع على الكتب المقدسة، مسألة التوحيد ومسألة الأسباط التي نحن بصدد مدارستها؛ وخاصة في النص الإنجيلي القانوني كما استقر عليه أهل الكتاب؛ وكان أول إنجيل تناقشه هو إنجيل متى بالذات، الإنجيل الأول في الترتيب القانوني؛ وبعده إنجيل لوقا؛ حتى تم التركيز في مناقشة الإنجيل الأول على «آل عمران»، وتم في مناقشة الإنجيل الثالث التركيز على آل هارون.

إن سورة آل عمران بعد إثارتها في مطلعها للعديد من قضايا التلاعب على متشابهات الكلام، ابتغاءً للفتنة وزرعاً للشكوك وإخفاءً للحقيقة المحكمة؛ انتقلت لمراجعة الإصحاح الأول من إنجيل متى، في موضوع نسب السيد المسيح؛ مبينة أن السيد المسيح والأنبياء والرسل قد اصطفاهم الله من الذرية الطاهرة التي لا مجال للطعن فيها؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (سورة آل عمران)؛ وكانت السورة بذلك، تبرئ ساحة آل عمران مما نسب إليها من بهتان؛ والذي نص عليه القرآن كذلك ونسبه إلى الذين كفروا من بني إسرائيل في قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ (سورة النساء)؛ وهكذا بدأت السورة في مناقشة الأناجيل بتنقية المخيال من مقولات اليهود وأخبارهم وقصصهم وإيحاءاتهم وطعونهم في السيدة العذراء وابنها، والتي ما زالت مسجلة في التراث اليهودي، في

التلمود وغيره، كما هي مسجلة في الأدبيات المسيحية والأناجيل الأبوكريفية والمنحولة. وإن كثيراً من مصادر الأناجيل القانونية إنما كانت هي هذه الروايات.

لقد أسقطت سورة آل عمران ما سمّاه إنجيل متى «نسب السيد المسيح»، وبيّنت أن الذرية المصطفاة لا تكون فيها العلاقات غير الشرعية وزنى المحارم وزيجات الغصب كما هو مذكور في النسب المزعوم؛ وإنما هي ذرية مصطفاة بعضها من بعض، كثيراً ما تكون استجابة لطلب ودعاء يكون من الصالحين والله سميع عليم.

وتطبيقاً لهذه النظرية القرآنية في النسب المصطفى، عُرضت قصة آل عمران، التي ابتُدئت بدعاء، استجاب الله له؛ يدل على إيمان امرأة عمران وإخلاصها لربها وحبها للتقرب إليه حتى جعلت ما في بطنها محرراً لله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ (سورة آل عمران).

ويستمر العرض القرآني في بيان خصائص هذه الفتاة المحررة لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ (سورة آل عمران).

لقد أعاد القرآن إبراز هذه المرحلة من حياة العذراء، التي صفحت الأسفار القانونية المسيحية عن ذكرها؛ بينما ذكرتها أناجيل وأسفار غير قانونية كثيرة؛ مع ما تحمله تلكم الأسفار والأناجيل من اختلافات واختلالات؛ لكنها كلها تؤكد أن مرحلة مهمة من حياة العذراء قد صفحت

الكنيسة عن ذكرها واعتمادها وجعلها قانونية، رغم أن الذاكرة الشعبية حافظت عليها بأشكال مختلفة متعددة، في الأعياد والمواسم والمناسبات، والرموز والأمثال والأشعار والأغاني، والرسوم والمجسمات، والقصص والروايات وغيرها.

إن إعادة الاعتبار لهذه المرحلة المهمة من حياة العذراء، التي تدل على كونها قد اصطفاها الله واختارها ليجعلها وابنها آية للعالمين؛ تصدّقها نصوص إنجيلية عدة، منها: «(٢٨) فَدَخَلَ إِلَيْهَا الْمَلاَكُ وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ». (٢٩) فَلَمَّا رَأَتْهُ اضْطَرَبَتْ مِنْ كَلاَمِهِ وَفَكَّرَتْ مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التَّحِيَّةُ! (٣٠) فَقَالَ لَهَا الْمَلاَكُ: «لاَ تَخَافِي يَا مَرْيَمُ لأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ اللهِ»؛ ومنها «(٤٦) فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «تُعَظِّمُ نَفْسِي الرَّبَّ (٤٧) وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللَّهِ مُخَلِّصِي (٤٨) لأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى اتِّضَاعِ أَمَتِهِ. فَهُوَذَا مُنْذُ الآنَ جَمِيعُ الأَجْيَالِ تُطَوِّبُنِي (٤٩) لأَنَّ الْقَدِيرَ صَنَعَ بِي عَظَائِمَ وَاسْمُهُ قُدُّوسٌ (٥٠) وَرَحْمَتُهُ إِلَى جِيلِ الأَجْيَالِ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَهُ.»[1].

إن هذه المنعم عليها، والمباركة في النساء، والتي وجدت نعمة عند الله، والتي منذ الآن جميع الأجيال تطوّبها، لأن القدير صنع بها عظائم؛ هي التي أعاد القرآن الكريم الاعتبار لها، بعد أن حشرها الإنجيل القانوني الأول في زمرة البغايا وزانيات المحارم، وأدخل في حياتها رجلاً يخفي فضيحتها حتى تلد ابنها الأول؛ وسلبها من دليل براءتها، وآيتها التي هي الكلام في المهد؛ ونسب الإنجيل القانوني الثالث آيتها هذه، ليحيى بن زكريا مع عدم حاجة هذا النبي لهذه الآية، ولم يثبت حتى في الإنجيل القانوني أنها من معجزاته.

---

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح ١، عدد ٤٦-٥٠.

جاء هذا الإبراز القرآني لهذه المرحلة من حياة العذراء ليصدّق البشرى الواردة في الإنجيل القانوني ذاته، وليؤكد ما جاء فيها من معاني الاصطفاء والمباركة والتكريم، لأعظم امرأة في العالمين: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (سورة آل عمران).

وجاء هذا الإبراز ليسكت كل إيحاءات البهتان التي سلطها الكافرون من أهل الكتاب على قصتها؛ ليهتموا بالسبط المبارك يهوذا والمواعيد المخصصة لنسله وذريته بالملك والسلطة، على حساب الوحي والدين.

وجاء هذا الإظهار لمكانة العذراء، ليرد على الإهمال المتعمّد لشخصها في الأناجيل الأربعة، وباقي رسائل التلاميذ إلى الكنائس المختلفة، إلا ما أشرنا إليه في مطلع الإنجيلين الأول والثالث من ذكر يتخلله دخن كثير؛ ويرد على الإهانات المتعمدة لها في تلكم المواضع القليلة التي ورد ذكرها فيها في الإنجيل القانوني؛ حيث نرى في بعضها أن ابنها يسوع المسيح يتبرأ منها باعتبارها ليست من الذين يصنعون مشيئة الله، ولا من الذين يسمعون كلام الله ويعملون به: «ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ نَحْوَ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ: «هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي. (٥٠) لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي»[١].
وجاء في إنجيل لوقا جواباً على الذين أخبروه أن أمه وإخوته كانوا ينتظرونه خارجاً: «فَأَخْبَرُوهُ: «أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ وَاقِفُونَ خَارِجاً يُرِيدُونَ أَنْ يَرَوْكَ». (٢١) فَأَجَابَ: «أُمِّي وَإِخْوَتِي هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ كَلِمَةَ اللهِ وَيَعْمَلُونَ بِهَا». ورغم ما في هذا النص من العقوق، الذي كان السيد المسيح يحاربه في وصاياه؛ ومن عدم الاعتراف بأعظم صدّيقة في العالم؛ فقد كان الجواب القرآني يرد على

---

(١) إنجيل متى، الإصحاح ١٢، عدد ٤٩- ٥٠.

هذه التجاوزات والتقولات بوضوح لا يدركه إلا الدارسون للإنجيل والعالمون بأسراره وخفاياه؛ ومن ذلك قوله تعالى على لسان السيد المسيح وهو يبرئ أمه مما ينسب إليها، عندما تكلم في المهد، مدافعاً عنها وعن شرفها وعفتها وصدّيقيتها: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ (سورة مريم). إن هذا النص من ضمن نصوص كثيرة في القرآن الكريم كان يدافع عن العذراء، وعن كل القضايا المثارة ضدها، داخل الإنجيل القانوني وخارجه، عند اليهود والنصارى وغيرهم.

إن ما يهمنا في هذه المدارسة هو إعادة الاعتبار إلى آل عمران العائلة العابدة المؤمنة المتقية، والتي أهملتها الأناجيل القانونية، وأعاد ذكرها القرآن الكريم، وخصص لها سورة من أطول سوره؛ وبيّن ارتباطها بالمجال الديني واهتمامها بخدمته، حتى نذرت نساء هذه العائلة فلذات أكبادها لهذه المهمة، فكان ما كان من قصة مريم الأنثى.

ثم انتقلت سورة آل عمران إلى الحديث عن زكريا (זכריה: الذاكر)، الذي كفلها، وبيّن لنا القرآن الكريم أن العلماء كانوا يتسابقون على كفالتها، وجاءت قرعتها على زكريا عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (سورة آل عمران).

إن حديث القرآن عن إلقاء الأقلام، وعن زكريا والمحراب، يدل على مجال التداول الذي كانت فيه مريم الصديقة، وهو مجال ديني؛ وأنها عليها السلام تنتمي لهذا المجال؛ وفي هذا الإطار جاءت قصتها في القرآن، وهو ما أكده النص القرآني الذي حدثنا عن مواجهة قومها لها عندما جاءتهم

بولدها، في سورة مريم؛ قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ (سورة مريم). فهي أخت هارون، بمعنى من سبطه؛ وأبوها كان رجلاً صالحاً وكذلك أمها. وإن زكريا الذي كفلها كان كاهناً، بمعنى إمام من بيت هارون؛ وامرأته كانت من بنات هارون كما ينص عليه إنجيل لوقا؛ وهما من عائلة العذراء، وقد أخبرنا إنجيل لوقا أنها كانت نسيبتها؛ كما أخبرنا هذا الإنجيل عن قيام زكريا بمهامه الدينية في نوبة كهنوته؛ وهو ما يسقط كل محاولات إخراج مريم وابنها من سبط هارون إلى سبط داود فيهوذا.

إن آية مريم في حد ذاتها هي إسقاط لهذه المنظومات القَبَلية والمذهبية والذكورية والآبائية؛ لقد جاءت مريم لتدخل إلى قدس الأقداس الذي ظل يحتكره الذكور من بني هارون؛ فتكسر التقليد اليهودي في ذلك أولاً، وتجعل الدين عاماً للرجال والنساء، وتعيد للنساء حق الإمامة الدينية وخدمة الرب في بيته، بعد أن حُرمت المرأة من ذلك طويلاً لأسباب مختلفة.

وإن آية السيد المسيح جاءت لتسقط العنصرية اليهودية التي جعلت من النسل الإسرائيلي موضعاً للبركة دون باقي العالمين، فالدين والبركة والنُّبوة لا تكون إلا في بني إسرائيل؛ فكان المسيح الذي لم يولد من أب كيفما كان جنسه خرقاً لقاعدة النسل المبارك والآباء والوراثة العنصرية؛ كان ميلاده ووجوده يسقط النظرية العنصرية، فهو نبي ورسول ومبارك وآية بينة من الله، ومؤيد بالآيات والمعجزات التي تدل على رسالته ونبوته، لكنه لم يتسلم كل ذلك من أب أو عنصر أو سبط؛ بل جاء ليسقط هذه الانتماءات المزعومة ولينشئ انتماءً جديداً أسّسه إبراهيم من قبل والأنبياء؛ انتماءً إلى العمل الصالح؛ قال عليه السلام وهو يرد على المنتسبين إلى شجرة إبراهيم، قائلاً

لهم : «وَلاَ تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْراهِيمُ أَباً. لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هَذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلاَداً لإِبْراهِيمَ. (١٠) وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ فَكُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَراً جَيِّداً تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ»[1].

هكذا كانت دعوة السيد المسيح إبطالاً للعنصرية اليهودية بكل أسباطها وفروعها وإنشاءً لدين عالمي جديد، يقوم على الإيمان والعمل الصالح لا على الانتساب إلى الآباء و الأجداد. وفي رده على الذين يقولون: «أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ أَوْلاَدَ إِبْرَاهِيمَ لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ!»[2].

وجاء محمد صلى الله عليه وسلم من بعده بدعوته العالمية، ليؤكد ما قاله السيد المسيح والأنبياء والرسل من قبله، فقال، كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (سورة آل عمرن)؛ وقال لأولئك الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، من أعمال آبائهم وأجدادهم وأسباطهم وأممهم، من جميع المذاهب والأمم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (سورة الحجرات).

وقال لهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ (سورة البقرة).

(١) إنجيل متى، الإصحاح ٣، عدد ٩-١٠.
(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح ٨، عدد ٣٩.



الفصل السادس

قصة يوسف وإخوته

وردت قصة يوسف في سفر التكوين من الكتاب المقدس من بداية الإصحاح السابع والثلاثين إلى نهاية الإصحاح الخمسين؛ وخصّص القرآن الكريم للقصة نفسها سورة من سوره أطلق عليها اسم «سورة يوسف».

تحدثت القصة في سفر التكوين عن يوسف منذ رؤياه التي رآها في صغره إلى أن صار ملكاً في مصر، وجاء إليه جميع بني يعقوب وسكنوا معه في مصر.

وتحدث عنها النص القرآني بتفصيل مماثل؛ كما ضمت التلاوة القرآنية إضافات نوعية، تتعلق بمتن القصة ومضامينها؛ وتتعلق ببيان الدور الذي يقوم به القرآن اتجاه الكتب المقدسة السابقة، واتجاه أهل الكتاب وغيرهم؛ وإننا بمتابعتها لهذه الدراسة سنكتشف بعض أوجه هذه الإضافة.

التأطير القرآني للقصة

بدأت سورة يوسف بالحديث عن آيات الكتاب المبين، وعن إنزال الله للقرآن العربي للناس لعلهم يعقلون، وعن قص الله لأحسن القصص فيه، وإن كان الرسول عن هذا الأمر، من قبله لمن الغافلين[١]، لأنه لم يكن قارئاً ولا كاتباً للكتب السابقة عليه، وكذلك قومه الأميون.

إن حديث القرآن في مطلع هذه السورة عن الوحي والعروبة والأمية يدخل

---

(١) سورة يوسف ١-٢.

في إطار الجدل القرآني الكتابي، ويرد على الاتهامات الكتابية الموجهة لمحمد صلى الله عليه وسلم ولما أنزل إليه من كتاب، وخلاصة الرد القرآني على هذه الاتهامات، هي أن القرآن من الوحي المنزل على محمد من الله رب العالمين؛ وليس من قول البشر؛ وآية ذلك أمية الرسول وقومه، إذ لو كان النبي محمد قارئاً أو كاتباً أو عالماً بالكتاب السابق، هو أو قومه، لكان مدعاة للارتياب والشك؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (سورة العنكبوت)؛ كما أن القرآن لو كان بغير اللغة العربية لكان مدعاة للقول بأنه من قول الأعاجم العالمين بالكتاب المقدس؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ (سورة الشعراء).

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (سورة النحل).

أمية الرسول وقومه، وعروبة القرآن، تقطع كل شك وارتياب في أن ينقل محمد هذا القرآن من علماء أهل الكتاب الأعاجم أو كتبهم، أو يقوم بترجمته من لغة أخرى، وهو ما يشهد بأصالته في اللغة العربية؛ وإن الحروف المقطعة التي تبدأ بها سور القرآن هي نفسها شاهدة على هذا المعنى، ولذلك سمّاها القرآن آيات الكتاب العربي المبين، إذ لا يستطيع أحد نقل هذه الحروف من لغة إلى لغة إلا تفقد أصالتها وتدل على مصدرها؛ فـ(ألف) و(لام) و(راء) دالة على العربية، ولو ترجمت من لغة أخرى لكان النطق بها مختلفاً يدل على أصلها.

بدأت سورة يوسف بالحروف المقطعة، ألف، لام، راء؛ وبيّنت السورة أنها آيات الكتاب المبين، وذكرت أن الله هو من أنزل القرآن العربي من أجل أن يعقل الناس، فكانت عروبة القرآن بذلك آية بيّنة تحتاج إلى تدبّر وتفكر وتعقل لإدراك حقيقة ما أنزل على محمد. ثم أكدت لنا السورة أن الله هو الذي يقص أحسن القصص عن طريق وحي هذا القرآن إلى محمد، الذي كان غافلاً عن هذا الأمر كله، ولم يكن له به من علم، من قبل[(١)].

التأطير الكتابي للقصة

أما سفر التكوين فبدأ القصة بذكر أرض كنعان باعتبارها مسكن يعقوب في أرض غربة أبيه، وذكر رعي يوسف مع إخوته وعمره سبع عشرة سنة عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه[(٢)]. وإتيان يوسف لأبيه بنميمة إخوته الرديئة، وإخبار إخوته بأحلامه التي تفيد أنه سيملك ويتسلط عليهم، فكانوا يزدادون بغضاً له بسبب ذلك[(٣)].

وفي سورة يوسف بدأت قصته بإخبار أبيه برؤياه، التي رأى فيها أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين. فأوصاه أبوه أن لا يقص رؤياه على إخوته خوفاً من أن يكيدوا له[(٤)].

ويلاحظ أن التلاوة الكتابية للقصة، جعلت بغض إخوة يوسف لأخيهم إنما كان بسبب أعماله؛ فهو يأتي بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم، وهو يقص أحلامه عليهم؛ كل ذلك نفته التلاوة القرآنية عنه، وبيّنت أنه لم يقصّ رؤياه

---

(١) انظر سورة يوسف ١-٢.
(٢) سفر التكوين ٣٧/ ١- ٢.
(٣) سفر التكوين ٣٧/ ٣- ٨.
(٤) انظر سورة يوسف ٣-٥.

على إخوته، بل على أبيه فقط، وقد أوصاه أبوه أن لا يفعل، لما كان يعلمه من موقف إخوته المسبق منه، وما يعلمه من طبيعة النفس البشرية وغيرتها على من يتفضل عليها. وخصوصا لمّا أضيف العامل الاجتماعي المتمثل في كون يوسف وأخيه ابنين لامرأة أخرى لا ينبغي لهما أن يتفضلا عليهم وهم عصبة[1].

لقد برّر العرض الحاخامي السلوك العدواني لإخوة يوسف؛ فهو قد حلم حلماً آخر، وقصّه على إخوته، وفيه أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين. وقص الرؤيا كذلك على أبيه الذي انتهره على حلمه، واستنكر عليه أن يأتي هو وأمه وإخوته ليسجدوا له؛ وحسده إخوته من أجل ذلك[2].

وأما النص القرآني فعرض نفس القصة، مزيلاً عنها الصورة السلبية المقدمة عنه؛ فليس هناك النميمة التي نسبوها إليه؛ وليس هناك رواية الأحلام التي جعلتهم يبغضونه[3]؛ وبذلك توافق العرض القرآني الإيجابي ، مع عروض كتابية أخرى غير قانونية؛ منها وصية يوسف، يقول فيها: «يا أبنائي، وأنتم يا إخوتي، اسمعوا يوسف، محبوب إسرائيل، وأصغوا لكلام فمي.

لقد رأيت في حياتي الحسد والموت، ولم أضلل، بل بقيت في حقيقة الرب. (٤) لقد أبغضني إخوتي، لكن الرب أحبني. كانوا يريدون قتلي، لكن إله آبائي حفظني. (٥). رموني في الهوة، والعلي أصعدني منها. باعوني عبداً، وحررني سيد الأشياء كلها»[4].

---

(١) انظر سورة يوسف ٨.

(٢) سفر التكوين ٣٧/ ٩- ١١.

(٣) انظر سورة يوسف ٣-٥.

(٤) مخطوطات قمران، الجزء الثاني، **وصية يوسف**، ص ٤٣٢.

لقد حكى لنا يوسف الصديق في وصيته أنه بقي في حقيقة الرب ولم يضلل. وأن إخوته أبغضوه وأرادوا قتله دون أن يرتكب في حقهم ما يوجب ذلك. كما اعترف لنا في وصيته بأنه كان طيباً وصادقاً. وقد فسر لنا القرآن الكريم سبب قولهم: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ (سورة يوسف)؛ وكانت مؤامرة القتل أو الإلقاء في الجب لأجل التخلص منه لكونه يحول بينهم وبين وجه أبيهم: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ (سورة يوسف).

١ - تأويل الأحاديث

لم يتحدث النص التوراتي عن علم تأويل الرؤيا الذي امتاز به يوسف، باعتباره نعمة خصه الله بها؛ أوصلته إلى أعلى المراتب، وكانت من تمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق من قبل؛ وهو ما أشار إليه القرآن، وبيّن ما له من أهمية في قصة يوسف ككل؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ (سورة يوسف).

٢ - حب يوسف وأخيه

عرض علينا النص الحاخامي حب يعقوب ليوسف أكثر من باقي إخوته باعتباره معطى أساسياً، وذكر لنا أن سبب حبه له، هو أنه ولد شيخوخته؛ مضيفاً أنه اشترى له قميصاً ملوّناً دون سائر إخوته، مما زاد من بغضهم له[1]؛

(١) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٧، عدد ٣-٤.

وبذلك نجد كأن كثيراً من النصوص الحاخامية السابقة كانت تسعى لتبرير السلوك الإجرامي لإخوة يوسف ضده، إذ إنه بسبب سلوكه وسلوك أبيه أبغضه إخوته.

لكن النص القرآني عرض لنا القصة بطريقة أخرى، معتبراً أن مقولات النص الكتابي هي عينها مقولات إخوة يوسف على أبيهم وأخيهم، ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ (سورة يوسف)؛ ولم يعلق القرآن على قولهم ذلك؛ لأنه ولو صح شيء منه فلا يمكنه أن يكون مبرراً للإجرام الذي قاموا به في حقه.

لقد أعاد القرآن الكريم تلاوة القصة الكتابية، بما يجعلها متوافقة مع الحقيقة التاريخية، مزيلاً عنها التحيّزات القبلية والعنصرية التي لحقتها في تاريخها الطويل؛ وهو ما بيّنه يوسف في وصيته «المنحولة» بأنه كان محبوباً من طرف أبيه، لكنه كان صالحاً وصادقاً ومجلاً لإخوته ومحترماً لهم، ولم يكن في سلوكه ما يبرر حقدهم عليه وكراهيتهم له، قال: «كان إخوتي يعرفون كم أن أبي يحبني، ولم أكن أترفع بالفكر؛ وعلى الرغم من أنني لم أكن سوى طفل، فقد كنت أخاف الرب في قلبي، لأنني كنت أعرف أن الأشياء كلها زائلة. ولم أكن أعظم نفسي، بل كنت أجلّ إخوتي، واحتراماً لهم لم أقل للإسماعيليين عندما باعوني إنني كنت ابن يعقوب، وهو رجل قوي وعادل»[1].

٣ - خروج يوسف مع إخوته

حدثنا سفر التكوين الحاخامي عن خروج يوسف بأمر من أبيه ليرعى مع إخوته، الذين ظلّ يسأل عنهم حتى وجدهم في مكان بعيد في دوثان[2]؛ ولما

---

(١) مخطوطات قمران، الجزء الثاني، وصية يوسف، ص ٤٣٥.

(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٧، عدد ١٣-١٧.

أبصروه قرروا قتله[1]. وهو ما يفيد أن مؤامرتهم على أخيهم، إنما كانت أمراً طارئاً حدث عند رؤيتهم له في مرعاهم، من دون سبق إصرار وترصد[2]؛ وحدثنا القرآن الكريم حديثاً مخالفاً، بيّن فيه أن خروج يوسف كان بطلب من إخوته لأبيهم بعد مؤامرتهم عليه بأن يقتلوه أو يطرحوه أرضاً ليخلو لهم وجه أبيهم[3]؛ وقد استنكروا على أبيهم في هذا الطلب حرصه عليه وعدم أمنه عليه عندهم؛ فبيّن لهم الأب العليم بأبنائه وحسدهم لأخيهم أنه يخاف عليه أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون؛ فأمّنوه وأخذوه معهم[4]. وأن المؤامرة كانت قبل خروجهم به إلى المرعى[5].

وذكرت لنا القصة الحاخامية أن مقترحهم الأول كان هو القتل، وكان المقترح الثاني هو ترك قتله والاكتفاء بإلقائه في البئر، وهو ما أكده النص القرآني كذلك؛ كما أكد أن إخوة يوسف لم يكونوا في درجة واحدة في التآمر على أخيهم.

وتحدث النص القرآني عن نزغ الشيطان، في وصية يعقوب لابنه بعدم قص الرؤيا على إخوته: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ (سورة يوسف)؛ وهو ما اعترف به دان في وصيته عن روح الغيرة والغضب، حيث قال له بلعار (الشيطان): «خذ هذا السيف واقتل يوسف، وسيحبك أبوك بعد أن يموت يوسف» (٧). وهو نفس الاعتراف الذي اعترف به شمعون في وصيته كذلك، إذ قال: «لقد كنت غيوراً جداً في شبابي من يوسف، لأن أبي

---

(١) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٧، عدد ١٨-٢٠.
(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٧، عدد ١٨-٢٢.
(٣) سورة يوسف ٩-١٠.
(٤) سورة يوسف ١١-١٤.
(٥) سورة يوسف ٩-١٠.

كان يحبه. فقسّيت كبدي عليه لكي أهلكه، لأن رئيس الضلال أعمى ذكائي إذ رأى روح الغيرة، حتى لا أرعاه كأخ ولا أراعي أبي يعقوب»[1].

إنها نفس الكلمات التي أوردها القرآن الكريم على لسان إخوته: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾.

٤ - يوسف يوحى إليه

لم يتحدث النص الكتابي القانوني عن وحي ما، أوحي إلى يوسف في طفولته، بينما تحدث القرآن الكريم عن هذا الوحي، عندما أنبأ يوسف إخوته بأمرهم وهم لا يشعرون؛ وهو ما أعاد الاعتبار لبعد الغيب والنبوة في القصة، الذي كان غائباً عن التلاوة الحاخامية. وجاء في وصية زبولون في مخطوطات قمران، الحديث عما أنبأ به يوسف إخوته وهم يريدون إلقاءه في غيابات الجب، عندما تقدم شمعون ودان وجاد من يوسف لقتله، فقال لهم باكياً: «أشفقوا عليّ يا إخوتي، وارحموا أحشاء أبيكم يعقوب. فلا ترفعوا أيديكم عليّ لتهرقوا الدم البريء لأنني لم أخطئ تجاهكم. ولكن إذا كنت قد أخطأت فعاقبوني بقسوة يا إخوتي، لكن لا ترفعوا أيديكم عليّ بسبب يعقوب أبيكم.»[2]؛ وبذلك صدّق هذا المقطع من وصية زبولون الإضافة النوعية القرآنية.

٥ - أكله الذئب

تحدث النص التوراتي عن إخبار بني يعقوب لأبيهم بأكل وحش رديء ليوسف؛ ثم جاؤوا أباهم بقميصه ليتأكد مما وقع لابنه، فمزق يعقوب ثيابه

(١) مخطوطات قمران، الجزء الثاني، **وصية شمعون**، ص ٣٢٤.
(٢) مخطوطات قمران، الجزء الثاني، **وصية زبولون**، ص ٣٨٩.

وناح على ابنه أياماً كثيرة، وأبى أن يتعزى[1]؛ وذكر القرآن الكريم نفس الحدث، وكان مبرّراً بقولهم: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ (سورة يوسف، ١٧)؛ ولم يرد في التلاوة التوراتية تبرير للحدث؛ لأن التبرير في القصة التوراتية لا معنى له، لكونهم لم يأخذوا يوسف من يد أبيهم، وإنما كان يعقوب هو المسؤول عنه، عندما أرسله إلى إخوته في الخلاء، دون أن يخاف عليه من وحش أو ذئب أو غيره.

٦ - بيع يوسف

لم يتعرّض القرآن الكريم لموضوع بيع يوسف من طرف إخوته، بل من طرف السيارة الذين وجدوه في الجب وأسرّوه بضاعة؛ وباعوه بثمن بخس.

بينما تحدث النص الحاخامي عن الرغبة في بيعه من طرف إخوته بعد أن أخبروا أباهم بما ادعوا أنه قد طرأ له؛ وبالنظر في هذا الاستدراك يظهر أن هذا الجزء من النص ملحق؛ إذ إن موضوع قتل يوسف قد حُسم الأمر فيه، واتفقوا على طرحه في البئر؛ ولا يمكن بعد ذلك أن يناقشوا موضوع قتله من جديد، ليأتي يهوذا، فيكرر: ما الفائدة من أن نقتل أخانا ونخفي دمه، تعالوا نبيعه للإسماعليين[2]؟؟؟ ولعل الذي ألحق هذا الجزء من النص بالكتاب المقدس، إنما كان يريد تبرئة يهوذا من إثم أخيه يوسف ولكن بعد فوات الأوان.

لقد تحدث كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم عن بيع يوسف، فذكر النص الكتابي أن المديانيين أصعدوا يوسف من البئر وباعوه للإسماعيليين

---

(١) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٧، عدد ٣١-٣٥.

(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٧، عدد ٢٦-٢٧.

الذين أتوا به بدورهم إلى مصر[١]؛ وذكر النص القرآني السيارة الذين أخرجوا يوسف من الجب، وأسرّوه بضاعة، وباعوه بثمن زهيد[٢] ولم يذكر لنا طبيعة المشترين ولا البائعين، اللهم إلا كون الأولين سيارة بمعنى أعراب رحل؛ وكون العزيز هو الذي اشتراه من مصر.

وحدثنا النص الكتابي عن رجوع رأوبين (الابن الكبير) إلى البئر من أجل رد يوسف إلى أبيه، كما حدثنا عن طلب يهوذا من إخوته أن يبيعوا يوسف بدل أن يقتلوه، وهي استدراكات لا معنى لها في القصة، بعد إلقاء يوسف في البئر والمجيء على قميصه بدم كذب إلى أبيه، وبيعه من طرف السيارة . وهو ما يعني أن هذه الإضافات لم تكن من صميم النص الكتابي، بل من ملحقاته.

وذكر النص الكتابي أن المديانيين هم الذين باعوه في مصر لفوطيفار خصيّ فرعون[٣]؛ والملاحظ أن خللاً ما قد طرأ في الموضوع، لأنه إذا كان المديانيون قد استخرجوا يوسف من البئر، وباعوه للإسماعيليين، ينبغي أن يبيعه الإسماعيليون في مصر لا المديانيون كما ذكره النص الكتابي؛ بينما صفح النص القرآني عن ذكر هذه التفاصيل؛ واكتفى بالحديث عن الذي اشتراه من مصر.

وذكر النص الكتابي نجاح يوسف في أعماله في بيت سيده[٤]. كما ذكر النص القرآني تفصيلاً مهماً يتعلق بمقام يوسف في مصر، في بيت الذي اشتراه، يتعلق بتكوينه؛ لقد طلب الرجل من امرأته أن تكرم مثوى يوسف،

---

(١) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٧، عدد ٢٨.

(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٧، عدد ٢٨.

(٣) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٧، عدد ٣٦.

(٤) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٩، عدد ١-٢.

من أجل أن ينفعهم، أو يتخذوه ولداً؛ وبذلك مُكّن ليوسف في الأرض، وأصبح عالماً بتأويل الرؤى[١].

لقد نال يوسف حظوة عند سيده، فعلّمه كولده، وجعل له مسؤولية مهمة في بيته ومجال اشتغاله؛ وكان يوسف مُحسناً في عمله ناجحاً فيه؛ وذكر لنا الكتاب المقدس البركة التي حلت على بيت سيده بسببه[٢]، وذكر لنا القرآن الكريم، أن يوسف كان من المحسنين فجوزي بحسن عمله إحساناً مماثلاً[٣].

٧ - المراودة

ذكر النص الكتابي أن امرأة سيد يوسف راودت يوسف عن نفسه وقالت له «اضطجع معي»، فأبى واعتبر هذا الأمر شراً عظيماً وخطيئة إلى الله ولا يمكنه أن يقترفها؛ وقد فعلت مثل ذلك مراراً إلى أن جاء يوم كان يعمل فيه يوسف في بيتها، فأمسكته بثوبه قائلة «اضطجع معي»، فهرب وترك الثوب في يدها وفر إلى خارج[٤].

وذكر النص القرآني هذه المراودة، وكيف أن المرأة أعدت لها بإحكام، حيث إنها غلّقت الأبواب، وقامت بما تقوم به النساء لإغواء الرجال، وقالت هيت لك؛ فأبى وذكر إحسان سيده له، وخوفه من ربه أن يكون من الظالمين؛ كما ذكر لنا القرآن أن يوسف الشاب قد مالت نفسه إليها كما مالت نفسها إليه في لحظة من اللحظات، إلا أن ذكر ربه حال بينه وبين الاستجابة لعواطفه البشرية؛ فانتفض على نفسه وصرف الله عنه السوء والفحشاء؛ فهرب

---

(١) سورة يوسف ٢١.

(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٩، عدد ٣-٦.

(٣) سورة يوسف ٢٢.

(٤) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٩، عدد ٧-١٢.

خارجاً فقدّت ثوبه وهو في حالة الهروب؛ وعند الباب ألفيا سيدها[(١)].

والملاحظ أن هناك اتفاقاً شبه كامل على هيكل القصة وأحداثها وشخصياتها والرسائل التي تحملها؛ ورغم ذلك فهناك فوارق أساسية تجعلنا ندرك، إضافة إلى التأكيد القرآني على رسالة القصة والمصادقة عليها، مراجعة نقدية للتدخلات البشرية التي وقعت في قصّها، فانزاحت بها إلى اعتبارات اجتماعية وعنصرية ومذهبية ما أنزل الله بها من سلطان؛ ومن ذلك في هذا الموضع الاختلاف بين التلاوتين في ما يتعلق بثوب يوسف؛ إذ جاء في النص الكتابي أنها أمسكت ثوبه فتركه في يدها؛ بينما ذكر القرآن الكريم أنها قدّت قميصه من دبر؛ وواضح أن الثوب المذكور هو ما كان يلبسه يوسف، وأنه لم يخلعه بل أمسكته منه بقوة لتجبره على فعل الفاحشة معها؛ ولا يمكن أن يبقى الثوب بيدها أو جزء منه إلا إذا قدته؛ ولنستمع إلى يوسف في وصيته يحدثنا عن هذه الواقعة؛ ويؤكد لنا ما ذهب إليه القرآن، قال: «وأخيراً أمسكت بثيابي، وشدّتني بعنف حتى تقيم صلات معي. وعندما رأيتها، وقد استحوذ عليها الجنون، تأخذ ثيابي بالقوة، هربت عارياً»[(٢)].

ذكر النص الكتابي أن يوسف عندما هرب من المراودة ترك ثوبه عند امرأة سيده، ولما جاء سيده أخبرته أن يوسف أراد بها سوءاً ولما رفضت ترك ثوبه وهرب خارجاً[(٣)].

وذكر النص القرآني أنه بعد حادثة المراودة استبقا إلى الباب، إذ كانت تريد أن تحبسه من الخروج ومن الفضيحة، وهو يريد أن يهرب من السوء والفاحشة؛ وذكر القرآن أنها قدّت قميصه من دُبُر، وهو ما يفيد أنه الهارب

---

(١) سورة يوسف ٢٣- ٢٥.

(٢) مخطوطات قمران، الجزء الثاني، وصية يوسف، ص ٤٣٤.

(٣) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٩، عدد ١٣-١٨.

منها أولاً، فأخذت قميصه من دبر فقدّته؛ كما ذكر القرآن تفصيلاً أساسياً وهو إلفاء سيّدها لدى الباب؛ وهو ما دفعها إلى اتهام يوسف بأنه أراد بها سوءاً[1].

لقد أضاف القرآن الكريم تفصيلاً مهماً أغفله النص الكتابي، يتعلق بالقميص الممزق، وبالشاهد من أهلها[2]؛ حيث اعتبر الشاهد القميص دليلاً على الإدانة أو البراءة، ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (سورة يوسف).

لقد ثبتت براءة يوسف منذ اليوم الأول، وعُلم أنه من كيد امرأة العزيز.

وبالرجوع إلى النص الكتابي نجد أن المرأة أمسكت بالثوب حتى جاء زوجها[3]، لكن النص لم يذكر لنا ما دلالة الثوب هذه في القصة، إذ انتهى الكلام عنه بمجرد مجيء زوجها، وهو ما يعني أن حلقة الثوب مفقودة، وهي حلقة البراءة التي حكاها القرآن الكريم.

ثم ذكر القرآن أن أصحاب قرار مجتمع المدينة المصرية كان يتطلب إخفاءً للموضوع، حتى لا يكثر فيه القيل والقال؛ ولهذا طُلب من يوسف أن يعرض عن الموضوع برمّته ولا يتحدث فيه مع أحد؛ كما وُجّهت إلى المرأة إشارات التحذير من الذنب والخطيئة التي ارتكبت في حق يوسف[4]. وهو أمر لم يتحدث عنه النص الكتابي القانوني.

رغم كل الاحتياطات التي قام بها العزيز وآل بيته، فإن المدينة شاع فيها

---

(١) سورة يوسف ٢٣- ٢٥.

(٢) سورة يوسف ٢٦- ٢٨.

(٣) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٩، عدد ١٦.

(٤) سورة يوسف ٢٩.

الخبر عن أسرته، ومراودة امرأته لفتاها عن نفسه، وشغفها به، وفضيحتها وضلالها المبين.

وهو أمر اجتماعي مهم ذكره القرآن الكريم[1]، لم يتحدث عنه النص الكتابي.

كما أورد النص القرآني لنا كيف عالجت امرأة العزيز القضية اجتماعياً؛ إذ إنها عندما سمعت بما يشيع عنها من قبل نساء المدينة، أقامت محفلاً واستدعتهن إليه، وآتت كل واحدة منهن بفاكهة وسكين؛ وأخرجت عليهن يوسف؛ فانبهرن به حتى قطعت كل واحدة منهن أصابع يدها من الانبهار والذهول؛ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (سورة يوسف)؛ فبرأت نفسها مما يؤاخذنها به، وأخبرتهن أنه هو الذي لمنها فيه، وأنها راودته عن نفسه فاستعصم، وأنها مصمّمة على المضيّ في هذا الطريق إلى النهاية، فإما أن يفعل ما تأمره، وإما أن يسجن ويعذب[2].

عالجت قصة يوسف لنا أمراً في غاية الأهمية، كشفت فيه عن أسرار الأنفس وأسرار البيوت وأسرار المجتمعات، في ما يتعلق بعلاقة النساء بالرجال. إن الرجل مهما كانت قوته الإيمانية والمبدئية يمكنه أن يتعرض للإغواء من طرف المرأة، وكذلك المرأة مهما كانت مكانتها الاجتماعية وقوتها الإيمانية وغير ذلك.

كان يوسف مثالاً لشباب كثيرين يعملون في بيوت سادة وسيدات، يخضعون لهن فيأتون الفاحشة والسوء ويخونون أصحاب النعمة عليهم؛ وهناك نساء كثيرات أعجبن بعمال عندهن أو موظفين أو خدام، فتحرّشن بهم

---

(١) سورة يوسف ٣٠.

(٢) سورة يوسف ٣١-٣٢.

فسقطوا جميعاً في الفاحشة؛ فكم من عاملة أو أجيرة أو موظفة سقطت في حبائل مشغلها، أو أسقطته في حبائلها؛ ولا يسلم من ذلك إلا من رحم ربك؛ والقصة تحمل رسالة التطهير التي تبدأ من الارتباط النفسي والإيماني بالله، وتمر عبر تطهير البيوت وتزكيتها من العلاقات المفتوحة على مصراعيها دون قيد أو شرط؛ وتصل إلى جميع فئات المجتمع، مهما ادّعى أهلها أنهم محصنون من السوء والفحشاء.

رسالة قصة يوسف في الكتاب المقدس والقرآن الكريم تحدثت عن كل هذا الذي ذكرنا؛ لكن الإضافة القرآنية في هذا الموضع كانت في الوقوف على هذه الأسرار من خلال الأمثلة التي تبرز ما في صدر يوسف، وما في صدر امرأة العزيز ونساء المدينة، وفي بيت العزيز وبيوت نساء المدينة، حتى قال يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ (سورة يوسف).

لم يقف النص الكتابي كثيراً عند هذه التفاصيل التي تكشف أسرار الأنفس والبيوت والمجتمعات؛ وإنما انتقل مباشرةً إلى سجن يوسف بعد أن اتهمته المرأة بمراودته لها عن نفسها.

لكن نصوصاً أبوكريفية كثيرة حدثتنا عن معاناة يوسف قبل وصوله إلى السجن في آخر المطاف.

لقد راودته سيدته عن نفسه، بدعوى أنها ستترك الأصنام هي وزوجها إن استجاب لها، أو أنها ستسمّم زوجها وتتزوّجه إذا لم يرد أن يرتكب معها العهر، فقالت: «إذا كنت تريد أن أترك الأصنام واصلني، وسأقنعن زوجي بالانفكاك عن الأصنام وسنمشي أمام ربك». لكنني قلت لها: «ليس في النجاسة يريد الرب أن يحيا الذين يجلّونه، وهو لا يسرّ بالذين يرتكبون

العهر، إنما بالذين يقتربون منه بقلب نقي وشفتين بلا دنس». لكنها كانت تسكت تريد إشباع رغبتها. أما أنا فكنت أضاعف الصوم والصلوات حتى يحررني الرب منها.

وفي مرة ثانية، قالت لي أيضاً: «إذا لم تكن تريد ارتكاب العهر، فسأسمم زوجي وأتخذك زوجاً». لكنني عندما سمعت ذلك مزقت ثيابي وقلت لها: «يا امرأة، خافي الله ولا ترتكبي هذه الجريمة، خوفاً من أن تقتلي، إذ اعلمي أنني سأكشف للجميع مشروعك الزنديق». فهلعت ورجتني ألا أكشف مكرها. وانسحبت تريد تهدئتي بالهدايا وكافة أنواع الاهتمام»[1].

٨ - دخول السجن

بعد الحملة المنظمة التي قادتها امرأة العزيز ضد يوسف الصدّيق، كان عليه السلام يبحث عن مخرج مما هو فيه؛ حتى قال قولته الشهيرة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (سورة يوسف).

وكان صرف الكيد عنه بإدخاله إلى السجن: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأٓيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ (سورة يوسف) فكان السجن مخرجاً ليوسف من كيد النساء، ومخرجاً لآل العزيز من كلام المجتمع وشائعاته؛ وهو ما ارتآه سياسيو البلد، من بعد ما رأوا الآيات.

ثم حدثنا النص الكتابي عن النعمة التي وجدها يوسف في أعين سجانيه، وكذلك في أعين الأسرى الذين في بيت السجن، حتى دفع رئيس بيت السجن إلى يوسف جميع الأسرى الذين معه[2]؛ وحدثنا القرآن كذلك أن يوسف كان

---

(١) مخطوطات قمران، الجزء الثاني، وصية يوسف، ص ٤٣٣.

(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٩، عدد ٢١-٢٣.

في عين المسجونين معه من المحسنين، ولذلك كان يستفتونه حتى عن رؤاهم، إذ الصالحون والمحسنون هم القادرون على تأويل الرؤيا؛ وكانوا يقولون له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة يوسف، ٣٦).

٩ - رؤى في السجن

ذكر لنا كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم حلم السجينين، فالأول رآى أنه يعصر خمراً، والثاني رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه؛ فنبأهما أن الأول سينجو ويسقي سيده خمراً وأن الثاني سيصلب وتأكل الطير من رأسه؛ وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك[1].

لقد كان التوافق كاملاً بين التلاوة الكتابية والتلاوة القرآنية في مضامين الحلمين وتفسيرهما؛ بينما أضافت التلاوة الكتابية تفاصيل عن ماهية السجينين وأحوالهما وظروفهما، وأمور أخرى ثانوية لم يذكرها النص القرآني. وكانت الإضافة القرآنية بياناً لدعوة يوسف الدينية، ومنها تعليم الله له تأويل الرؤى، واتباع ملة التوحيد، التي يتخذ الناس فيها ربّاً واحداً هو الله الواحد القهار، لا الأرباب المتفرقة التي سمّاها الناس وآباؤهم وما أنزل الله بها من سلطان.

ثم تحدث سفر التكوين من الكتاب المقدس وسورة يوسف من القرآن الكريم عن نسيان الناجي من السجينين ذكر يوسف لدى سيده، فبقي في السجن سنين أخر[2].

(١) انظر سورة يوسف ٣٦-٤١؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٠/ ١- ١٩.
(٢) انظر سورة يوسف ٤٢؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٠/ ٢٠- ٢٣.

١٠ - رؤيا الملك

تحدّث النصان التوراتي والقرآني عن رؤيا الملك، التي رأى فيها سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات[(١)]، وعن عجز ملأ الملك عن تفسير رؤياه[(٢)]، ثم عن تذكر الناجي من السجينين ليوسف بعد زمان طويل، عندما كان الملك يسأل عمن يفسر رؤياه؛ فحكى للملك قصته معهما وتفسيره لهما رؤياهما، التي جاءت مثلما قال؛ ثم طلب إليهم أن يرسلوه ليأتيهم به[(٣)].

وتحدث النص الكتابي عن المجيء بيوسف إلى فرعون ليسأله عن تأويل الرؤيا[(٤)]، بينما تحدث النص القرآني عن سؤال يوسف في سجنه عن الرؤيا ليرجع بفتواه إلى الناس لعلهم يعلمون[(٥)].

وذكر لنا النصان معاً مضمون الرؤيا وتفسيرها، فكان واحداً، سبع بقرات سمان وسبع سنبلات خضر تفيد سبع سنوات من الخصب تأتي على الناس، وسبع بقرات عجاف وسبع سنبلات يابسات تفيد سبع سنوات شداداً تأكل ما يجمع الناس في سنوات الخصب[(٦)]. ثم يقدم يوسف في النص الكتابي مقترحاً عملياً لتدبير أمر الخصب والجفاف؛ «(٣٣) «فالآن لِيَنْظُرْ فِرْعَوْنُ رَجُلاً بَصِيراً وَحَكِيماً وَيَجْعَلْهُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ. (٣٤) يَفْعَلْ فِرْعَوْنُ فَيُوَكِّلْ نُظَّاراً عَلَى الأرض ويأخذ خُمْسَ غَلَّةِ أَرْضِ مِصْرَ فِي سَبْعِ سِنِي الشَّبَعِ (٣٥) فَيَجْمَعُونَ

---

(١) انظر سورة يوسف ٤٣؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤١/ ١- ٧.
(٢) انظر سورة يوسف ٤٣-٤٤؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤١/ ٨.
(٣) انظر سورة يوسف ٤٥؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤١/ ٩- ١٣.
(٤) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤١/ ١٤.
(٥) انظر سورة يوسف ٤٦.
(٦) انظر سورة يوسف ٤٧-٤٩؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤١/ ١٥- ٣٩.

جَمِيعَ طَعَام هَذِهِ السِّنِينَ الْجَيِّدَةِ الْقَادِمَةِ وَيَخْزِنُونَ قَمْحاً تَحْتَ يَدِ فِرْعَوْنَ طَعَاماً. فِي الْمُدُنِ وَيَحْفَظُونَهُ. (٣٦) فَيَكُونُ الطَّعَامُ ذَخِيرَةً للأرض لِسَبْعِ سِنِي الْجُوعِ الَّتِي تَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ. فَلا تَنْقَرِضُ الأرض بِالْجُوعِ»[1]. وأما في النص القرآني فكان اقتراح التدبير جزءاً من تأويل الرؤيا: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (سورة يوسف)، وكان ذلك في النص القرآني قبل أن يخرج يوسف من السجن، وقبل أن يلتقي بالملك.

١١ - البراءة

رغم أن يوسف قد ألقي في السجن، بسبب اتهامه بالتحرش بامرأة العزيز، صفح النص الكتابي ذكراً عن هذا الموضوع، ولم يُثره عند خروج يوسف من السجن، كما لم يبرئه منه؛ وأما النص القرآني فبينت لنا تلاوته أن يوسف لما جاءه الرسول ليذهب به إلى الملك من السجن، طلب منه أن يرجع إليه ليحقق في مسألة النساء اللاتي قطعن أيديهن أولاً؛ ولم يخرج يوسف من السجن حتى أثبت القضاء براءته، وشهدت النساء على هذه البراءة واعترفت المرأة بمراودتها له، وبأنه بريء مما اتهمته به[2]؛ وهو ما جعل التلاوة القرآنية تقدم لنا إضافة نوعية أساسية في القصة غابت عن النص الكتابي.

١٢ - على خزائن الأرض

اختار الملك يوسف ليجعله على كل أرض مصر، لتنفيذ البرنامج المقترح

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤١، عدد ٣٣- ٣٦.

(٢) سورة يوسف ٥٠-٥٣.

لسنوات الخصب والجفاف؛ ويلاحظ أن النص الكتابي جعل فرعون الملك هو من يختار يوسف، بعد أن فسر له الرؤيا[١]؛ بينما جعل النص القرآني يوسف هو من اقترح نفسه لشغل هذا المنصب بعد أن تبثت براءته مما نسب إليه من خيانة وفحشاء[٢]. والملاحظ أن النصين معاً تحدثا عن حفظ يوسف وعلمه أو روح الله التي فيه وبصيرته وحكمته، واستحقاقه للمنصب الذي هو فيه. لقد كان نجاح يوسف عظيماً وكان مثالاً للحكمة التي لا يستطيع أحد سلبها، والتي تظهر حتى وسط الأعداء؛ وفي ذلك يقول لاوي في وصيته: «فلا أحد يستطيع سلب حكمة الحكيم، وإلا فعمى الكفر وتحجر الخطيئة. ولكن إذا حفظ أحد نفسه من أعماله السيئة؛ عندها فإن حكمته ستضيء حتى وسط أعدائه؛ ففي الأرض الأجنبية سيجد وطناً، وحتى عند العدو سيعتبر صديقاً. فكل من يعلم هذا ويمارسه سيتصدر مع الملوك، مثل أخي يوسف»[٣]. وذكر لنا سفر التكوين ما كان يقوم به يوسف من تدبير للشأن الزراعي في كل أرض مصر، حيث جعل كل طعام الحقول المحيطة بالمدينة في مخازنها، وكان عدده يتجاوز قدرة الخازنين على الإحصاء؛ وعندما أتت سنوات الجفاف وكان الجوع في كل الأرض، كان الناس يأتون إلى مخازن مصر ليجدوا قمحاً وينجوا من مجاعة محققة.

ورغم أن النص القرآني لم يحدثنا عما فعله يوسف في تدبير خزائن الأرض في سنوات الجفاف؛ إلا أن مقترحه قد تضمّن كل تفاصيل هذا التدبير، بدءاً من الزراعة: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾؛ فالأمر يتطلب عملاً متواصلاً دؤوباً يزرع فيه الناس كل سنة حقولهم؛ ويتركون الزرع في سنبله،

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤١، عدد ٣٧- ٤٥.

(٢) سورة يوسف ٥٤.

(٣) مخطوطات قمران، الجزء الثاني، وصية لاوي، ص ٣٤١.

ولا يأكلون منه إلا قليلاً: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾. وعندما تأتي السنوات العجاف، فإنها ستكون شرهة تأكل ما تجده في طريقها؛ وعليهم أن يحتاطوا في تقديم الطعام لها حتى لا تأكل كل شيء، ليحققوا الأمن الغذائي ويحصّنوا أنفسهم من المجاعة: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (سورة يوسف). وقد أضاف يوسف في تفسيره للرؤيا في النص القرآني، بيان ما يأتي بعد هذه الأزمة من فرج: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (سورة يوسف).

١٣ - يعقوب وأبناؤه

ذكر النص الكتابي أن يعقوب أرسل أبناءه إلى مصر لشراء القمح، فنزل عشرة إخوة دون أخيهم بنيامين[١]؛ واتفق النصان الكتابي والقرآني على كون إخوة يوسف قد جاؤوا إليه وهو في مصر، فعرفهم لكنهم لم يعرفوه[٢]، وأنه قد طلب منهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم[٣]؛ وذكر النص الكتابي أن يوسف تذكر الأحلام التي رآها عن إخوته عندما رآهم[٤]؛ وأنه حبسهم ثلاثة أيام، ثم أطلقهم وحبس واحداً منهم، حتى يأتوا بأخيهم الصغير، وأعطاهم قمحاً ليرجعوا به إلى أهليهم[٥]؛ وذكر حواراً جرى بين الإخوة أمام يوسف، الذي كانوا يظنونه غير فاهم لكلامهم؛ وجاء فيه تذكير أخيهم رأوبين لهم بنهيه لهم

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤٢، عدد ١- ٦.
(٢) انظر سورة يوسف ٥٨؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٢/ ٧.
(٣) انظر سورة يوسف ٥٩؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٢/ ١٦.
(٤) سفر التكوين، الإصحاح ٤٢، عدد ٩.
(٥) وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٢/ ١٧- ٢٠.

عن التأثم بالولد لكنهم لم ينتهوا[١]. ويمكننا أن نستفيد من هذا الحوار الوارد بين الإخوة بين يدي يوسف، فيما ذكرناه آنفاً من إقحام لرغبة يهوذا في إنقاذ يوسف بعد أن كذب هو وإخوته على أبيهم في شأن أكل الذئب له. حيث بيّنا أن المعنيّ بنهي إخوته عما فعلوه هو كبيرهم الذي سمّاه النص الكتابي رأوبين، وليس يهوذا كما يريد النص الرسمي الذهاب إليه. لم يذكر النص القرآني أن يوسف قد أخذ واحداً من إخوته رهينة؛ ولم يذكر مثل هذا الحوار، وإنما ذكر حواراً آخر قالوا فيه عن أخيهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ﴾ (سورة يوسف، ٧٧)؛

ثم اتفق النصان على أن يوسف قد أمر بإرجاع بضاعة كل واحد في وعائه[٢]، وبيّن النص القرآني غاية هذا العمل حتى إذا انقلبوا إلى أهليهم عرفوا بضاعتهم ورجعوا مرة أخرى للتزود؛ وهو ينسجم مع التلاوة القرآنية التي لم يذكر فيها أن يوسف قد أخذ واحداً منهم رهينة. كما ينسجم مع قول يهوذا في التلاوة الكتابية: «(٣) «إن الرَّجُلَ قَدْ أَشْهَدَ عَلَيْنَا قَائِلاً: لا تَرَونَ وَجْهِي بِدُونِ أن يَكُونَ أخوكم مَعَكُمْ. (٤) إن كُنْتَ تُرْسِلُ أخانا مَعَنَا نَنْزِلُ وَنَشْتَرِي لَكَ طَعَاماً. (٥) وَلَكِنْ إن كُنْتَ لا تُرْسِلُهُ لا نَنْزِلُ. لأنَّ الرَّجُلَ قَالَ لَنَا: لا تَرَونَ وَجْهِي بِدُونِ أن يَكُونَ أخوكم مَعَكُمْ»[٣]، إذ لو كان أحد إخوتهم قد أخذ رهينة لذكر في استعطاف أبيهم بحيث يُذكّرونه به.

١٤ - حاجة في نفس يعقوب

تحدّث النص القرآني عن طلب يعقوب من أبنائه ألا يدخلوا إلى مصر من

---

(١) وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٢/ ٢١- ٢٣.

(٢) انظر سورة يوسف ٦٢؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٢/ ٢٥.

(٣) وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٣/ ٣- ٦.

باب واحد، وأن يدخلوا من أبواب متفرقة؛ وكانت هذه الرغبة أمراً نفسياً خاصاً يتعلق بيعقوب عليه السلام، وأنها من العلم الخاص الذي علّمه الله إياه، وإن كان لا يغني من أمر الله، إن قدر الله عليهم شيئاً[1]؛ فكأن يعقوب كان يتخوف على أبنائه من شيء ما، يصيبهم إن دخلوا مجتمعين من باب واحد؛ نفس الأمر رأيناه عندما قص يوسف على أبيه رؤياه، إذ قال له ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ (سورة يوسف).

إن النص القرآني أشار إلى جوانب نفسية واجتماعية عميقة في الفرد (يعقوب) والجماعة (إخوة يوسف)؛ ونبه إلى أمور بشرية مؤثرة في العلاقات الإنسانية لا ينتبه إليها كثير من الناس.

وتحدث النصان القرآني والكتابي عن استضافة يوسف لإخوته[2]، فأضاف النص القرآني، أن يوسف آوى إليه أخاه، وأخبره أنه هو أخوه؛ وأن لا يبتئس بما عمله إخوته له.

وتحدث النص الكتابي عن ضيافة كبيرة أقامها يوسف لإخوته؛ بمن فيهم بنيامين، وأن إخوته خروا وسجدوا له؛ غير أن النص الكتابي في هذا المقام لم يذكر لنا رؤيا يوسف؛ التي ذكرها في مقام آخر لكنه لم يورد فيه السجود ليوسف؛ والواقع أن يوسف ما إن يرى إخوته يسجدون له حتى يذكر رؤياه التي فيها أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين[3].

وذكر كل من النص الكتابي والقرآني كيد يوسف بإخوته عندما وضع طاس فضة الملك في عدل أخيه بنيامين؛ وعندما أرادوا الرجوع إلى بلدهم،

---

(١) انظر سورة يوسف ٦٧-٦٨.

(٢) انظر سورة يوسف ٦٩؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٣/ ١٥-١٦.

(٣) انظر سورة يوسف ٦٩؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٣/ ١٥-١٦.

قيل لهم إنكم سارقون، وقد سرقتم صواع الملك[١]. وبعد تبرئهم من هذا الفعل، تم الاتفاق مع الإخوة على تفتيش متاعهم، وأخذ من وجد الصواع في رحله جزاءً له. فبدأ بالأخ الكبير وانتهى بتفتيش رحل الأخ الصغير ليجده فيه، فأخذه به[٢]، لأن يوسف ما كان له أن يأخذ أخاه إلا وفق القانون المعمول به في مصر (دين الملك)، وهو أن يؤخذ مرتكب الجريمة بجرمه دون أحد من غيره[٣].

ورغم محاولات إخوة يوسف الملحة أن يبقى أحدهم مكانه، وشرحهم للظرف الخاص الذي يوجد فيه أبوهم يعقوب، إلا أن يوسف أرسلهم دون أن يستجيب لمطالبهم[٤]، لقد بيّن النص التوراتي أن يهوذا هو من تقدم إلى يوسف بهذا الطلب، أما القرآن فحدثنا عن طلب جماعي قام به الإخوة، لا يهوذا وحده.

تنتهي أحداث قصة حيلة يوسف التوراتية عند هذا الحد، بحيث لا تصل الحبكة إلى نهايتها؛ لأن يوسف سيغلبه البكاء ويعترف لإخوته بأنه هو يوسف؛ بينما تستمر حبكة القصة القرآنية لتصل بالأحداث إلى منتهاها؛ فبعد أن ييأس الإخوة من أخيهم ينجون بأنفسهم؛ ويقول لهم كبيرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ

---

(١) انظر سورة يوسف ٧٠-٧٢؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٤/ ١-٦.
(٢) انظر سورة يوسف ٧٣-٧٥؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٤/ ٧-١٢.
(٣) انظر سورة يوسف ٧٦؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٤/ ١٣-١٧.
(٤) انظر سورة يوسف ٧٨؛ وانظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٤/ ١٨-٣٤.

حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (سورة يوسف).

ويلاحظ أن النص الكتابي قد جعل الضامن لأخيه هو يهوذا، كما حاول أن يجعل يهوذا هو الباحث عن أخيه ليخرجه من البئر؛ بينما أخبرنا النص القرآني أن كبير الإخوة هو من نهاهم عن قتل يوسف في أول الأمر، وهو ما ذكره سفر التكوين كذلك في قوله: (٢١) وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «حَقّاً إننا مُذْنِبُونَ إلى أخينا الَّذي رأينا ضِيقَةَ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَرْحَمَنَا وَلَمْ نَسْمَعْ. لِذَلِكَ جَاءَتْ عَلَيْنَا هَذِهِ الضِّيقَةُ». (٢٢) فأجابهم رأوبين: «الَمْ أكلمكم قَائِلاً: لا تأثموا بِالْوَلَدِ وَأَنْتُمْ لَمْ تَسْمَعُوا؟ فَهُوَ ذَا دَمُهُ يُطْلَبُ».

١٥ - مع يعقوب

يستمر يعقوب في الشكوى إلى الله في التلاوة القرآنية، وخصوصاً بعد أن أضيف إمساك أخيهم الصغير في مصر إلى ضياع يوسف من قبل؛ بينما سكت عنه النص الكتابي، لأن قصته لم تبلغ أحداثها إلى رجوع الأبناء إلى أبيهم، وانتهت عند وقوف إخوة يوسف عنده يسألونه أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم الصغير.

لقد أضافت القصة القرآنية أن يعقوب حزن كثيراً على ابنيه، وابيضّت عيناه من الحزن؛ حتى أصبح أبناؤه يلومونه على ذكر يوسف؛ ولما رجعوا إلى أبيهم كما طلب منهم أخوهم الكبير، وأخبروه بالخبر؛ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ

---

(١) سورة يوسف ٧٩- ٨٢.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ (سورة يوسف)؛ واستمر يعقوب في حزنه حتى قالوا: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ (سورة يوسف). وطلب منهم أن يذهبوا ليتحسسوا من يوسف وأخيه. لقد غابت هذه المرحلة من مراحل القصة عن التلاوة التوراتية القانونية، وحضرت في التلاوة القرآنية؛ وكان بُعد العلم الرباني الذي وهبه الله ليعقوب حاضراً عرفناه من قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ وبناءً على ذلك العلم أرسل أبناءه مرة أخرى إلى مصر، ليتحسّسوا من يوسف وأخيه؛ لأنه كان يعلم أن الله حافظهما، وأنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون. قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (سورة يوسف)؛ بينما انقطع حبل القصة التوراتية فضاعت حبكتها، وأصبح كل ما كاده يوسف لإخوته عديم المعنى والفائدة.

يرجع إخوة يوسف إلى مصر، وهدفهم هذه المرة البحث عن أخويهم يوسف وأخيه حسب التلاوة القرآنية، بعد أن أمرهم أبوهم بذلك؛ ويدخلون على يوسف يطلبون منه كيلاً وصدقة ويقدّمون له بضاعة مزجاة؛ فيكون مناسباً حينها أن يسألهم عما فعلوه بأخيهم يوسف وأخيه وهم يجهلون؛ وعندها أدركوا أنهم أمام يوسف وأخيه، وأن يوسف هو عزيز مصر، وأن الله قد آثره عليهم، وأنهم كانوا خاطئين؛ فاعترفوا بخطيئتهم وبفضل الله عليه وإيثاره له عليهم[1]؛ فقال لهم يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ (سورة يوسف).

---

(١) انظر سورة يوسف ٨٨-٩١.

رغم التوقف المفاجئ لمسار القصة في التلاوة التوراتية؛ حيث إن حيلة يوسف لم تصل إلى غايتها؛ إذ كان المفروض أن يأخذ أخاه رهينة، ويذهب إخوته إلى أبيهم فيخبروه بما حدث، ويعلم أبوهم أن يوسف ما زال حياً، وأن الله سيأتيه بيوسف وأخيه، فيرسلهم للبحث عن أخويهم وحينها سيندمون على فعلهم وسيرون قدر الله في عباده، وأنه لا يضيع أجر المحسنين؛ رغم ذلك؛ فإن يوسف في التلاوة الكتابية سيعترف لإخوته بأنه هو يوسف، وأنهم لا ينبغي لهم أن يتأسفوا ولا أن يغتاظوا لأنهم فعلوا به ما فعلوا[١]؛ لكننا في هذه التلاوة لم نجد اعتراف الإخوة بخطاياهم ولا بإيثار الله لأخيهم عليهم؛ وهو ما أبرزته التلاوة القرآنية.

١٦ - قميص يوسف

حدثنا النصان الكتابي والقرآني عن طلب يوسف من إخوته الرجوع إلى أبيهم وإخباره بما وجدوا عليه يوسف، والإتيان به إليه[٢]؛ غير أن النص القرآني قدّم لنا معطى آخر يتعلق بالحالة النفسية والوجدانية التي عليها الأب المكلوم في ابنه، والذي فقد بصره من شدة البكاء عليه وعلى أخيه؛ إذ طلب يوسف من إخوته أن يأخذوا قميصه ويلقوه على وجه أبيه فيرتد بصيراً؛ ثم يأتوه بأهليهم أجمعين[٣].

موضوع القميص كان محورياً في قصة يوسف القرآنية، فقميص يوسف الذي جاؤوا عليه بدم كذب هو آية الجفاء، وقميص يوسف الذي قدّته امرأة العزيز هو آية البراء، وقميص يوسف الذي ألقاه إخوة يوسف على وجه أبيهم

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤٥، عدد ١-٦.
(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٥، عدد ٩- ١٢.
(٣) انظر سورة يوسف ٩٣.

فارتد بصيراً هو آية الشفاء؛ فكان القميص بذلك بؤرة القصة في مواضعها الثلاثة الأساسية: موضوع فقدانه وبيعه في أرض مصر، وموضوع مراودة امرأة العزيز له وسجنه، وموضوع لقائه بأبيه وإخوته وسجودهم له.

حدثنا سفر التكوين عن وقوع يوسف على عنق أخيه وبكائهما معاً، ثم تقبيل جميع إخوته له، وبكائهم جميعاً[١]. وهو أمر لم يتحدث عنه القرآن الكريم؛ إلا أن موضوع وقوع يوسف على عنق أخيه وبكائهما، يقابله في النص القرآني، في مرحلة سابقة، قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ (سورة يوسف، ٦٩)؛ التي تفيد اختلاء يوسف بأخيه وانفراده به حتى ينعما بلحظات اللقاء والأنس بينهما بعد بعاد طويل. ولعل هذا الإيواء هو ما حذفته التلاوة الكتابية عندما أوقفت القصة عند حد رفض يوسف أن يستجيب لطلب إخوته بأن يعطيهم أخاهم؛ لكنه فقد زمام المبادرة وغلبته دموعه، واعترف لإخوته بأنه يوسف، ولم يكمل إجراءات الحيلة التي خطط لها وأوصى بها فتيانه؛ بينما سارت أحداث القصة القرآنية وفق الخطة المرسومة من قبل يوسف وبقي معه أخوه فآواه إليه، وأرسل إخوته ومعهم خبرهما إلى أبيه في البدو.

تحدث النص الكتابي عن موقف فرعون من إخوة يوسف وأبيه وكيف أنه سمح لهم بأن يدخلوا مصر ويسكنوا في أماكن معينة لرعي مواشيهم ودوابهم[٢]؛ ولم يحدّثنا النص القرآني عن موضوع فرعون أو أي ملك آخر، وإنما نسب إلى يوسف أمر إدخال إخوته إلى مصر[٣] باعتباره يتبوأ مركزاً مهماً على خزائن الأرض.

واستمر النص القرآني في بيان الجوانب النفسية والوجدانية ليعقوب،

---

(١) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٥، عدد ١٤-١٥.

(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٥، عدد ١٦-٢٤.

(٣) انظر سورة يوسف ٩٣.

الذي ما إن تحرك أبناؤه من مصر حتى بدأ يتحدث عن ريح يوسف، فكان الذين معه يتهمونه بالضلال القديم[(١)]؛ ولم يُذكر لنا في التلاوة الكتابية الحديث عن هذه الجوانب.

وصل أبناء يعقوب من مصر إلى أبيهم وأخبروه بما علموا من أمر يوسف، فعاشت روحه ورغب في الذهاب لملاقاة ابنه، حسب النص الكتابي[(٢)]؛ وحسب النص القرآني، فما إن ألقى البشير على وجه يعقوب قميص ابنه يوسف حتى ارتد بصيراً؛ وقال لهم: «ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون؛ فطلب منه أبناؤه أن يستغفر لهم ربه، إنه هو الغفور الرحيم»[(٣)].

وارتحل يعقوب وكل ما كان له إلى مصر، وفي طريقه قدّم ذبائح في بئر سبع، حسب النص الكتابي[(٤)]، وهو أمر لم يشر إليه النص القرآني.

وذكر النص الكتابي أن يعقوب وأبناءه أخذوا كل ما كان لديهم وجاؤوا إلى أرض مصر[(٥)]؛ وعن استقبال يوسف لهم ووقوعه على عنق أبيه وبكائه زمناً طويلاً. (٣٠) فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «أَمُوتُ الآنَ بَعْدَمَا رَأَيْتُ وَجْهَكَ أَنَّكَ حَيٌّ بَعْدُ»[(٦)].

وتحدّث القرآن الكريم عن دخول أبوي يوسف وإخوته إلى مصر، إن شاء الله آمنين[(٧)].

---

(١) انظر سورة يوسف ٩٤-٩٥.
(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٥، عدد ٢٥-٢٨.
(٣) انظر سورة يوسف ٩٦-٩٨.
(٤) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٦، عدد ١-٤.
(٥) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٦، عدد ٥-٧.
(٦) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٦، عدد ٢٨-٣٠.
(٧) انظر سورة يوسف ٩٩.

١٧ - السجود

لم يُرد كتبة النص الكتابي أن يختموا قصة يوسف بتحقيق الرؤيا وسجود إخوة يوسف لأخيهم مثلما فعل القرآن الكريم؛ لقد حاول كتبة النص الكتابي، بتأثير من السبط الحاكم، سبط يهوذا، أن ينقلوا السجود من يوسف إلى أخيه يهوذا؛ ولذلك وضعوا عراقيل كثيرة أمام إبراز سجود إخوة يوسف لأخيهم؛ وهو ما نراه - رغم ذلك - بارزاً في بعض المواضع في الكتاب المقدس؛ ومن هذه العراقيل ما ورد في مباركة يعقوب لأبنائه، عندما نال يهوذا بركة سجود إخوته له دون يوسف؛ ولذلك فما إن يقصّ يوسف على أبيه حلمه حتى ينتهره ويقول له: «"مَا هَذَا الْحُلْمُ الَّذِي حَلُمْتَ! هَلْ نَأْتِي أنَا وَأُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ لِنَسْجُدَ لَكَ إِلَى الارْضِ؟" (١١) فَحَسَدَهُ إِخْوَتُهُ وَأَمَّا أَبُوهُ فَحَفِظَ الأَمْرَ»[١].

إن هذا الجزء من القصة هو الجزء الرابط بين مطلعها وختامها، إذ في مطلعها يذكر كل من القرآن الكريم والكتاب المقدس رؤيا يوسف وسجود إخوته له؛ ويذكر القرآن الكريم في خاتمتها تحقق هذه الرؤيا بقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ (سورة يوسف).

لكن النص الكتابي أصر على عدم الربط بين رؤيا يوسف في مطلع القصة وبين تحققها في ختامها كما تحققت مختلف الرؤى الواردة فيها، ومنها رؤيا السجينين ورؤيا الملك.

---

(١) سفر التكوين ٣٧/ ١٠- ١١.

وإن السبب في هذا الامتناع عن الربط بين حلم السجود وتحقيقه في الواقع يسقط نظرية السبط الحاكم سبط يهوذا الذي انتزع السيادة من بيت يوسف ليخص بها بيت يهوذا؛ وهو ما نراه جلياً في البركة العظيمة التي خص بها يعقوب يهوذا دون باقي إخوته، والتي جاءت في خاتمة قصة يوسف لتفرض على جميع الأسباط نظرية السبط الحاكم؛ وقد جاء فيها:

«(٨) يَهُوذَا إياكَ يَحْمَدُ إخوتك. يَدُكَ عَلَى قَفَا أعدائك. **يَسْجُدُ لَكَ بَنُو أبيك**. (٩) يَهُوذَا جَرْوُ أسد. مِنْ فَرِيسَةٍ صَعِدْتَ يَا ابْنِي. جَثَا وَرَبَضَ كَأَسَدٍ وَكَلَبْوَةٍ. مَنْ يُنْهِضُهُ؟ (١٠) لا يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُوذَا وَمُشْتَرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّى يأتي شِيلُونُ وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ. (١١) رَابِطاً بِالْكَرْمَةِ جَحْشَهُ وَبِالْجَفْنَةِ ابْنَ أتانه. غَسَلَ بِالْخَمْرِ لِبَاسَهُ وَبِدَمِ الْعِنَبِ ثَوْبَهُ. (١٢) مُسْوَدُّ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الْخَمْرِ وَمُبْيَضُّ الأسنان مِنَ اللَّبَنِ»[١].

لقد نال يهوذا كل البركة، فهو الذي يحمده إخوته، ويسجد له بنو أبيه، وتكون له السلطة والثروة وفي ذريته يكون الملك؛ غير أن واقع الحال إلى وفاة يهوذا ووفاة إخوته لم يكن كذلك، فالذي سيسجد له إخوته هو يوسف، وبسبب هذا السجود كانت هذه القصة كلها، لأن إخوته رفضوا ذلك، وكادوا له؛ إلى أن أكرمه الله بأن وهب له الملك والتصرف في خزائن مصر؛ وهو ما يفيد أن لسبط يهوذا دخلاً في محاولة تغيير حقيقة السجود ليوسف وتحويله إلى يهوذا؛ وإن كثيراً من النصوص الكتابية بما في ذلك القانونية تشهد بالأمر.

لقد جاء في موضوع رؤيا يوسف في سفر التكوين:

«ثُمَّ حَلُمَ أيضاً حُلْماً آخر وَقَصَّهُ عَلَى إخوته. فَقَالَ: «إني قَدْ حَلُمْتُ حُلْماً أيضاً وإذا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً سَاجِدَةٌ لِي»[٢].

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، عدد ٨-١٢.

(٢) سفر التكوين ٣٧/ ٩.

وجاء فيه:

«وَكَانَ يُوسُفُ هُوَ الْمُسَلَّطَ عَلَى الأرض وَهُوَ الْبَائِعَ لِكُلِّ شَعْبِ الأرض. فأتى إخوة يُوسُفَ وَسَجَدُوا لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إلى الأرض. (٧) وَلَمَّا نَظَرَ يُوسُفُ إخوته عَرَفَهُمْ فَتَنَكَّرَ لَهُمْ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ بِجَفَاءٍ وَقَالَ لَهُمْ: «مِنْ أين جِئْتُمْ؟» فَقَالُوا: «مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ لِنَشْتَرِيَ طَعَاماً»[١].

ومنها: «فَلَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إلى الْبَيْتِ أَحْضَرُوا إليه الْهَدِيَّةَ الَّتِي فِي أياديهم إلى الْبَيْتِ وَسَجَدُوا لَهُ إلى الأرض. (٢٧) فَسَأَلَ عَنْ سَلامَتِهِمْ وَقَالَ: «أسالم أبوكم الشَّيْخُ الَّذِي قُلْتُمْ عَنْهُ؟ أَحَيٌّ هُوَ بَعْدُ؟» (٢٨) فَقَالُوا: «عَبْدُكَ أبونا سَالِمٌ. هُوَ حَيٌّ بَعْدُ». وَخَرُّوا وَسَجَدُوا»[٢].

وفي جميع الأحوال فإن يهوذا لم يسجد له أحد من إخوته، وإنما الذي سجد له إخوته هو يوسف الصدّيق كما حدثتنا هذه النصوص مجتمعة، ونصوص أخرى منحولة لا موجب لعرضها في هذا المقام. وهو ما يفيد أن سبط يهوذا قد قام بتوجيه النصوص الحاخمية القانونية إلى ما يخدم أهواءه[٣].

ثم تحدث النص الكتابي عن السكنى في أرض جاسان وامتلاكها من أجل مواشي بني إسرائيل[٤]؛ وهو ما لم يذكره النص القرآني. ويظهر أن موضوع امتلاك الأرض وممتلكات أخرى يعدّ محورياً في التلاوة الحاخامية التي تؤصّل أساساً للمملكة المقبلة.

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤٢، عدد ٦-٧.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٣، عدد ٢٦-٢٨

(٣) انظر بحثنا عن الأسباط.

(٤) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٦ عدد ٣١-٣٤ والإصحاح ٤٧ عدد ١-٦.

خاتمة

يختم النص القرآني قصة يوسف التي اعتبرها أحسن القصص، بالحديث عما تحدث عنه في مطلعها؛ وهو موضوع أنباء الغيب الذي أوحاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم؛ وقد كان عنه من الغافلين؛ وهو يؤكد أن محمداً ما كان لدى إخوة يوسف إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون؛ وبعد أن ناقش مطلع القصة عروبة القرآن وأمية الرسول، فقد ناقشت خاتمتها، طبيعة العلم الذي جاءت به، فهو من علم الغيب، الذي لم يكن لمحمد علم به؛ ولا كان حاضراً بين إخوة يوسف؛ ولا كان مكتسباً من خلال ما يُتلى على الناس من كتاب؛ وكل الرسل الذين كانوا قبل محمد كان الطريق إلى حصولهم على العلم هو الوحي؛ ولذلك فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن بدعاً من الرسل في هذا الأمر.

ثم تنهي سورة يوسف موضوع قصتها بالحديث عن طبيعة قصص الأنبياء وغايتها بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (سورة يوسف)؛ فبيّنت أن أهمية هذه القصص يدركها أولو الألباب، الذين يعلمون أنها قصص ما كان لها أن تفترى من دون الله؛ وأنها تحمل في طيّاتها حقائق خالدة، تصدّق ما جاء به المرسلون والكتب المقدسة؛ وتفصّل للناس كل أمورهم إذا تدبّروا فيها، وتهديهم إلى التي هي أقوم، ويحصلون منها على رحمة عظيمة إن كانوا يؤمنون؛ ومن ثم فما عليهم إلا أن ينظروا إليها بإيجابية كاملة لعلها تنفعهم؛ والحمد لله رب العالمين.

المحمدية ٢٠١١/٠١/٠٥

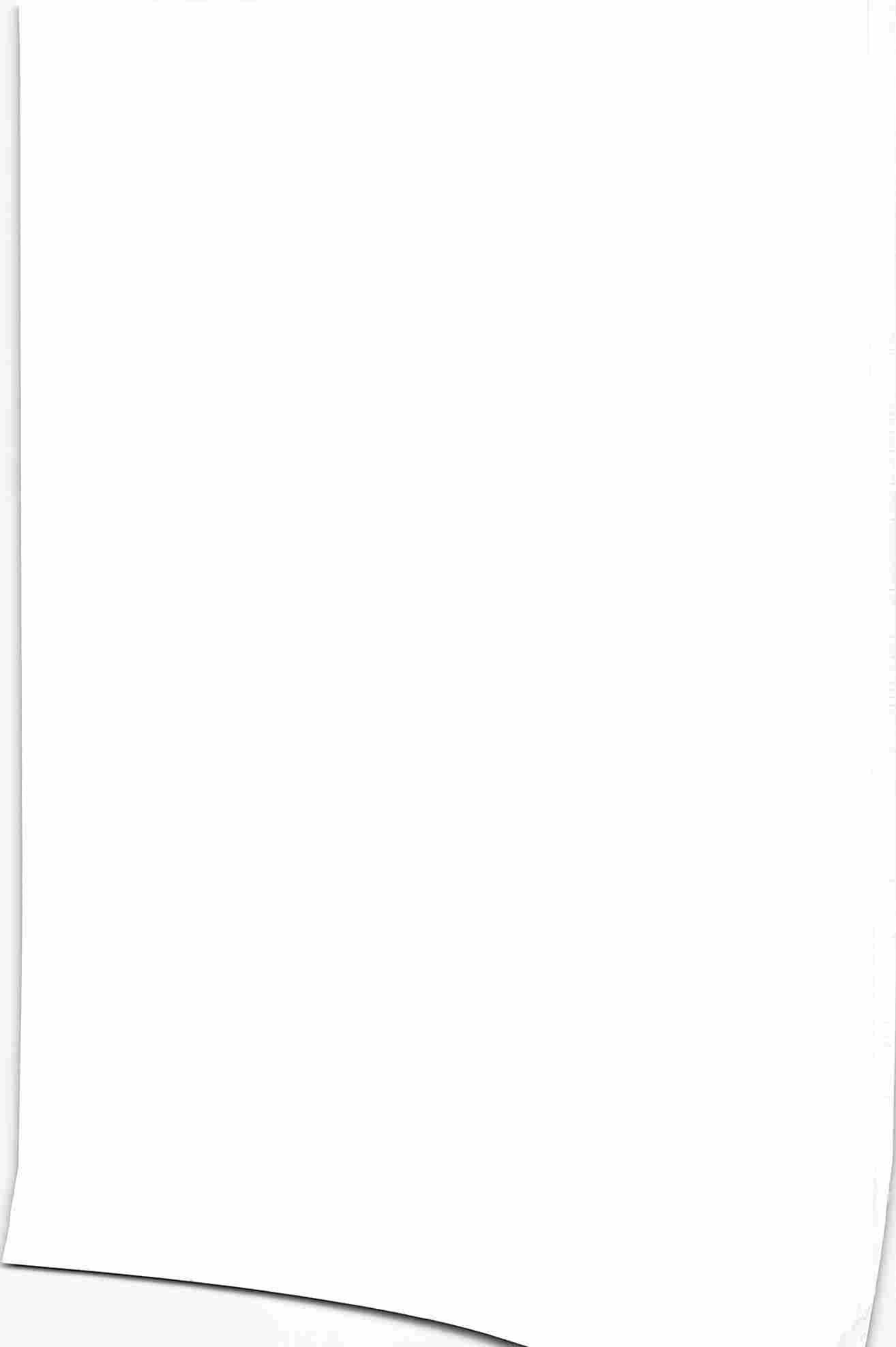


المصادر المعتمدة في هذه الدراسة هي الكتب المقدسة والقرآن الكريم أساساً، إضافة إلى بعض النصوص القديمة الأخرى، التي لم نوردها إلا في مرات قليلة؛ كمخطوطات قمران المكتشفة بالبحر الميت، ونصوص التلمود والهاكاداه المطبوعة في كتب مستقلة بهذا الاسم؛ وقد ترجمنا منها ما احتجنا إليه إلى اللغة العربية.





الموقع الإلكتروني للمؤلف
www.adyan-center.org



تبيّن هذه الدراسة الإضافة النوعية التي أتى بها القرآن على ما جاء في سفر التكوين، بدءاً من خلق الكون والإنسان، ومروراً بقصّة ابني آدم، ونوح، وإبراهيم، والأسباط، وانتهاءً بقصة يوسف.

ويرى المؤلّف أن القرآن قدّم قراءته الجديدة التي سمّاها «التلاوة بالحق»، للقصص نفسها المتداولة بين الناس في زمن النزول، والمشكّلة لعقلياتهم وثقافاتهم وتصوراتهم للعالم والغيب والإنسان. كما قام القرآن بمراجعته النقدية وقدّم اقتراحات مفيدة تنفذ إلى أعماق النفس الإنسانية، وتكشف عن السنن التاريخية، وتبيّن أسرار الاجتماع الإنساني، وقواعد السلوك والعلاقات بين الناس، على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

مصطفى بوهندي أستاذ التعليم العالي ورئيس مختبر الأديان والعلوم الإنسانية في جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الدار البيضاء. مدير مركز أديان للبحث والترجمة بالمحمدية. صدر له «التأثير المسيحي في تفسير القرآن»، «نحن والقرآن»، «أكثر أبو هريرة».


ISBN 978-1-85516-773-5

